



ناتج الأدب العربي

تأليف
أحمد حسن الزيات
عضو مجمع اللغة العربية

طبعة جديدة منقحة وصححة



بآخر الكتاب دليل لغوي يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

قد يسمى كتاب خزانة

مقابل آراء باع كراچی

نسخ الإعراب

طبعة جديدة منقحة وصحوة

تأليف
أحمد حسن الزيات
عضو مجمع اللغة العربية

بآخر الكتاب ذيل لغوي يفسر ما غرض من الألفاظ والتراكيب

قلبي يميني كُتُبُ خَانِمْ

مُقابِلُ آلامِ بَاغِ كِراچی

ترجمة المؤلف

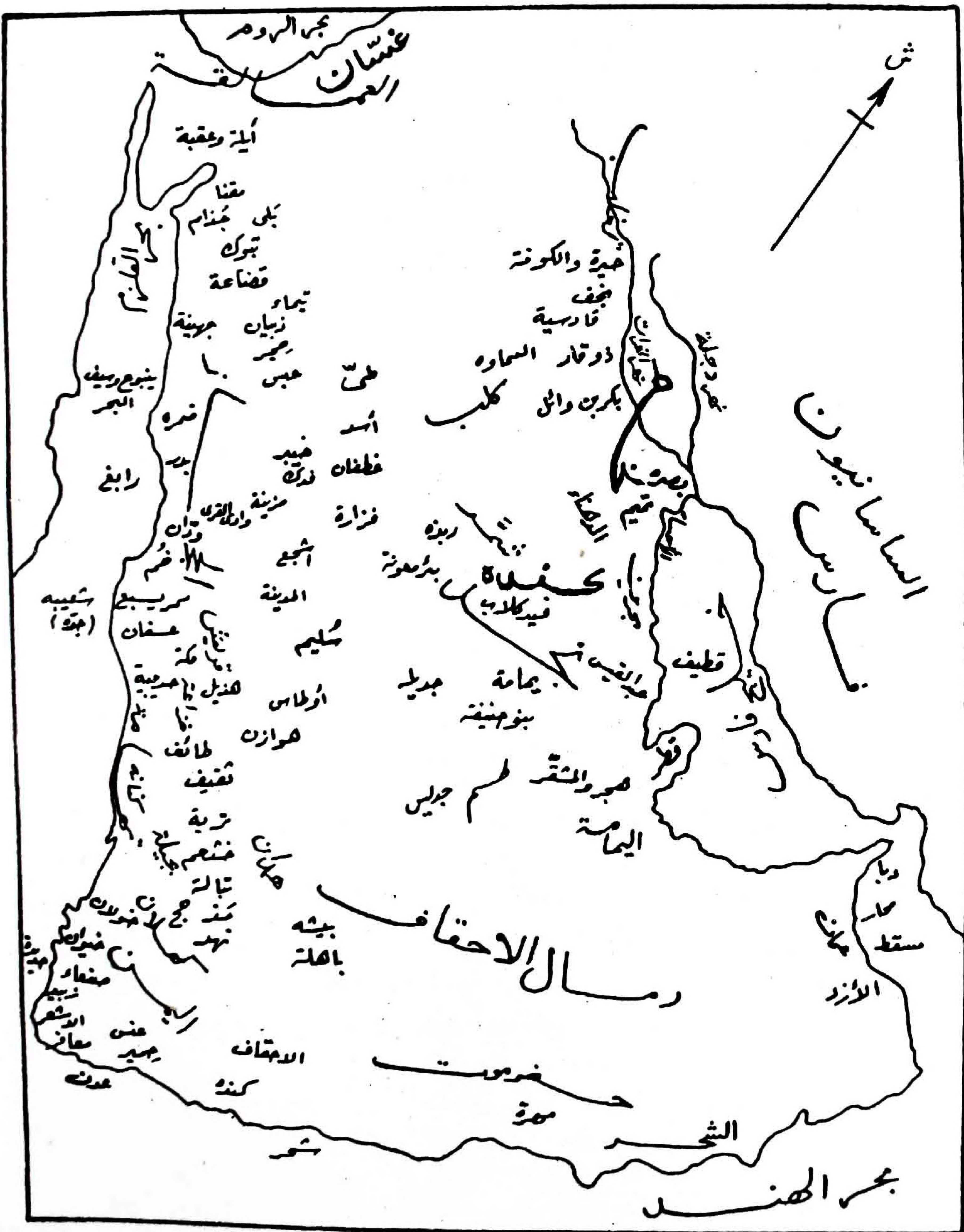
أحمد حسن الزيات

١٨٨٥ - ١٩٦٨ م

١٣٠٢ - ١٣٨٨ هـ

هو: صاحب «الرسالة» أديب من كبار الكتاب مصري ولد بقرية كفر دميرة القديم، في طلخا، ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته. وعمل في التدريس الأهلي. فعلم العربية في مدرسة «الفرير» نحو سبع سنوات. وتعلم مدة في مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة. ودرس الأدب العربي في المدرسة الأميركية بالقاهرة (١٩٢٢) ثم في دار المعلمين ببغداد (١٩٢٩) وأقام ثلاث سنوات صنف فيها كتابه «العراق كما عرفت» وأحرق الكتاب قبل نشره. وعاد إلى القاهرة، فأصدر مجلة «الرسالة» سنة (١٩٣٣ - ٥٣) ثم إلى جانبها «الرواية» وأغلقهما. وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وعين في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. ونال جائزة الدولة التقديرية (سنة ٦٢) ثم أعاد الرسالة سنة (٦٣) فلم تكن لها مكانتها الأولى، فأحتجبت وأنقطع إلى تحرير «مجلة الأزهر» سنة ١٣٧٢ - ٧٤ هـ، وتوفي بالقاهرة. وحمل إلى قريته فدفن فيها. وأول ما علت به شهرته، كتاب «تاريخ الأدب العربي - ط» ثم كان من كتبه المطبوعة «دفاع عن البلاغة» و«حي الرسالة» أربعة أجزاء، و«في أصول الأدب» و«في ضوء الرسالة». وترجم عن الفرنسية «آلام فرتر - ط» لجوته، و«روفاثيل - ط» للامارتين. وكان من أرق الناس طبعاً، ومن أنصع كتاب العربية ديباجة وأسلوباً. وللسيد جمال الدين الألوسي كتاب «أدب الزيات في العراق - وهو مطبوع»^(١).

(١) - انظر عن حياته: المجمعيون ص ٣٣ وعدنان الخطيب في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ٦٧٦/٤٣ والدكتور مهدي علام في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٢١٣/٢٤ وفي بحثه أن ابناً للزيات أخبره نقلاً عن أبيه أن الصحيح في تاريخ ميلاده هو ١٨٨٣ والأدب العربي والنصوص: ٦٨٠/٦ وجريدة الأهرام ٦٨/٦/١٣ وانظر الدراسة: ٥٠٧/٣ نقلاً عن الأعلام للزركلي: ١١٤/١.



جزيرة العرب على عهد النبي ﷺ

مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثر عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيلة الدقيقة، وتصوير المعاني الرقيقة، مما يهذب النفس ويرقق الحس ويثقف اللسان. وقد يطلق الأدب على جميع ما صنف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء.

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء؛ لأنها آداب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية. فما كانت لغة مضر بعد الإسلام لغة أمة واحدة، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه، أودعوها معانيهم وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم، ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والأدب والحضارة والعلم، فصرعت كل لغة نازلتها ووسعت علوم الأولين وآداب الأقدمين، من يونان وفرنس ويهود وهنود وأحباش، واستمسكت على عرك الخطوب تلك القرون الطويلة، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونبخلة، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار، تتألف، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية.

تاريخ الأدب:

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور، وعما عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن ونقد مؤلفاتهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب.

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل

مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة، أو تعليماً لعلم أو فن، أو تخليداً لحادثة أو واقعة. فدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها.

فائدة تاريخ الأدب:

لتاريخ الأدب الأثر البالغ في حياة الأمة. فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الأساس التي يبنى عليها الشعب وحدته ومجده وفخره. فإذا حرمت شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعت سياق تقاليد الأدبية والقومية حرمت قوام خصائصه ونظام وحدته، وقُدت إلى العبودية العقلية وهي شر من العبودية السياسية، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه، ويرجى شفاؤه، أما استعباد الروح فموت للقومية التي لا يقدر على إحيائها طبيب.

تقسيم تاريخ الأدب:

التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممهد له. غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة العمل والرأي العزيمة، فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على السنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم، وصفاء النفس منهم؛ ثم ينتقل تأثيرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

لذلك آثرنا أن نجاري كثرة كتابنا في تقسيم تاريخ ادابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهي:

(١) - العصر الجاهلي، وابتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م.

(٢) - عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، وابتدىء مع الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ.

(٣) - العصر العباسي، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ.

(٤) - العصر التركي، وابتدىء بسقوط بغداد وينتهي عند النهضة الحديثة سنة ١٢٢٠ هـ.

(٥) - العصر الحديث، وابتدىء باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال.

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة:

العرب أمة من الأمم التي اصطلح المؤرخون على أن يسموها سامية (نسبة إلى سام بن نوح) وهي البابلية والأشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية. امتهدت هذه الشعوب في الأصل مهذاً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه. وتعيين هذا المهد لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث: فبعض يقول إنه العراق، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب، وآخرون يزعمون أنه الحبشة. ومهما يكن الخلاف في مهد الساميين فقد نزحوا منه في غابر الدهر، فسكن البابليون والأشوريون العراق، والفينيقيون سواحل سورية. والعبرانيون فلسطين، والأحباش الحبشة، والعرب شبه جزيرتهم. وهي واقعة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا. ويحدها من الشمال سورية، ومن الشرق الفرات وجهة من المحيط الهندي أيضاً، ومن الغرب البحر الأحمر. ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين: غربياً وشرقياً؛ فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطئ البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة لحره والشرقي يصعد إلى أطراف العراق والسماء فيسمى نجداً لارتفاعه، وما فصل بين الغور ونجد يدعوونه الحجاز لحجزه بينهما. أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة، وإما ليمنه.

وفي هذه الأقسام توزع الشعبان العربيان: شعب قحطان، وشعب عدنان. فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة. فلما نبت بهم مرابعه تمزقوا في البلاد، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب، وكان من أعقابه الأوس والخزرج. ثم احتل حارثة بن عمرو وهو خزاعة، الحرم. ومال عمران بن عمرو نحو عمان، فبنوه أزد عمان. واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة؛ ووقف زواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة. ونزل بنو لخم بالحيرة ومنهم نصر بن ربيعة أبو المناذرة. وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما يأسره إلى ريف العراق، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها، ويطون كنانة في تهامة، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران. وسكنت ثقيف الطائف، وهوازن شرقي مكة، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، وبنو تميم بادية البصرة. واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية. وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر، فأطراف سواد العراق فالأبلة، فهيت.

والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات:

بائدة: وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم، فلم يسجل لهم التاريخ إلا

صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة. وأشهر قبائلهم: عاد وثمود وطسم وجديس. ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية. وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾^(١) وأما طسم وجديس فتفانوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية.

وعاربة: وهم اليمنيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان. ويزعم العرب أنه أصل لسانهم، ومصدر بيانهم وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً مالكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم في القفر

ومن اليمنيين بطون حمير - وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك. وبطون كهلان - وأشهرهم همدان وطىء ومذحج وكندة ولخم. ومن لخم بنو المنذر في الحيرة والأزد. ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والغساسنة في الشام. وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال.

ثم مستعربة: وهم ولد إسماعيل عليه السلام، نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ثم صاهر ملوك جرهم، فكان له بنون وأعقاب ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح. وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومضر وأنمار وأياد. فمن ربيعة عبد القيس، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل. ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبطون اليأس بن مضر. فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وغطفان؛ ومن غطفان عيس وذبيان ابنا بغيض. وأما أولاد اليأس فأفترقوا، فمنهم بطون تميم بن مر، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش: ثم انقسمت إلى بطون شتى. فمنهم جُمح وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف. ثم كان من عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم، ومن هاشم عبد المطلب: وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول ﷺ، وأبو طالب والد علي رضي الله عنه ثم العباس. فالعلويون ينتسبون إلى علي، والعباسيون إلى العباس. وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم وإنما هم من بني عبد شمس أخيه.

وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة، وما نتحمل به من بيان، وما ندرسه من أدب، وما نعتقد من دين.

أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية:

إن لجو الإقليم أثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله، فهو الذي ينهج لهم سنن معاشهم ونظام

(١) سورة: الحاقة، الأيتان: ٥ - ٦.

اجتماعهم، ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم. والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها الغيث وتوانيتها العيون؛ فهي لا تصلح للزروع الدورية، ولا تلائم الحياة الحضرية. ومن ثم كان أهلها بدواً بالفطرة يعيشون تحت الخيام على رعي الأنعام فيطعمون من لحمها ولبنها، ويكتسبون بصوفها ووبرها، ويتبعون بها مواقع القطر ورياض الأرض يسمونها فيها. ويرددونها بين أوديتها وفيافيها؛ إلا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام، وإيلافهم رحلة اليمن والشام؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر، ووفرة ما تغله أرضهم من الحب والتمر. فإذا أخلفت السماء وأمحلت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو. وجزيرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعث الألفة. ولم ينكب الجاهليون بمثل الحرب والجذب، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة، ويتبجحون باللسن والفصاحة، ويؤثرون الذكر ويثدون الأنثى، ويتكاثرون بالنفر العديد، ويعتزون بالقرابة الواشجة.

ثم كان إلفهم حياة الظعن والتجوال؛ وتوزع همهم بين الجدال والقتال، أن غلبت عليهم الحرية والعصبية والوحشية، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية. وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة، لا مجتمع الشعب والأمة؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف، فلم تكن الجرشيّة كحكومة الإغريق، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس، اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين: فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة، والفسانيون في الشام يتبعون القياصرة. وإذن فمعاني الحضارة والرأي العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا أفاظ لها عند العرب والساميين جميعاً. والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم، لأن المرءوسية والتجرد عن الشخصية - وهما الركنان الأساسيان في العسكرية - يصادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف، فلم يكن للعرب ما كان للاغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار، فحالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان ونصها على الكعبة تقرباً بها إلى الله على زعمهم. وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب. أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والفساسنة بالشام.

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم: تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله: يملك

عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء، فربما وأد ابنته خوف الفقر، وانتفى من أمته خوف العار. وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة، يجعلها الزوج في نفسه، ويشاركها في أمره، ويتغنى باسمها في شعره، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه. وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك. ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالمسافحة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب. ويقرب من هذه الأنواع زواج كانت تعقده السيوف والأسنة. وذلك أن أحدهما يلقي رجلاً معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها، فيتقاتلان، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك. وكانوا يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف، ويحلون التزوج من امرأة الأب ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة. أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض. ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد.

وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود، وأحيوه من الأرض، وعمره من المدن ولكن درجة رقيهم، وحقيقة علومهم، لا تزالان سراً مطوياً في جوف الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل.

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة، وكثرة التجارب، واضطرار الحاجة، طائفة من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم. فعرفوا الطب والبيطرة والخيال لاتصالها بالحرب؛ ولاحظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها بالكلا والغيث، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار والأشعار، محافظة على عصبيتهم، وتحديثاً بمفاخرهم، وتخليداً لمآثرهم، ومهروا في الفراسة والقيافة^(١) ووصف الأرض، لكشف الدعي فيهم، وطلب الهارب منهم. ثم قادهم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة والعرافة والزجر، ففزعوا إلى الكهان في أمراضهم، واستفتوا العرافين في أغراضهم، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك.

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككاً من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية. ولو ساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خيرة ومعارف واسعة كَوَّنُوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهي صورة

(١) القيافة: هي الاهتداء إلى الهارب بآثاره.

اجتماعهم لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والارض
والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماء ودرجت أجزاءه . ووضع اللفظ للنبي . دليل على وجوده
وعلمه . ولعمري ما يكون التمدن اللغوي إلا بعد تمدن اجتماعي رافق في حثيثه وإن لم
يرق في شكله . عام في أثره وإن لم يعم في أهله .

الباب الاول

العصر الجاهلي

الفصل الاول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية. انشعبت هي ومن من أرومة واحدة نبتت في أرض واحدة. فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة.

ويقال إن أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسطى، ولكن علماء المشرقيات من الأوروبيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. فالآرامية أصل الكلدانية والآشورية والسريانية، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية، والعربية تشمل المضربية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. والراجع في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بآعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران.

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء. والنصوص الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال، ومن كثرة الحل والترحال، وتأثير الخلطة والاعتزال، اضطراب في اللغة كالترادف، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، وهنات المنطوق

كمجموعة^(١) قضاغة، وطمطمانيّة^(٢) حمير، وفحفحة^(٣) هذيل، وعننة^(٤) تميم، وكشكشة^(٥) أسد، وقطعة^(٦) طيء، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يفهم أهلها ولا يتقارب أصلها.

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة الشمال ولغة الجنوب. وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبو عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا». على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم - وقد حدث عام ٤٤٧ م كما حققه غلازر الألماني - وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن. فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللهجتين في المنطق، دون أن تتغلب إحداهما على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة، ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة أخرى. وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميريين تزول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلبت الفرس عليه طوراً آخر. وكان العدنانيون حينئذ على نقیض هؤلاء تنهياً لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال، بفضل الأسواق والحج، ومنافستهم للحميريين والفرس، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية، فاندثرت لغة حمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم.

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرا مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداءة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها:

(١) العجمجة: وهي قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة، مثل: راعي يقولون فيها: راعج. وفي كرسى كرسج.

(٢) الطمطمانيّة: هي جعل أم بدل أل في التعريف، فيقولون في البر: أمير، وفي الصيام أمصيام.

(٣) الفحفحة: هي جعل الحاء عيناً، مثل: أحل إليه فيقولون أعل إليه.

(٤) العننة: هي إبدال العين في الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة، فيقولون في أمان: عمان.

(٥) الكشكشة: جعل الكاف شيئاً مثل: عليك فيقولونها: عليش.

(٦) القطعة: هي حذف آخر الكلمة، مثل قولهم: يا أبا الحسن، تصبح: يا أبا الحسا.

١ - الأسواق: وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوق وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأي، والمباذلة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه، وطمعاً في تكثير مشاييعه. والرواة من ورائه يطرون شعره هم القبائل وينشرونه في الأنحاء فتتشر معه لهجته وطريقته وفكرته.

وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز. وأولاهن أشهر فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية. كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج. وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج، لأنها متوجههم إلى الحج، ولأنها تقام في الأشهر الحرم، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها. وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضع بيانه وفصح لسانه.

٢ - أثر مكة وعمل قريش: كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر. وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وغيرهم الدثر آمنين، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم، وقوة في الفهم، وثروة في المال، وخبرة بأمور الحياة: وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالاً وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشتروا مرافقهم مما تنتجه أوتجلبه. ذلك إلى أن قريشاً أهلها وأمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج، ورياستهم في عكاظ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران أشد الناس بالقبائل ارتباطاً، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً. كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال. ثم كانوا على إثارة من العلم بالكتب المنزلة: باليهودية في يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر. ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلوا الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظاً، وأبلغها أسلوباً، وأوسعها مادة، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتى لها الذیوع والغلبة.

الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله، وعدم تقيده، وضرورة استعماله. وهو نوعان: مسجع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية، ومرسل إن كان غير ذلك. وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة، وفعل الوراثة، وقلة الاختلاط بالأعاجم. اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترقيق والتفخيم والإبدال والإمالة. ولم يُعن الرواة من مشورهم على كثرتهم إلا بما علق بالذهن لنفاسته وبلاغته وإيجازه، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص.

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير. وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية، كقولهم: وافق شَنّ طبقة. ولأمر ما جدع قصير أنفه. ويداك أوكتا وفوك نفخ. وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها. وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ، فقد جمع كتابه: [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم.

والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو. وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العجول. من سلك الجدد أمن العثار. عي صامت خير من عي ناطق.

والخطبة والوصية كلتاها يراد بها الترغيب فيما ينفع وعما يضر، إلا أن الأولى تكون على ملأ من الناس في المجامع والمواسم. والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت.

مميزات النثر الجاهلي:

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زُخرف ولا غلو. يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب،

قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحي الفكرة. وربما تساوقت فيه الحكمة وأطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة.

الخطابة:

الخطابة كالشعر لحمتها الخيال وسداها البلاغة. وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سبل التأثير والإقناع. تحتاج إلى ذلاقة اللسان ونصاعة البيان، وأناقة اللهجة، وطلاقة البديهة. والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء، وأولو غيرة ونجدة. فكان لهم فيها القدم السابقة والقُدح المَعْلَى. وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ونجارها، والذود عن شرفها ودمارها، وإصلاح ذات البين بين الحيين، والسفارة بين رؤس القبائل وأقيالهم، أو بين الملوك وعمالهم. وكانوا يدربون فتيانهم عليها منذ الحداثة، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشد أزرها، وشاعر يرفع ذكرها. وربما اجتمع الصفتان في واحد.

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ، خلاب العبارة، واضح المنهج، قصير السجع، كثير الأمثال. وهم إلى قصارها أميل لتكون أعلق بالصدور وأذيع.

ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشز من الأرض أو القيام على ظهر دابة، ورفع اليد ووضعها، والاستعانة على العبارة بالإشارة، وأتخاذ المخاصر بأيديهم؛ والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها.

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة، جهير الصوت، سليم المنطق، ثبت الجنان. وأشهر خطبائهم في هذا العصر قس بن ساعدة الأيادي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحارث بن عباد البكري، وقيس بن زهير العبسي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وحسبنا أن نترجم لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر.

الخطباء

١ - قس بن ساعدة الإيادي

٢٢٠ ≈ ٦٠٠ م

٤٠٣ ق هـ ≈ ٢٣ ق هـ

حياته: هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها. كان يؤمن بالله ويدعو

١ - انظر ترجمته في: النوادر: ص ٢٦٢، والمجبر: ص ١٣٦، ٢٣٨، وتاريخ الطبري: ٨٣٦/٢، =

إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال إنه أول من خطب على شرف، وأتكا على سيف، وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي ﷺ في عكاظ فأنشى عليه. ويروى أنه قال فيه: «رحم الله قساً! إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده». وكان يفد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه. ولكنه صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة ٦٠٠ م، وقد عمّر طويلاً.

أسلوبه: إن صح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً، شديد الروعة، متخير اللفظ، قصير الفواصل. يعتمد فيه إلى ضرب الأمثال واستنتاج العبر من مصارع الطفلة وظواهر الكون. وله شعر يجمع إلى الجزالة رقة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه (١).

قال من خطبته في سوق عكاظ:

أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مـُدحاة، وأنهار مجرأة. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لـِعبراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالاً وأطول آجالاً؟ طحنهم الدهر بكلـِكله، ومزقهم بتطاوله.

في الـذاهبين الأوليـ	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي	ولا من الباقيـن غابر
أيقنت أني لا محـا	لـه حيث صار القوم صائر

ومن حكمه: مَنْ عَيَّرَكَ شَيْئاً ففـيه مثله. ومن ظَلَمَكَ وجد من يظلمه. وإذا نهيت عن الشيء فأبدأ بنفسك. وكن عفّ العيلة مشترك الغنى. ولا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً. ومن شعره قوله يرثي أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمعان:

خـليـليُّ هـبـا طـالـمـا قـد رـقـدـتـمـا أجـدُّ كـمـا لا تـقـضـيـان كـرا كـمـا!

= والأغاني ٢٤٦/١٥ - ٢٥٠، ومعجم الشعراء: ص ٣٣٨، ومجمع الأمثال: ٩٧/١، والأعلام للزركلي: ١٩٦/٥.

(١) قيل: إنه توفي وله من العمر ثلاثمائة وثمانون سنة.

الم تعلم ما أني بسمعان مفرد
أقيم على قبريكما لست بارحاً
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية
سأبكيكما طول الليالي وما الذي
ومالي فيه من حبيب سواكما؟
طوال الليالي أويحيب صداكما
كأن الذي يسقي العقار سقاكما!
لجذت بنفسي أن تكون فداكما
يرد على ذي غولة إن بكأكما!

٢ - عمرو بن معد يكرب الزبيدي

٥٣٥ - ٦٤٣ م

٨٩ ق هـ - ٢١ هـ

حياته: عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس اليمن وخطيب العرب وبطل القادسية، ينتهي نسبه إلى قحطان ويكنى أبا ثور. لقي النبي ﷺ لدى منصرفه من تبوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه، ولكن قلبا شاب في الجاهلية الجهلاء، ورتع في الدماء والأشلاء، وأشتهر في اللهو والصهباء، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق، فارتد بعد إسلامه. ثم رجع إلى الحق وجاهد في سبيل الله حق جهاده. ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة، فأبلى فيها بلاء حسناً. ثم توفي في أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م.

صفته ومنزلته: كان قوياً بديناً أكولاً، وكان سيداً مطاعاً وبطلاً شجاعاً وخطيباً شاعراً؛ يعد في الطبقة الثانية من الشعراء، وفي الأولى من الخطباء، ويغلب في شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة. يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سراة العرب إلى أنوشروان بالمدائن ليكون كلامهم بين يديه مصداقاً لدعواه في العرب وأفتخاره بهم وتفضيله إياهم فلقى هذه الخطبة:

إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد، وملاك النجعة الارتداد، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فأجتبذ طاعتنا بلفظك؛ وأكتظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يلن لك قيادنا. فلإنا أناس لم يُوقَصْ صفاتنا قِراع مناقير من أراد لنا قضمًا، ولكن منعنا جمانًا من كل من رام لنا هضمًا.

٢ - انظر ترجمته في: جمهرة النسب، ترتيب كاسكال: ١٧٨/٢، وطبقات ابن سعد: ٣٨٣/٥،

والأغاني: ٢٠٨/١٥ - ٢٤٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٦، وسمط اللآلي: ص ٦٤، والإصابة:

٣٣/٣ - ٣٩، وخزانة الأدب: ٤٢٥/١ - ٤٢٦، والأعلام للزركلي: ٢٦٠/٥ - ٢٦١.

وانظر ما كتبه بلاشير في كتابه: تاريخ الأدب العربي: Blachère, Histoire 283-284، وما كتبه نالينو

في كتابه: تاريخ الآداب العربية: Nallino. Litt. ar. 76-77.

ومن شعره قوله في أبي المرادي وقد توعدده:

أعاذل شِكْتِي بِدَنِي ورمحي	وكلُّ مُقْلَصٍ سلس القياد
أعاذل إنما أفني شبابي	وقرح عاتقي ثقل النجاد
تمناني ليلقاني أبي	وددت وأينما مني ودادي
ولو لاقيتني ومعى سلاحي	تكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلي!	عذيرك من خليلك من مُراد!

وقوله:

ليس الجمال بمئزر	فأعلم وإن ردبت بُردا
إن الجمال معادن	ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا	بغة وعداء علندي!
نهداً وذا شطبٍ يقد	البيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح	بواته بيدي لحدا
ما إن جزعت ولا هلع	ت ولا يرد بكاي رشدا
ذهب الذين أحبههم	وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من الشر الجاهلي

من الأمثال:

قالت العرب في أمثالها:

(إذا سلمت الجلة فالنيب هذر) أي إذا سلم ما ينتفع به هان ما لا ينتفع به .
(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفسه إذا مني بمن هو أدهى منه .
(إنك لا تجني من الشوك العنب) أي لا تجد عند ذي المنبت السوء جميلاً .
(ذكرني فوك حماري أهلي) أصله أن رجلاً خرج يطلب حمارين ضلاً له ، فرأى امرأة فاعجبته ، فنسي الحمارين . فلما أسفرت عن وجهها رأى فيها قبيحاً فقال هذا المثل .
(تجشأ لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعي ما ليس يملك .
(رمتني بدائها وأنسلت) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به .
(رب كلمة تقول لصاحبها دعني) يضرب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار .
(أسر حسواً في ارتغاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع إلى نفسه . وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر أنه يريد الرغبة خاصة فيشربها وهو في ذلك ينال من اللبن .
(أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل) . . أصله أن رجلاً أُغِيرَ على إبله فأخذت ، فلما توارى

المغيرون بها صعد أكمةً وجعل يسبهم، ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل.
(أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟...) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين.
(قد يحمل الغير من دعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرُّوع فحمله على ما ليس من طبعه.
(قبل الرُّمي يُراش السهم...) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله.

من الحكم:

ومن حكم العرب قولهم: مصارع الرجال تحت بروق الطمع. كَلُمَ اللسان أنكى من كَلَمَ السنان. رب عَجلة تهب ريثاً. العتاب قبل العقاب. التوبة تغسل الحوبة. من سلك الجدد أمن العثار. أول الحزم المشورة. رب قول أنفذ من صول. أنجز حرماً وعد. اترك الشر يتركك. من ضاق صدره اتسع لسانه. يدك منك وإن كانت شلاء. رب ملوم لا ذنب له. من مأمنه يؤتي الحذر.

الخطب:

قال هانيء بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم، وهو يدلك على مذهب الجاهليين في النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل:

يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناج فرور. إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحر، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر، قاتلوا فما من المنايا بد!

وخطب عبد المطلب عند سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال: وإن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، باذخاً شامخاً، وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه تلجأ العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا بعده خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهئة، لا وفد المرزئة.

من الوصايا:

أوصى زهير بن جناب الكلبي بنيه قال:

يا بني كبرت سني، وبلغت حرصاً من دهري، فأحكمتني التجارب، والأمور تجربة

وأختيار. فأحفظوا عني ما أقول وعوه. إياكم والحدور عند المصائب، والتواكل عند النوائب، فإن ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظن بالرب وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فإنه ما سخر قوم قط إلا أبتلوا، ولكن توقعوها، فإن الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرماة. فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أن يصيبه.

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغني أبويها، وشدة حاجتهما إليها، لكنت أغنى الناس.

أي بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفه، وقرين لم تألفه. فأحملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً: أصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة، وتعهدي موقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح، ثم أعرفي وقت طعامه، وأهدئي عند منامه. فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. ثم أتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد الناس له إعظماً، يكن أشدهم لك إكراماً. وأعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك.

وأوصت أعرابية ولدها قالت:

أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً. وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما أعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهي^(١) ما أشد من قوته. وإياك والجود بدينك والبخل بمالك. وإذا هزرت فأهزز كريماً يلن لهزتك، ولا تهزز لثيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسن من غيرك فأعمل به، وما استقبحت من غيرك فأجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ربطتها وسريالها^(٢).

(١) يهي: أي: يضعف.

(٢) السريال: وهو القميص. كل ثوب رقيق يشبه الملحفة.

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه وأوليته :

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة . وقد يكون نثراً كما يكون نظماً . والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلى رقى في العقل ، أو تعمق في العلم ، أو تقدم في المدنية . ولكن أوليته عند العرب مجهولة ، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مقصّد . وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس ، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشعبت مناحيه . والمظنون أن العرب خطوا من المرسل إلى السجع ومن السجع إلى الرجز ، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد . فالسجع هو الطور الأول من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة ، وتقييداً للحكمة ، وتعمية للجواب ، وفتنة للسامع . وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون ، زعموا أنهم مهبط الإلهام ، وأنبياء الآلهة ، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد ، ويستلهمونها بالأدعية ، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في حمل مقفاه موقعة أطلقوا عليها اسم السجع تشبيهاً لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة .

فلما ارتقى فيهم ذوق الغناء ، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء ، ومن الدعاء إلى الحداء ، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز .

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان ، فكان للحماسة وزن ، وللغزل وزن ، وللهمزج وزن ، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً .

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء ، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة ، والرجز

من إيقاع مشي الناقة، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة أو التسيحة، وقولهم إلى الآن: أنشد الشعر بمعنى ألقاه، ما يؤيد ذلك.

الشعر والعرب:

العرب أشعر الساميين فطرة، وأبلغهم على الشعر قدرة، لاتساع لغتهم للقول، وملاءمة بيتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم، وقوة عصبيتهم وكمال حريتهم، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل، ويعوق الذهن عن التفكير، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة. وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة، وطباع نائرة، يستفزهم الرغب والرهب، ويزدهيهم الطرب والغضب، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس إلا نظموا، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، وشاهد صوابهم وخطأهم، ومادة حوارهم وسمهم. وكانوا كلهم يروونه، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر حتى روى عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله فلا بدع إذا كان الشاعر يغويهم ويرشدهم، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم. والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم، كحديث الأعشى مع المحلق وحسان مع بني عبد المدان، والحطيئة مع بني أنف الناقة.

أنواع الشعر وأغراضه:

أنواع الشعر ثلاثة: شعر غنائي أو وجداني Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره. وشعر قصصي Eptique وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة، كالألياذة والشاهنامة. وشعر تمثيلي Dramatique وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال. وينسب إليهم ما يلائمه من الأفعال. والغنائي أسبق هذه الأنواع إلى الظهور؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت. والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه.

ولما كان الشعر مادته الخيال، والخيال غذاؤه الحس؛ والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية، ولا يسمع من الأقايصيص إلا البطولة والحرب، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة، أبدع في وصف ما شاهده من حيوان وسهل وجبل، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل، وتفنن ما شاء له الحب في التشبيب والغزل. فالشعر العربي غنائي محض، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه، والتعبير عن شعوره وحسه. والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة. ومن ثم نشأ فيه

التكرار، وتوارد الخواطر، والسرقة، ووحدة الأسلوب، وتشابه الأثر. وكان من الحق أن يقول زهير:

ما أَرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً

أما الشعر القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه، لأن مزاوتهما تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال؛ وتطلب الإلمام بطبائع الناس، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم؛ وتفتقر إلى التحليل والتطويل، وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث. وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم، وبساطة دينهم، وضيق خيالهم، واعتقادهم بوحداية إلههم، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشعر القصصي، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة التي تعلن المفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان، والإنياد للرومان ومهابهارته للهنود، والشاهنامة للفرس.

مميزات الشعر الجاهلي:

وعوثة الصحراء وخشونة العيش، وحرية الفكر، وطبيعة الجو، وسذاجة البدو، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمه ظاهرة. فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة، وتمثيل الطبيعة، فلا تجد فيه كلفاً بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء؛ فكثرت لذلك الإيجاز، وقل المجاز، وندرت المبالغة. وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع: فعلائق المعاني واهنة واهية، ومساق الأبيات مفكك مضطرب. فإذا حذف أو قدمت أو أخرت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص، وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة. ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة. ومنها استعمال الغريب ومثانة التركيب وجزالة اللفظ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية في طباعهم ونظام اجتماعهم. والابتداء بذكر الأطلال والديار، لأنهم أهل خيام ومضارب، وآلاف انتجاع وظعن، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه، وأحبة ترحلوا عنه. فتهيج الذكر فيحييه ويبكيه والشعر الجاهلي على الجملة كثير التشابه قليل التنوع يجري في حلبة واحدة من السماع والتقليد.

الرواية والمعلقات:

المروئي من الشعر الجاهلي على قصر عهده المعروف يفوت الجمع وتضيق عنه الحافظة. على أن كثيرين من رواة ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر كبير منه.

قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله. ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير، ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها مُريبة، فإن الشعر لم يدون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة وإن في نقله على الألسنة، طوال هذه الأزمنة، مظنة للتبديل والاختلاق والتزويد. وفيما روي عن حماد الرواية وخلف الأحمر من عبيهما بالشعر وافتعالهما إياه مساع لهذا الظن. ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار الغرب أصح الشعر القديم رواية وأصدق تمثيلاً لأسلوبه ومنهاجه. وأبعد هذه القصائد مدى في الرواية، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية، المعلقات أو المذهبات أو السُموط. ومن على الرأي الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب اختارتها فكتبتها بماء الذهب على القباطي، ثم علقتها بالكعبة اعجاباً بها وإشادة بذكرها. وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب الكعبة قبل الإسلام: وأصحابها هم امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة ابن العبد، وليبد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة. ومن الناس من ينكر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة. فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق الألماني نولدكي Noeldeke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام. فمن ذلك تعليق قريش الصحيفة التي وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله ﷺ حين أجمع على الدعوة؛ وتعليق الرشيد عهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمامون فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم ومكانة الشعراء منهم؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق، فإن القصيدة التي قالها بNDAR زعيم الشعر الغنائي يمدح بها دياجوراس قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس.

نماذج من الشعر الجاهلي:

قال امرؤ القيس:

لَغَيْثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ رَائِدُهُ خَالٌ
وَجَادٌ عَلَيْهِ كُلُّ أَسْحَمٍ هَطَالٌ
كُمَيْتٍ كَأَنَّهَا هَرَاوَةٌ مِنْوَالٌ
وَأَكْرَعُهُ وَشْيُ الْبُرُودِ مِنَ الْخَالِ
عَلَى جَمْزَى - خَيْلٌ تَجُولُ بِأَجْلَالِ
طَوِيلِ الْقَرَا وَالرُّوقِ أَخْسَنَ ذِيَالِ
وَكَانَ عِدَائِي إِذَا رَكِبْتُ عَلَى بَالِي
عَلَى عَجَلٍ مِنْهَا أَطَاطِيءُ شَمَالِ

وَقَدْ أَغْتَدِي، وَالطَّيْرُ فِي وَكْنَائِهَا
تَحَامَاهُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ تَحَامِيَا
بِعِجْلِزَةٍ قَدْ أَتَرَزَّ الْجَرِي لِحْمِهَا
ذَعَرْتُ بِهَا سِرْبًا نَقِيًّا جُلُودُهُ
كَأَنَّ الصُّوَارِ إِذْ تَجَاهَدْنَ غَدُودُهُ
فَجَالَ الصُّوَارِ، وَاتَّقَيْنَ بِقَرْهَبِ
فَعَادَيْتُ مِنْهُ بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ
كَأَنِّي يَفْتَخَاءُ الْجَنَاحِينَ لِقُوَّةِ

تخطفُ خِزانَ الأنعم بالضحى
كانَ قلوبَ الطيرِ رطباً وباساً
فلو أن ما أسمى لأدنى معيشة
ولكنما أسمى لمحد مؤثّل
وما المرء ما دامت حُشاشةُ نفسه

وقد حَجَرَتْ منها ثعالبُ أوزال
لدى وَكرها - العُنابُ والحَشَفُ البالي
كفاني - ولم أطلب - قليلٌ من المال
وقد يدرك المجدُ المؤثّل أمثالي
بمُدرك أطرافِ الخطوب ولا آل

وقال النابغة الذبياني من قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني
مقالة أن قد قلت: سوف أناله،
لعمري - وما عمري عليّ بهين -
أقارعُ عوفٍ، لا أحاول غيرها
أتاك امرؤ مستبطنٌ لي بغُضّة
أتاك بقول هلهل النسج كاذب
أتاك بقول لم أكن لأقوله
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
بمصطحباتٍ من إصافٍ وثيرة
سماماً تبارى الريحَ خوصاً عيونها
عليهن شعت عامدون لحجّهم
لكلفتني ذنب امرئ، وتركته
فإن كنت لاذ والضغن عني مكذبٌ
ولا أنا مأمونٌ بشيء أقوله
فإنك كالليل الذي هو مُدركي
خطاطيفُ حُجنٍ في جبالٍ متينة
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة
وأنت ربيعٌ يُنعشُ الناسَ سببه
أبى الله له إلا عدله ووفاءه
وتسقى إذا ما شئت غيرَ مُصرّدٍ

وتلك التي تستك منها المسامع
وذلك من تلقاءٍ مثلك رائع
لقد نطقت بطلاً عليّ الأفارعُ
وجوهُ قروٍ تبتغي من تجادع
له من عدوٍ مثل ذلك شافع
ولم يأتِ بالحق الذي هو ناصع
ولو كُبت في ساعدي الجوامع
وهل يَأْتَمَنُ ذو أمة، وهو طائع
يرون إلاّ، سيرهن التدافع
لهن رزايا بالطريق وذائع
فهن كأطراف الحني خواضع
كذي العر يكوى غيره وهو رافع
ولا حلفي على البراءة نافع
وأنت بامر - لا محالة - واقع
وإن خلت أن المتأى عنك واسع
تمدُّ بها أيدٍ إليك نوازع
ويترك عبداً ظالمٌ وهو ضالع
وسيفُ أعيرته المنية قاطع
فلا النكرُ معروفٌ ولا العرف ضائع
بزوراء في حاناتها المسكُ كانع

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصُّمَّةِ فِي رثاء أخيه :

أرثُ جديداً الحبل من أم مغبّد
وكانت، ولم أحمّد إليك نوالها
كانَ حمولُ الحيّ إذ متع الضحى

بعاقبة، أم أخلفت كل موعّد
ولم ترج منا ردة اليوم أوغِد
بناصية الشحنةاء غصبة مئذود

أو الأثابُ الغمُّ المحرَّمُ سُوقُهُ
فقلت لعارض وأصحاب عارض
علانيةً. ظنوا بألفي. مُدَجِّج
وقلت لهم: إن الأحاليف هذه
ولما رأيت الخيل قبلاً كأنها
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزية؟ إن غوت
دعاني أخي والخييل بيني وبينه
أخ أرضعتني أمه من لبانها
فجئت إليه والرماح تنوشه
وكنْتُ كذات البو ريعت فأقبلت
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهت
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه
تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارساً!
فإن يك عبد الله خلى مكانه
ولا برماً إمّا الرياح تنأوحت
وتخرج منه صرة القُرّ جزاة
كميش الإزار خارج نصف ساقه
قليل تشكّيه المصيبات ذاكر
ذا هبط الأرض الفضاء تزيّنت
وكم غارة بالليل واليوم قبله
سليم الشظى غبل الشوى شنج النساء
يفوت طويل القوم عقد عنذاره
وكنْتُ كأنني واثق بمصدر
له كل من يلقى من الناس واحداً
وهوَن وجدي أنني لم أقل له:

وقال علقمة بن عبدة التميمي:

طحا بك قلب في الحسان طروب
يكلّفني ليلي، وقد شطّ وليها
منعمة، ما استطاع كلامها،

بكابة لم يُخبط، ولم يتعضد
وربط بني السوداء والقوم شهدي
سراتهم في الفارسي المسرد
مطربة بين الستار وثهمد
جراد يباري وجهه الريح مغثدي
فلم يستينوا الرشد إلا ضحى الغد
غوايتهم أني بهم غير مهتدي
غويت وإن ترشد غزية أرشد
فلما دعاني لم يجدني بقعد
بثدي صفاء بيننا لم يجدد
كوقع الصياصي في النسيج الممدد
إلى قطع من جلد بو مجلد
وحتى علاني حالك اللون أسود
ويعلم أن المرء غير مخلص
فقلت: أعبد الله ذلكم الردي؟
فما كان وقافاً ولا طائش اليد
برطب العضاء والضريع المنضد
وطول السرى دري غضب مهند
صبور علي الضراء طلاع أنجد
فمن اليوم أعقاب الأحاديث في غد
لرؤيته كالماتم المتلبد
تداركها مني بسيد عمرد
طويل القرا نهذ أسيل المقلد
منيف كجذع النخلة المتجرد
يمشي بأكناف الجبيل فثهمد
وإن يلق مثني القوم يفرح ويزدد
كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

بُعَيْد الشَّبابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبِ
وعادت عواد بيننا وخطوب
على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البغل لم تُفشِ سرّة
فلا تعدلي بيني وبين مغمر
سقاك يمان ذو حبي وعارض
وما أنت؟ أم ما ذكرها؟ ربعية
فإن تسألوني بالنساء فإنني
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله
يُردن ثراء المال حيث علمنة
فدعها وسلّ الهمّ عنك بجسرة
إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي

وقال عبد يغوث الحارثي اليماني :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
ألم تعلمنا أن الملامة نفعها
فيا راكباً إمّا عرضت فبلغن
أبا كرب والأيهمين كليهما
جزى الله قومي بالكلاب ملامة
ولو شئت نجتني من الخيل نهدة
ولكنني أحمى ذمار أبيكم
أقول وقد شدوا لساني بنسقة
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا
فإن تقتلونني تقتلوا بي سيّداً
أحقاً عبادة الله أن لست سامعاً
وتضحك مني شيخه غبشمية
وقد علمت عرسي مليكة أنني
وقد كنت نحر الحزور، ومغمل الـ
وأنحر للشرب الكريم مطيتي
وكنّت إذا ما الخيل شمسها القنا
وعادية سؤم الجراد وزعتها
كأنني لم أركب جواداً ولم أقل
ولم أسبأ الزق الروي، ولم أقل
وقال ذو الإصبع العدواني :

لي ابن عم على ما كان من خلق

وترضى إياب البعل حين يؤوب
سقتك روايا المزن حين تصوب
تروح به جنح العشي جنوب
يخط لها من ثرمداء قليب
بصير بأدواء النساء طبيب
فليس له من ودهن نصيب
وشرخ الشباب عندهن عجيب
كهّمك فيها بالرداف خبيب
بكلكلها والقضريين وجيب

فما لكما في اللوم خير ولا ليا
قليل، وما لومي أخي من شماليا
نداماي من نجران أن لا تلاقيا
وقيساً بأعلى حضر موت اليمانيا
صريحهم والآخرين المواليا
تري خلفها الحو الجياد تواليها
وكان الرماح يخطفن لمحاميا
أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا
فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
وإن تطلقوني تحربوني بماليا
نشيد الرعاء المعزين المتاليا
كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
أنا الليث معدوا علي وعاديا
مطي، وأمضي حيث لا حي ماضيا
واصدغ بين القينتين ردائيا
ليبقا بتصريف القناة بنانيا
بكفي وقد انحوا إلي العواليا
لخيلي: كرّي نفسي عن رجاليا
لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

مختلفان: فأقلية، ويقليني

أزرى بنا أننا شالت نعامتنا
يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي
لاه ابن عمك! لا أفضلت في حسب
ولا تقوت عيالي يوم مسغبة
إني لعمرك ما بأبي بذي غلق
ولا لساني على الأدنى بمنطلق
عف يؤوس إذا ما خفت من بلد
عني إليك، فما أمي برأعية
كل امرئ راجع يوماً لشيئته
إني أبي أبي ذو محافظة
وأنتم معشر زيد على مائة
فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا
مباذا علي وإن كنتم ذوي رحمة
لو تشربون دمي لم يرو شاربكم
الله يعملني، والله يعلمكم
قد كنت أوتيكم ثم نصحي، وأمنحكم
لا يخرج الكره مني غير مابية

وقال الأفوه الأودي:

البيت لا يبتني إلا له عمد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
تهدي الأمور بأهل الرأي ما صلحت
إذا تولى سراة الناس أمرهم

وقال وذاك بن ثميل المازني:

رويد بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى
عليها الكماء الغر من آل مارن
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم
مقاديم وصالون في الرّوع خطوهم
إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم

فخالني دونه، وخلته دوني
أضربك، حتى تقول الهامة: اسقوني
عني، ولا أنت دياني فتخزونني
ولا بنفسك في العزاء تكفيني
عن الصديق، ولا خير بممنون
بالفاحشات، ولا فتكي بمأمون
هوناً فلست بوقاف على الهون
ترعى المخاض، وما رأيي بمغبون
وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
وابن أبي أبي من أبيين
فاجمعوا أمركم كلا فكيدي
وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني
ألا أحبكم إن لم تحبوني
ولا دماؤكم جمعاً ترؤيني
والله يجزيكم عني، ويجزيني
وذي على مثبت في الصدر مكنون
ولا ألين لمن لا يبتغي لبني

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
ولا سراة إذا جهالهم سادوا
فإن تولت فبالأشرار تنقاد
نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

تلاقوا غداً خيلي على سفوان
إذا ما غدت في المأزق المتداني
ليوث طعان عند كل طغان
على ما جنت فيهم يد الحدثان
بكل رقيق الشفرتين يمان
لأية حزب أم بأي مكان

وقال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان :

وأبيض فياض يذاه غمامة
أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله
تراه إذا ما جثته منهلاً
على مغتفيه ما تغب فواضله
ولكنه قد يهلك المال نائله
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أيضاً !

وفيهم مقامات جسان وجوهم
وإن جثتهم أقيت حول بيوتهم
على مكثريهم رزق من يعثريهم
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم
فما كان من خير أتوه وإنما
وهل يثبت الخطي إلا وشيجه
وأندية يتابها القول والفعل
مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وعند المقلين السماحة والبذل
فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا
توارثه آباء آبائهم قبل
وتغرس إلا في منابتها النخل؟

وقال الأعشى يمدح المخلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
تشب لمقرورين يصطليانها
رضيقي لبان ثدي أم تقاسما
تري الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
يداه يدا صدق فكف مبيدة
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
وبات على النار الندي والمخلق
بأسحم داج عَوْض لا نتفرق
كما زان متن الهندواني رونق
وكف إذا ماضن بالمال تنفق

وقال تابت شراً يمدح ابن عم له وينعته بما يتمدح به الجاهليون من الصفات :

إني لمهد من ثنائي فقاصد
أهز به في ندوة الحي عطفه
قليل التشكي للمهم يصيبه
يظل بمومة ويمسى بغيرها
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل
ويجعل عينيه ربيثة قلبه
إذا هزه في وجه قرن تهلت
يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدي
به لابن عم الصدق شمس بن مالك
كما هز عطفني بالهجان الأوارك
كثير الهوى شتى الشوى والمسالك
جحيشاً ويغروري ظهور المهالك
بمنخرق من شدة المتدارك
له كاليء من قلب شبحان فاتك
إلى سلة من حد أخلق صائك
نواجذ أفواه المنايا الضواحك
بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

وقال عمرو بن الهذيل العبدى :

ولا تخرج خيراً عند باب ابن مسمع
ونحن أقمنا أمر بكر بن وائل
إذا كنت من حيي حنيفة أو عجل
وأنت (بشاج) ما تمر وما تخل

وما تستوي أحساب قوم تُورث

قديماً وأحساب نبتن مع البقل

وقال لبيد بن ربيعة يرثي النعمان :
ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل أناس سوف تدخل بينهم
وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه
فقولا له إن كان يقسم أمره
فتعلم أني لست مدرك ما مضى
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب
وإن لم تجد من دون عدنان والداً

أتخب فيقضى أو ضلال وباطل؟
بلى، كل ذي لب إلى الله واسل
وكل نعيم لا محالة زائل
دونيبة تصفر منها الأنامل
إذا حصلت عند الإله الحصائل
قضى عاملاً، والمرء ما دام عامل
أما يعظك الدهر؟ أمك هابل
ولا أنت مما تحذر النفس وائل
لعلك تهديك القرون الأوائل
ودون معد فلتزعك العواذل

وقال عدي بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر
أم لديك العهد الوثيق من الأيا
من رأيت المنون خلدن أم من
أين كسرى كسرى الملوك أبوسا
وأبو الخضر إذ بناه وإذ دج
شاده مرمراً وجلله كد
وتبين رب الخورنق إذ أش
سره خاله وكثرة مايم
فارعوى قلبه فقال وما غب
ثم بعد الفلاح والملك والأمة م
ثم أضحوا كأنهم ورق جف م

مر أنت المبرأ الموفور؟
م أم أنت جاهل مغرور؟
ذا عليه من أن يضام خفير؟
سان أم أين قبله سابور؟
لما تجبى إليه والخابور
سأ فللطيير في ذراه وكور
رف يوماً وللهدي تفكير
ملك والبحر معرضاً والسدير
طة حي إلى الممات يصير؟
وارتهم هناك القبور
فألوت به الصبا والدبور

وقال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له لما تمطى بصلبه
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
فيالك من ليل كأن نجومه

علي بأنواع الهموم ليبتلي
وأردف أعجازاً وناء بكل كل
بصبح، وما الإصباح منك بأمثل
بكل مغار القتل شدت يذبيل

وقال فيها يصف جواده :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
مكر مفر مقبل مدبر معاً
له أبطالا ظبي وساقا نعامة

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة :

كان حُدُوج المالكية غدوة
عذولية أو من سفين ابن يامن
يشق حباب الماء حيزومها بها

وقال أبو صعتره البولاني :

فما نظفة عن حبّ مزن تقاذفت
فلما أقرته اللصاب تنفست
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ،

وقال الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة

وقال المتلمس جرير بن عبد العزى من قصيدة :

وكنّا إذا الجبار صغر خده
لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي
وما كنت إلا مثل قاطع كفه
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد
يداه أصابت هذه حنف هذه
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى

بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
كجلمود صخر حطه السيل من عل
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

خلايا سفين بالنواصف من (دِد)
يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
كما قسم التراب المفايل باليد

به جنبنا الجودي والليل دامس
شمالاً لأعلى مائه فهو فارس
ولكنني فيما ترى العين فارس

خضراء جاد عليها مشيل هطل
مؤزر بعميم النبت مكتهل
ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

أقمنا له من خده فتقوماً
وما علم الإنسان إلا ليعلمنا
جعلت لهم فوق العرائن ميسماً
بكف له أخرى فأصبح أجذماً
له دركا في أن تبينا فأحجماً
فلم تجد الأخرى عليها مقدماً
مساغاً لنابيه الشجاع لصمماً

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين. فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل. وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم، وينضحون عنهم يوم حفلهم، ويخلدون مآثرهم على الدهور، وينقشون مفاخرهم في الصدور، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة. على أن نفرأ منهم نكبوا بالشعر فغض ذلك من أقدارهم، وإن لم يغض من أشعارهم، كالنابغة مع النعمان، وزهير مع هرم بن سنان، والأعشى مع الملوك والسوقة. وكان لكل شاعر راوية يلزمه ملازمة التلميذ لمعلمه. ينهج طريقه وينشر شعره ونابغو الشعراء قضا عهد الثقافة والمرانة في الرواية، فكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الإيادي، وزهير راوية أوس بن حجر، والأعشى راوية المسيب بن علس.

والشعراء بإعتبار الزمان أربع طبقات: جاهليون، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر، كامرئ القيس وزهير وأميرة بن أبي الصلت ولييد. ومخضرمون، وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام، كالخنساء وحسان بن ثابت. وإسلاميون: وهم الناشئون في الإسلام الباقيون على سليقتهم في العربية، وهم شعراء بني أمية. ومولدون: وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس.

وهم باعتبار الإجابة في رأي النقاد ثلاث طبقات: امرؤ القيس وزهير والنابغة، وهم رجال الطبقة الأولى. والأعشى ولييد وطرفة، وهم رجال الطبقة الثانية؛ وعنترة ودريد بن الصمة وأميرة بن أبي الصلت، وهم رجال الطبقة الثالثة. وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد.

٣ - امرؤ القيس ٤٩٧ ≈ ٥٤٥ م ١٣٠ ق هـ ≈ ٨٠ ق هـ

نشأته وحياته:

هو الملك الضليل ذو القروح جندح بن حجر الكندي، ولد أثيل المنبت كريم الأبوة والأمومة: فأبوه سليل الملوك من كندة، وملك بني أسد. وأمه أخت كليب ومهلhel ابني ربيعة. فشب في حجر النعيم ودرج في مهد السراوة؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويغازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر. ثم أطلق لنفسه العنان في المجون، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه، وكان أصغر أولاده. فخرج في زمرة من أخلاط العرب وذؤبائهم يرتادون الرياض والغدر. فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصدون؛ حتى إذا نصب الماء وذوي العشب تحولوا عنه إلى غيره. ولم تزل تلك حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن. وهناك أتاه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم. فقال امرؤ القيس: «ضيعني أبي صغيراً، وحملني دمه كبيراً. لا صحو اليوم ولا سكر غداً. اليوم خمر، وغداً أمر» ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأً ولا يدهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة ويجز نواصي مائة. فلما أجنه الليل شام برقاً فقال:

أرقت لبرق بليل أهل يضيء سناء بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبتة بأمر تززع منه القل
بقتل بني أسد ربهم ألا كل شيء سواء جلل

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكرةً وتغلب وسار إلى بني أسد فأوقع بهم. ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبوا؛ فتخاذلت عنه بكر وتغلب. وطلبه المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه، وأمدته كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفاً من المنذر. وسار هو في القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه. فلجأ إلى السموأل بن عاديا اليهودي فاستودعه دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر

٣ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٢، ١٣، ١٦، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٦، ٥٥، وطبقات فحول الشعراء: ٣٤، ٣٥، ٤٣-٤٦، ٢٣٥، والمفتالين: ص ٢٠٩، والشعر والشعراء: ص ٣٧-٥٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٩، والأغاني: ٧٧/٩-١٧، ومعجم الشعراء: ص ٢٠٠، والموشح: ص ٢٧-٣٨، وسمط اللآلي: ص ٣٨-٤٠، والتهذيب، لابن عساكر: ١٠٤/٣-١١١، وخزانة الأدب ١٦٠/١-١٦٢، ٤٦٠٩/٣

الفساني ليوصله إلى قيصر. فلما بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته وطمع أن يكون امرؤ القيس قوة له في العرب، يرض له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة. فجهزه بجيش وسيره، ثم بدا له فأعاده. ونزلت بامرئ القيس علة جلدية فتقرح جسمه ونهراً لحمه. والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطماح الأسدي على قيصر فوشى به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه. فبعث إليه قيصر بحلة وشي مسمومة وقد بلغ أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه. ويستدلون على ذلك بقوله:

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك نعمى قد تحولت أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيته سكرة الموت قال: رب جفنة مشعجرة، وطعنة مسحنفرة، وخطبة محبرة، تبقى غداً بأنقرة! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م^(١).

شعره:

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمينياً، فترعرع بين بني أسد في صميم العرب الخلص، فسمع الأشعار ورواها، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال الشعر على حداثة سنه. وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع الخاطر بديع الخيال بليغ التشبيه وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته فاستنبط المعاني الجديدة، ونهج المذاهب الحديثة. وارتسمت في شعره محادثات عصره فنسبت إليه لنبوغة وتفوقه وجاهه، فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار وشبب بالنساء، وشبههن بالمها والظباء، وأجاد وصف الليل والخيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره. وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من حياته وخلقه. ففيه عزة الملوك، وتبذل الصعلوك، وعريضة الماجن، وحمية النائر، وشكوى الموتور، وذلة الشريد، وهو بإجماع الرواة زعيم الجاهليين للأسباب التي مرت بك.

نماذج من شعره:

من خير ما أثر عنه معلقته التي سارت في الناس مسير المثل نظمها في حادثة وقعت له مع ابنة عمه عنيزة، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر المجون والصيد. قال في مطلعها.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) والاصح أنه توفي سنة ٥٤٥ هـ.

وقد مر شيء منها في النماذج. ومنها في الغزل:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
أغرك مني أن حبك قاتلي
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
فإن كنت قد ساءتني خليقة
تسلت عمايات الرجال عن الصبا
وإن كنت قد أزمعت هجري فأجملي
وأنتك مهما تأمري القلب يفعل
بسهميك في أعشار قلب مقتل
فسلي ثيابي من ثيابك تنسل
وليس فؤادي عن هواها بمنسل

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته
كذلك جدي لا أصاحب واحداً
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت
ولما بدت حوران والآل دونها
تقطع أسباب اللبانات والهوى
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه
فقلت له: لا تبك عينك إنما
وقرت به العينان بدلت آخر
من الناس إلا خانني وتغيرا
على جمل بنا الركاب وأعفرا
نظرت فلم تنظر بعينيك منظراً
عشية غادرنا حماة وشيزراً
وأيقن أنا لاحقان بقيصراً
نحاول ملكاً أو نموت فنعدراً

٤ - النابغة الذبياني

٠٠٠ ≈ ٦٠٤ م

٠٠٠ ≈ ١٨ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو أمامة زياد بن معاوية، ولقب بالنابغة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك، ثم فجىء الناس بشعر بذبه الشعراء، وكان له منه مادة لا تنقطع فشبهوه بالماء النابغ. وهو أحد سرة بني ذبيان ومن ذوي مثالتهم، ولكن تكسبه بالشعر غرض من قدره وطأطأ من إشرافه. اتصل

٤ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٢، ١٣، ١٦، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٦، ٥٥، وطبقات فحول الشعراء: ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٦، ٢٣٥، والمفتالين: ص ٢٠٩، والشعر والشعراء: ص ٢٠٠، والموشح: ص ٢٧ - ٣٨، وسمط اللآلي: ص ٣٨ - ٤٠، والتهذيب، لابن عساكر: ١٠٤/٣ - ١١١، وخزانة الأدب ١٦٠/١ - ١٦٢، ٦٠٩/٣ وابن عساكر: ٤٢٤/٥ - ٤٢٩، وشواهد العيني: ٨٠/١، وخزانة الأدب: ٢٨٧/١ - ٢٨٩، ٤٢٧ - ٤٢٨، ٩٦/٤ - ٩٧، ومعجم المؤلفين: ١٨٨/٤.

بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته عليه حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوائزه. وما زال النابغة يتبسط على النعيم، ويتفياً ظلال الخفض، حتى درج بالنميمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المتجردة زوج النعمان. فوقرت السعاية في نفس الملك فتوعده، فنجا الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمر بن الحارث الأصغر الفساني، فنزل منه في جناب مريع وأمن شامل، فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه. وما زال النابغة عند بني غسان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل، فرجع يطلب الشفاعة إليه، ويرجو البراءة عنده، مقدماً بين يديه مع شفيعيه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار، فاستلّت ما في نفس الملك وأحلته منه في المكان الأول، وبقي في حال حسنة حتى أعرشه الكبر وقيدته الهرم وسثم الحياة وقال:

المراء يأمل أن يعي	ش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويب	قضى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى	لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلك	ت وقائل: لله دره

وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة.

شعره:

النابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشق غبارهم، ولا تلحق آثارهم، وهم امرؤ القيس وهو وزهير. ويمتاز من صاحبيه ببديع كنيته، ودقيق إشارته، وصفاء ديباجته، وقلة تكلفه، وموافقة شعره لهوى النفوس. ولهذا لم يغنّ الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره. وقد أجاد في وصف ليل الخائف، واعتذار الجاني، ومدح المنعم، إجادة لا يتعلق بها درك، إلا أنه كان يقوي في شعره ويقول: إن في شعري عاهة لا أدريها؛ حتى سمع مغنياً يغني بأبيات من شعره فيها إقواء، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه. وقد عرف شعراء العرب له تلك المكانة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتكموا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضي بينهم موقّق القضاء مطاع الحكم.

نموذج من شعره:

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الفساني:	
كليني لهم با أميمة ناصب	وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وصدر أراح الليل عازب همه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت
إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
فهم يتساقون المنية بينهم
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
رقاق النعال طيب حجزاتهم
ولا يحسبون الخير لا شر بعده

كتائب من غسان غير أشائب
عصائب طير تهدي بعصائب
بأيديهم بيض رقاق المضارب
بهن فلول من قراع الكتائب
من الجود، والأحلام غير عواذب
يحيون بالريحان يوم السباب
ولا يحسبون الشر ضربة لازب

٥ - زهير بن أبي سلمى

٠٠٠ - ٦٠٩ م

٠٠٠ - ١٣ ق هـ

نشأته وحياته :

نشأ زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكيماً قد اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه، وظهر ذلك جلياً فيما رصع به شعره من درر الحكمة. ولما مشى الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان بالصلح بين عبس وذبيان وأطفأ نار الحرب بأحتمالهما ديات القتلى عن الحيين، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير، استفزته هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته. ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب في ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه، وأصبح إذا رآه في ملا من الناس قال عموا صباحاً إلا هرمًا، وخيركم. استثنت. وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم: أنشدني بعض مدائح زهير في أبيك، فأنشده. فقال عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول. فقال: والله ونحن كنا نحسن له العطاء. فقال عمر: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم وكان زهير على جدته رحب الأناة راجح الحصاة شديد الرأي شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمناً بالله واليوم الآخر. يشهد بذلك قوله في معلقته:

٥ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ١٤ - ١٧، ٣٤، ٤١، ٤٢، ٤٨، ٤٩، ٥٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٢ - ٥٤، والمُعَمَّرُونَ، ص ٨٣، والأغاني: ٢٨٨/١٠ - ٣٢٤، والحصري: ص ٥١ - ٥٢، وِسْمَطُ اللَّالِيءِ: ص ٢٦١، وشواهد العيني: ٢٦٧/٢ - ٢٧١، ومعاهد التنصيص: ٣٢٧/١، ومعجم المؤلفين: ١٨٦/٤، ومراجع: ١٣٩/٣ - ١٦٤.

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفي ومهما يُكتم الله يُعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فيُنقم

وقد عمر زهير حتى نيف على المائة كما يؤخذ من قوله :
بدالي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا
وتوفي قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولداه كعب وبجير.

شعره :

بيت زهير عريق في الشاعرية : فأبوه وخاله ، وأخته سلمى والخنساء ، وولداه كعب وبجير ، من الشعراء المذكورين ، وذلك ما لم يكن لغيره . وهو كما علمت أحد الثلاثة الفحول . وفي الناس من يفضلهُ على امرئ القيس والنابغة ، لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة ، وخلوه من الحوشي والتعقيد ، وبعده عن سخف القول وهجر الحديث ، وجمعه الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ . وهو واحد من الشعراء في إجادة المدح وضرب المثل وإرسال الحكمة . وزهير من عبيد الشعر الذين تعملوه ونقحوه . وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة ، ثم يعرضها على خاصة الشعراء في أربعة ، فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

تحليل موجز لمعلقته :

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرين على سعيهما بالصلح بين عيس وذبيان . ولكنه افتتحها على عادة الجاهليين بالوقوف على أطلال الأحبة وتحيتها ونعتها وتنسب الذكريات من خلال آثارها ، فوقف على الدمن البكم الدوارس من ديار أم أوفى بعد أن أتى على عهده بها عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :
فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

ثم تمثلت في خاطره ظعائن الحبايب متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسيج ، وكله وردية الحواشي ، فيتبعهن ببصرة الحزين وقلبه الواله ، فيصف ما سلكه من طُرق وما نزلنه من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردنه ، وما أجمل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى ، حتى وكأنها ماثلة للعيون فلو تبصّر صاحبه قليلاً لراها :

تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن (بالعلاء) من فوق (جرثم)
تلون بأنماط عتاق وكله وراء حواشيهامشاكهة الدم
بكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهن لوادي الرس كاليد في الفم
وفيهن ملهى للصديق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم

فلما وردن الماء زُرَقا جِمَامَةً وضعن عِصِيَّ الحاضر المتخيم
ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء العشيرة فقال
لهما:

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سَحِيل ومبِرم
تداركتما عيسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عِطْر مَنْشَم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبح يجري فيهم من تلادكم مغانم شتى من إفال المَزْتَم

ثم قطع المدح مؤقتاً ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق، ولكنه ذكر الحرب
فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أوزار وأضرار:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المُرْجَم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذ ضربتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحا بثقالها وتلفح كشافاً ثم تحمل فتثم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ثم عاد إلى رجليه فمضي في مدحهما على ما رأيا من صدع لم يحدثاه، ووصف هم
ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها:

وكان طوي كشحاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتجمجم
وقال ساقضي حاجتي ثم اتقي عدوي بألف من ورائي مُلْجَم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة لدي حيث ألفت رحلها أم قشعم
لدي أسد شاكي السلاح مُقْذَف له لبَد أظفاره لم تُقْلَم
رعوا مارعوا من ظمئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالرماح وبالدم
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كِلَا مُسْتَوِيلٍ متوخم

ثم غلبت عليه نزعتة الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوقف موقف الحكيم يتبرم بالحياة
ويفكر في الموت ويعظ بالتجارب:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تُخطيء يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يعد حمده ذماً عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن تري من معجب لك شخصه زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

٦ - الأعشى

٠٠٠ - ٦٢٩ م

٠٠٠ - ٧ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القائلين في أكثر ضروبه. نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة، وثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيب بن علس، حتى إذا حصف عقله وأرتاض لسانه، أنتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك يمدحهم ويستجديهم. وفد على بني عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثوائه وأجزلوا عطائه، وأكسب من خلاطهم إدمان العقار، والتأثر ببعض الأفكار، فظهر شيء من ذلك في شعره ولا سيما وصف الخمر. وطال عمر الأعشى حتى أبيضت عيناه من الكبر. وسمع بأمر الرسول ﷺ فصنع في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه: وقال لهم أبو سفيان: والله لئن أتى محمداً أو أتبعه ليضر من عليك نيران العرب بشعره، فأجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا، وأخذها الأعشى ورجع؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه.

شعره:

من الرواة وذوي البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لأمراء القيس وزهير والنابغة. ويقولون: أشعر الناس أمرو القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب. وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل. وفي الحق أنك تجد في شعره ما لا تجد في شعر غيره من رونق الحسن، وطلاوة الأسلوب، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول... وكان لشعره جلبة في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس، فسمي لذلك صنّاجة العرب. ولقد أعز بشعره وأذل؛ وقصته مع المحلق، وفرق القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك.

٦ - انظر ترجمته في: النقاظ: ص ٦٤٤، وفحولة الشعراء: ص ١٩، ٢١، ٣٦، ٤٢، ٤٨، ٥٢، والشعر والشعراء: ص ١٣٥ - ١٤٣ والمؤتلف والمختلف: ص ١٢، والعقد الفريد: ٣/٣٦٣، والأغاني: ٩/١٠٨ - ١٢٩، ومعجم الشعراء: ص ٤٠١، والموشح: ص ٤٩ - ٥٧، والمكاثرة: ص ٢، وسمط اللآلي: ص ٨٣، ومعاهد التنصيص: ١/١٩٦ - ٢٠٢ وخزانة الأدب: ١/٨٤ - ٨٦.

نموذج من شعره:

ومن جيد شعره قصيدته اللامية التي عدها بعضهم من المعلقات ومطلعها:
ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل؟

ومنها:

أبلغ يزيد بني شيبان مألكة ألت متهيأ عن نخت أثلتنا
كناطح صخرة يوماً ليوهنا لقد زعمتم بأننا لا نقاتكم
قالوا الطراد، فقلنا تلك عادتنا، أبا ثيبت أما تنفك تأكل
ولست ضائرهما ما أطت الإبل فلم يضرهما وأوهى قرنه الوعل
إننا لأمثالكم يا قومنا قتل أو تنزلون فلنا معشر نزل

ومن قصيدته التي أعدها لمدح الرسول قوله:

ألم تغمض عيناك أرمدا وما ذاك من عشق النساء وإنما
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن شباب وشيب وأفتقار وثروة
وبت كما بات السليم مسهدا تناسيت قبل اليوم خلة مهّدا
إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا فله هذا الدهر كيف ترددا!

ومنها:

فأليت لا أرثي لها من كلاله متى ما تناخي عند باب ابن هاشم
نبي يرى ما لا يرون وذكره له صدقات ما تغب ونائل
ولا من وجى حتى تلاقي محمدا تراحي وتلقي من فواضله ندى
أغار لعمرى في البلاد وأنجدا وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

٧ - عترة العبسي

٠٠٠ = ٦١٥ م

٠٠٠ = ٢٨ ق هـ

نشأته وحياته:

هو أبو المغلس عترة بن عمرو بن شداد العبسي، نجله أبو شريف وأم حبشية تدعى

٧ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء ص: ٢٧، ٣٥، ٤٤، ٦٣، والمغتالين: ص ٢١٠ - ٢١١، والأغاني: ٢٣٧/٨ - ٢٤٦، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥١، ومعجم الشعراء: ص ٢٤٦، والموشع: ص ٨١، والشواهد: ٤٧٨/١ وخزانة الأدب: ٦٢/١.

زُبَيْبَة، فهو من هُجَناء العرب وأغربتهم، فأنْتَفَى منه أبوه منذ ولادته على عاداتهم في أبناء الإماء، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية، وأخذ يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدا مِسْعَر حرب وقائد كتيبة. واتفق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فاستاقوا إبلهم، وتبعهم العبسيون وعترة فيهم. فقال له أبوه: كُرِّ يا عترة. فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه: العبد لا يحسن الكرّ، وإنما يحسن الحلب والضُرّ. فقال: كُرِّ وأنت حرّ. فكَرَّ وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيرين وأسترجع الإبل، فاستلحقه أبوه. وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة. وله في تعليل شهرته وشجاعته رأي حصيف لا بأس بذكره قال له قائل: أنت أشجع الناس وأشدّهم، فقال له: لا. قال فماذا شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدمُ إذا رأيت الإقدام عزمًا وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً. وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله.

قاد عترة كتائب عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة، وبلغ أوج السيادة. ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتل حوالي سنة ٦١٥ م.

شعره:

لم يرو عن عترة في حال رَقِّه من الشعر جيد ولا رديء. لأن العبودية ترين على القلوب وتطفئ ضرام العواطف، فلما استلحقه أبوه وحالفه الفوز في حربه، وأستولى حب عبلة على قلبه، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر والحرب والحب، فجاء بالمعجب المطرب. تجد لشعره حلاوة الغزل ومتانة الفخر، إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمت إليه إلا بتشابه الأسلوب والغرض. فمن شعره الذي لا دخل في أصله معلقته الرقيقة. الفخمة التي نظمها دفاعاً عن شاعريته وإثباتاً لفصاحته: فقد حدثوا أن رجلاً من عبس سابه فذكر سواده وأمه. فقال له عترة: «إني لأحضرُ البأس، وأوفي المغنم، وأعف عند المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفضل الخطة الصماء». فقال له الساب: أنا أشعر منك. فقال: ستعلم ذلك. ثم غدا على الناس بمذهبه المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

ولقد شربت من المدامة بعد ما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
فإذا سكرت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فلا أقصر عن ندي	وكما علمت شمائي وتكرمي
ومدجج كره الكماة نزاله	لا مُمعن هرباً ولا مستسلم

جاءت يداي له بعاجل طعنة
فشككت بالرمح الأصم ثيابه
فتركته جزر السباع ينشئه
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يدعون عترة والرماح كأنها
ما زلت أرميهم بثغرة نحره
فازور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاورة أشتكى
ولقد شفى نفسي وأبرا سقمها
والخيل تفتحم الغبار عوابسا
وقال أيضاً:

بمشتب صدق الكعوب مقوم
ليس الكريم على القنا بمحرّم
يقضن حسن بنانه والمعصم
يتذامرون كررت غير ملئم
أشطان بشر في لبان الأدهم
ولبانه حتى تسربل بالدم
وشكا إليّ بعبرة وتحننهم
ولكان لو علم الكلام مكلمي
قيل الفوارس وذك عترة أقدم!
ما بين شئظمة وأجرد شئظم

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
فأجبتها إن المنية منهل
فأقني حياءك لا أبالك وأعلمي
إن المنية لو تمثّل مثلت
لاني أمرؤ من خير عبس منصباً
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت
والخيل تعلم والفوارس أنني
والخيل ساهمة الوجوه كأنما
ولقد أبيت على الطوى وأظله

أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل
أني أمرؤ ساموت إن لم أقتل
مثل إذا نزلوا بضنك المنزل
شطري، وأحمي سائري بالمنصل
ألفيت خيراً من معم مخول
فرقت جمعهم بضربة فيصل
تسقى فوارسها نقيع الحنظل
حتى أنال به كريم المأكّل

٨ - طرفة بن العبد

٥٣٨ - ٥٦٤ م

٨٦ - ٦٠ ق هـ

نشأته وحياته:

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري يتيماً من أبيه، فكفله أعمامه. فأهمّلوا تربيته

٨ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٤٢، ٥٨، ٥٩، وطبقات فحول الشعراء، للجمحي، انظر: فهرسه، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٦، الأغاني (ليس لطرفة ترجمة مستقلة، انظر: فهرسه، وإنما =

وأساءوا أدبه . فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل ، عاكفاً على اللهو والخمر . مولعاً بالوقوع في أعراض الناس . وقد دعاه نزع الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند على اضطرابه إلى رضائه ، وأفتقاره إلى حباه فاحتقدها عليه عمرو وأضمر له سوء . حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله - وكان المتلمس قد هجاه أيضاً - هش للقائهما يريد أن يؤمنهما ، وأمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . فلما كانا في طريقهما إلى العامل ، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهم ، فآلتبس من يقرأها له فإذا فيها : «باسمك اللهم ، من عمرو بن هند إلى المكعبر ، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فأقطع يديه ورجليه ثم أدفنه حيّاً» فألقى الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة : معك والله مثلها ، فقال : كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك . وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة .

شعره :

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد البادرة ، فنبغ في الشعر وعُد من فحوله وهو دون العشرين . ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقته . ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره . يمتاز طرفة بصدق الوصف ، والبعد عن الغلوفيه ، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ ، وتجذ ذلك كله واضحاً في معلقته التي ابتدأها بالغزل ، وأستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره ، ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه ، وهي من أمتن الشعر وأبلغه ، وهاك تحليلها بإيجاز .

تحليل موجز لمعلقته :

ابتدأها طرفة بذكر أطلال (خولة) وتشبيهها ببقية الوشم في ظاهر اليد؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبة غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً ، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره الهم فنجا من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضائها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره	بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
تُبَارِي عتاقاً ناجيات ، وأتبعُ	وظيفاً وظيفاً فوق مور مُعَبَّد
صُهايبَةُ العُشُون مُوجِدَةُ القرا	بعيدة وخذ الرّحل مؤارة اليد

= يأتي ذكره في إطار أخبار المتلمس ، في المرجع السابق ، ومعجم الشعراء : ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، والموشح ، للمرزباني ، انظر : فهرسه ، وكتاب من اسمه عمرو : لابن الجراح : ص ٤٨ ، ومعاهد التنصيص : ٣٦٤/١ ، وخزانة الأدب : ٤١٣/١ - ٤١٧ . ومعجم المؤلفين : ٤٠/٥ ، والمراجع : ٢٢١/٣ - ٢٢٧ .

وَأَتْلُعْ نَهَاضُ إِذَا صَعَّدْتُ بِهِ كَسْكَانَ بُوصِي بِدَجْلَةٍ مُضْعِدِ

ثم يفرغ لنفسه فيصفها باللهو في السلم وبالمخاطرة في الحرب فيقول:
 إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا: مَنْ فَتَى؟ خَلْتُ أَنِّي وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التَّلَاعِ مَخَافَةٍ فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخَمُورَ وَلَذْتِي إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا رَأَيْتُ بَنِي غِبْرَاءَ لَا يَنْكُرُونَنِي إِلَّا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضَرَ الْوَعْيُ فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي
 ثم يعلن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والنجدة؛ ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى فمنهن سبقي العاذلات بشربة وتقصير يوم الدجن والدجن معجب وكري إذا نادى المضاف مُجَنَّباً
 لعمرِكَ لم أحفل متى قام عُودِي كُمَيْتٍ متى مَا تُغْلُ بِالماء تزبد بيهكنة تحت الخباء المعمد كسيد الغضي ذي السورة المتورد

ثم يدعو استعجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال وأقتحامه الخطر انتهازاً لفرصة الحياة وأستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة في البخل والموت فيقول:
 أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ لِعَمْرِكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقْدَهُ لِحَتْفِهِ
 ويمضي الشاعر بعد ذلك زارياً على ابن عمه، شاكياً من ظلم قومه، مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه:

فمالي أراني وابن عمي مالِكاً وظلم ذوي القربى أشد مضاضة أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه إذا أبتدر القوم السلاح وجدتنني
 متى أدن منه يَنَأُ عني ويبعد عأى النفس من وقع الحسام المهند بعيداً غداً، ما أقرب اليوم من غدا! خشاش كراس الحية المتوقد منيعاً إذا بَلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِي

فلو كنتُ وغلا في الرجال لضرني
ولكن نفى عني الرجال جرأتي
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٩ - عمرو بن كلثوم

٠٠٠ - ٥٨٤ م

٠٠٠ - ٤٠ ق هـ

نشأته وحياته :

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي بالجزيرة الفراتية بين ذوي الحسب اللباب من تغلب، وشبَّ على خلال العظماء عزيز النفس أبي الضيم ذرب اللسان. وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته. وكان قطباً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جرأ البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. على أن أمد ذلك الصلح لم يطل، فأنشقت العصا بين وجوههم ونزت رؤسهم الحفيظة، وتلاحوا في مجلس عمرو بن هند، فقام الحارث ابن جلة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه، وكانت ضلعه مع التغلبيين. فأنصرف ابن كلثوم موغر الصدر على ابن هند. وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته. أتعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أُمي؟ فقالوا لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم، فإن أباه مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل، وبعلمها كلثوم بن عتاب فارس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزيّر أمه أمه. فأقبل عمرو وأمّه من الجزيرة في جماعة من تغلب. وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا. وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلي بنت مهلهل في قضاء أمر. فلما دخلت عليها الرواق وأطمأن بها المجلس، قالت لها: ناوليني الطبق. فأجابتها: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فلما ألحت صاحت ليلي: واذا له! فسمعها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه. ثم عاد تواء إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة. استهلها

٩ - انظر ترجمته في: فحول الشعراء: ص ١٩، ٤٣، ٦٠، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٢٧، والمعمرين: ص ٣٠٦، والشعر والشعراء: ص ١١٧ - ١٢٠، والأغاني: ٤٢/١١، وفي المرجع السابق: ص ٥٢ - ٦٠، والمؤتلف والمختلف: ص ١٥٥ - ١٥٦، ومعجم الشعراء: ص ٢٠٢، والموثق: ص ٨٠، وجمهرة أشعار العرب: ص ٣١، ٧٤، وسط اللآلي: ص ٦٣٥ - ٦٣٦، وخزانة الأدب: ٥١٩/١ - ٥٢١.

بذكر الخمر والغزل، ثم وصف فيها أمره مع عمرو بن هند، وأفتخر بنفسه وقومه. ولقد تجاوبتها المجامع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر.

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسثوم!
وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد.

شعره:

عمرو بن كلثوم شاعر غمّر البديهة، رائق الأسلوب، نبيل الغرض؛ إلا أنه مُقلٌّ. لم يتقلب في فنون الشعر فلم يُرخ العنان لسليقته، ولم يقطع سلطان قريحته. وكل ما روي عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها.

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

أنا هند فلا تعجل علينا	وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأنا نورد الرايات بيضا	ونصدرهن حمراً قد رويننا
ورثنا المجد عن علياً معداً	فطاعن دونه حتى يبيننا
كان سيوفنا منا ومنهم	مخاريق بأيدي لا عبيننا
ألا لا يجهلن أحد علينا	فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟
فإن قناتنا يا عمرو أغيت	علي الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القبائل من معداً	إذا قُبب بأبطحها بُنيننا
بأنا المطعمون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا أبتليننا
وأنا المانعون لما أردنا	وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا	وأنا الأخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً	ونشرب غيرنا كدراً وطينا
إذا ما المَلِكُ سام الناس خسفاً	أبيننا أن نقر الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا	وماء البحر نملاء سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي	تخر له الجبابر ساجدينا

١٠ - الحارث بن حلزة

٠٠٠ - ٥٧٠ م

٠٠٠ - ٥٠ ق هـ

نشأته وحياته :

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة البكري . كان في بني بكر مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب . وقد أشتهر مثله بمعلقته التي يقال إنه ارتجلها عفو الساعة في حضرة الملك عمرو بن هند يستدني بها عطفه ، وينضح فيها عن قومه . وكان من أمرها أن بكرأ وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليقيدها للمبغى عليه من الباغي ، تراشق الحيان بالتهم ورمت تغلب بكرأ بالغدر ، وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتلاحوا أمامه ، وكان هواه مع التغلبيين . فاستفز ذلك الحارث بن حلزة - وكان حاضراً - فأبتدأ قصيدته ابتداها وأنشدها وهو متكئ على قوسه . فيقولون إن كفه أقتطعت وهو لا يشعر من الغضب . وقد أجاد في مدح الملك حتى استولى على رأيه ، ومال به إلى حزبه ، وأستل من قلبه سخيمة غرسها تهوور النعمان بن هرم زعيم قومه . وعُمر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر خمس وثلاثون ومائة سنة .

شعره :

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لا تعلل شهرته ولا تعين طبقته . فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم . على أن مطولته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها ، وأرتجالها في موقف واحد . وقد قال أبو عمرو الشيباني . «لو قالها في حول لم يلم» ويقولون : إنه أنشدها من وراء ستور لبرصه ، فأمر الملك برفعها استحساناً لها وتكرمة له . بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وغير التغلبيين مواقع ظهوروا عليهم فيها ، وأتى على كثير من أيام العرب ، ومدح عمرو بن هند ، وأفتخر بقومه وحسن بلائهم عنده .

١٠ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ١٩ ، ٥٩ ، وطبقات فحول الشعراء : ص ١٢٧ - ١٢٨ ، وشرح ابن الأنباري على المعلقات ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، والمؤتلف والمختلف : ص ٩٠ ، والأغاني : ٤٢/١١ - ٥٠ ، ص ٧٧ ، وسمط اللآلي : ص ٦٣٨ - ٦٣٩ ، والمزهر : ٤٧٧/٢ ، ٤٨٠ ، ٤٨٧ . ومعاهد التنصيص : ٣١٠/١ ، وخزانة الأدب : ١٥٨/١ .

نموذج من شعره:

قال من معلقته:

إن إخواننا الأراقم يغفلو
يخلطون البريء منا بذى الذن
أيها الناطق المرقش عنا
لا تخلصنا على غراتك إنا
فبقينا على الشنأة تنمي
ملك مقسط وأفضل من يم
أيما خطية أردتم فأدو
فأتركوا الطيخ والتعاشي وإما
وأذكروا حلف ذي المجاز وما قد
وأعلموا أننا وإياكم في
أعلينا جناح كندة أن يغ
ومنها في وصف التأهب للرحيل:

أجمعوا أمرهم عشاء فلمّا
من مناد ومن مجيب ومن تصد
ومنها:

لا يقيم العزيز بالبلد السه
ليس ينجي موائلاً من حذار
ل ولا ينفع الذليل النجاء
رأس طود وحرّة رجلاء

١١ - ليبد بن ربيعة

٥١٤ ≈ ٦٦١ م

١٠٤ ق ه ≈ ٤١ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عقيل ليبد بن ربيعة العامري. نشأ ربيب الندى والبأس. فأبوه ربيعة المعترين،

١١ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٨، ٤٢، والنقائض: ص ٢٠١، ٣٨٧، ٦٦٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١٧٤، والأغاني: ٣٦١/١٥ - ٣٧٩، والمكاشرة: ص ٢٣، وسمط اللآلي: ص ١٣، وخزانة الأدب: ٣٣٧/١ - ٣٣٩، ١٧١/٤ - ١٧٥. ومعجم المؤلفين، لكحالة ١٥٢/٨ - ١٥٣.

وَعَمَهُ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ فَارِسٍ مُضِرٍّ. وَسَبَبَ قَوْلُهُ الشَّعْرَ أَنَّ الرِّبِيعَةَ بَنِي زِيَادٍ أَمِيرَ عَبَسَ، وَهُمْ أَخْوَالُهُ، دَخَلَ عَلَى النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ فَذَكَرَ بِالسُّوءِ بَنِي عَامِرٍ وَهُمْ قَوْمُهُ. فَلَمَّا دَخَلَ الْعَامِرِيُّونَ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ غَضَّ مِنْهُمْ، وَذَوَى وَجْهَهُ عَنْهُمْ، فَنَالَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ لَبِيدٌ يَوْمَئِذٍ صَغِيرًا فَسَأَلَهُمْ أَنْ يَشْرِكُوهُ فِي أَمْرِهِمْ فَاسْتَصَفَرُوهُ. وَلَمَّا أَلْحَ فِي الْمَسْأَلَةِ أَجَابُوهُ. فَوَعَدَهُمْ أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُمْ بِهَجَاءِ الرَّبِيعِ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنَادِمَةِ الْمَلِكِ. فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا نَبْلُوكُ. فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: تَشْتُمُ هَذِهِ الْبَقْلَةَ. وَأَمَامَهُمْ بَقْلَةٌ دَقِيقَةُ الْقَضْبَانِ، قَلِيلَةُ الْوَرَقِ، لَاصِقَةٌ بِالْأَرْضِ، تُدْعَى الثَّرْبَةَ. فَقَالَ: «هَذِهِ التَّرْبَةُ لَا تَذْكِي نَارًا وَلَا تَوْهِّلُ دَارًا، وَلَا تَسِرُ جَارًا؛ عَوْدُهَا ضَيْثِيلٌ، وَخَيْرُهَا قَلِيلٌ، وَفِرْعُهَا كَلِيلٌ أَقْبَحُ الْبَقُولِ مَرْعَى، وَأَقْصَرُهَا فِرْعَا، وَأَشَدُّهَا قَلْعًا» فَأَذْنَوْا لَهُ فَهَجَاهُ بِأَرْجُوزَةٍ مُقْذِعَةٍ أُولَاهَا. مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ الْخَ.

فَنَفَرَ مِنْهُ الْمَلِكُ وَمَقْتَهُ وَطَرَدَهُ وَأَكْرَمَ الْعَامِرِيِّينَ وَأَدْنَاهُمْ. قَالُوا وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ مَا أَشْتَهَرَ بِهِ لَبِيدٌ. ثُمَّ أَخَذَ يَقُولُ الشَّعْرَ قِصَارَهُ وَطَوَالَهُ، حَتَّى ظَهَرَ الْإِسْلَامُ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّسُولِ فِي وَفْدٍ مِنْ قَوْمِهِ فَاسْلَمَ، وَحَفِظَ الْقُرْآنَ وَهَجَرَ الشَّعْرَ، حَتَّى زَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا وَهُوَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى لَبَسْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سَرِبَالًا وَلِذَلِكَ عُذُّ جَاهِلِيًّا وَإِنْ عَمَّرَ فِي الْإِسْلَامِ طَوِيلًا.

وَلَمَّا مُصِرَتْ الْكُوفَةُ ذَهَبَ إِلَيْهَا فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَأَقَامَ بِهَا حَتَّى تَوَفَّى فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ ٤١ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَقَدْ عَاشَ كَمَا قِيلَ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَمِائَةً حَتَّى قَالَ بِحَقِّ: وَلَقَدْ سَثُمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلُهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدٌ

شَعْرُهُ:

كَانَ لَبِيدٌ ضَافِي الْجُودِ، وَافِرَ اللَّبِّ، نَبِيلَ النَّفْسِ، جَمَّ الْمَرْوَةِ، مُشِيعَ الْقَلْبِ. فَسَالَتْ أَخْلَاقُهُ وَعَوَاطِفُهُ فِي شَعْرِهِ، وَتَمَثَّلَتْ مَعَانِي النَّبْلِ وَالْكَرَمِ فِي فَخْرِهِ؛ وَجَاءَ نَظْمُهُ فَخْمَ الْعِبَارَةِ، مَنْضُدَ اللَّفْظِ، قَلِيلَ الْحَشْوِ، مَزْدَانًا بِالْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْكَلَمِ النَّوَابِغِ. وَلَعَلَّهُ أَحْسَنَ الْجَاهِلِيِّينَ تَصَرُّفًا فِي الرِّثَاءِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى تَصْوِيرِ عَوَاطِفِ الْمَحْزُونِ الصَّابِرِ بِلَفْظٍ رَاقٍ وَأَسْلُوبٍ مُؤَثِّرٍ.

وَأَمَّا مَعْلَقَتُهُ فَهِيَ قَوِيَّةُ الْأَلْفَاظِ مَتِينَةُ الْأَسْلُوبِ، تَصَوَّرَ حَيَاةَ الْبَادِيَةِ وَأَخْلَاقَ الْبَدْوِ، وَتَصَفَّ هَوَى النَّفُوسِ الْمَاجِنَةِ وَمَطْمَحَ الْقُلُوبِ الْكَبِيرَةِ.

بَدَأَهَا بِوَصْفِ الطَّلُولِ وَذِكْرِ الْحَبِيبَةِ، ثُمَّ أَطَالَ فِي وَصْفِ نَاقَتِهِ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَ طَرَفَةُ، ثُمَّ مَضَى يَصِفُ حَيَاتِهِ وَمِلَذَاتِهِ وَجُودَهُ وَبِأَسِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ، وَكُلَّ ذَلِكَ فِي صَدْقٍ وَإِخْلَاصٍ وَقَصْدٍ.

نموذج من شعره :

قال في معلقته :

إنّا إذا التقت المجامع لم يزل
ومُقَسَّم يعطي العشيرة حقها
من معشر سنت لهم آباؤهم
لا يَطْبَعُونَ ولا يُتُور فعالمهم
فأقنع بما قسم المليك فلإنما
وإذا الأمانة قُسمت في معشر
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سَمَكه
وهم السعاة إذا العشيرة أَفْظَعَتْ
وهم ربيعٌ للمحاور فيهم

وقال يرثي أخاه إريد :

بَلِينَا وما تَبْلَى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف جار مَضِينَة
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا
وما الناس إلا كالديار وأهلها
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
وما المال والأهلون إلا ودائع
وما الناس إلا عاملان فعامل
فمنهم سعيد آخر بنصيبه
لعمرك ما تدري الضوارب بالحصي

وتبقى الديار بعدنا والمصانعُ
ففارقتني جار بأريد نافع
فكل أمرى يوماً به الدهر فاجع
بها يوم خلّوها وراحوا بلاقع
يَحُور رَمَاداً بعد إذ هو ساطع
ولا بد يوماً أن تردّ الودائع
يُتَبَّر ما يبني وآخر رافع
ومنهم شقي بالمعيشة قانع
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

١٢ - حاتم الطائي

٥٧٨ - ٠٠٠ م

٤٦ - ٠٠٠ ق هـ

نشأته وحياته :

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي توفي أبوه وهو وليد فنشأته أمه وكانت

١٢ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٦، ٤٤، والكنى: ص ٢٨٩، والشعر والشعراء: ص ١٢٣ - ١٣٠، والموشح: ص ٨١، وسط اللآلئ: ص ٦٠٦ - ٦٠٧، وتهذيب ابن عساكر: =

كثيرة المال، نفّاحة اليدين بالنوال، لا تليق مما تملك شيئاً، فحجر عليها إخوانها وحبسوها سنة عليها تذوق طعم البؤس، وتذكر فضل الغنى. فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتها امرأة من هوازن مستجدية فمنحتها إياها وقالت: مسني من الجوع ما آليت معه إلا أمنع سائلاً شيئاً.

ربته هذه الأم الوهوب، فورثته هذا الخلق وغذته بلبانه، فشب على الندى يهتز له ويغلو فيه حتى بلغ منه حد السفه. فكان وهو غلام عند جده يُخرج طعامه، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرحه. فساء منه هذا التبذير فألحقه بالإبل، فمر به ذات يوم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنابعة الذبياني وهم في طريقهم إلى النعمان فاستقروه، فنحر لكل منهم بعيراً وهو لا يعرفهم. فلما تسموا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة! وجاء جده مبتهجاً يقول له: «طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة» وحدثه بما صنع، فقال له: إذن لا أساكنك. فقال: إذن لا أبالي. ثم قال من أبيات:

واني لعف الفقر مشترك الغني وتارك شكل لا يوفقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضي جنة لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعد بأهله وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود، وجرت سماحته مجرى المثل، وروي عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث. وما سبيل الرواة في أخبار حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين، وعنترة في الحماسة، وأبي العتاهية في الزهد، وأبي نواس في المجون: يفتعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يعزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء.

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي مظفراً. إذا قاتل غلب؛ وإذا سابق سبق، وإذا ضرب بالقдах فاز. وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) - وكانت مضر تعظمه في الجاهلية - نحر كل يوم عشراً من الإبل فأطعم الناس وأجمعوا إليه.

ثم بنى حاتم علي النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من اليمن، فولد له منهما عبد الله وسفانة وعدي؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما.

ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام وإنهاب المال حتى مضى لسبيله سنة ٦٠٥ م^(١).

٣/٤٢١ - ٤٢٩، وخزانة الأدب: ١/٤٩٤ - ٤٩٥، ٢/١٦٣ - ١٦٦، والأعلام: للزركلي:

٢/١٥١، ومعجم المؤلفين: ٣/١٧٣، والمراجع: ٣/١١ - ١٤.

(١) والأصح أنه توفي سنة ٥٧٨ هـ، لأن المؤرخين أرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ. راجع المصادر التي أخذنا منها الترجمة.

أخلاقه :

كان حاتم على خلق عظيم قل من أوتيته في الجاهلية : كان طويل الصمت رقيق القلب
 جم المروءة لم يقتل قط واحداً أمه ، ولم يظل ضعيفاً من بني عمه :
 فإني وحدي رب واحد أمه أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
 ولا أظلم ابن العم إن كان إخواني شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
 وقد وصفته سقانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول ﷺ ترجو أن يخلي عنها وهي سبية
 قالت : كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم
 الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط . فقال لها الرسول ﷺ يا جارية هذه صفة
 المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق .

شعره :

لا جرم أن اللسان ترجمان القلب ، والشعر مرآة الشعور . وما قدمناه لك من أخلاق
 حاتم تجده متمثلاً في شعره ، مؤثراً في قرضه ؛ فلفظه سهل رقيق ، وأسلوبه به محكم وثيق ،
 وغرضه سام شريف ، على غير ما نعهد في شعراء البادية . ولذلك قال ابن الأعرابي : «جوده
 يشبه شعره» ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في باب الجود
 والعذل فيه ، وجمال الذكر والحرص عليه . وما ترى من التفاوت في شعره إنما يرجع إلى
 كثرة المدسوس عليه والمنسوب زوراً إليه ، وهو من شعراء الطبقة الثانية . وقد جمع شعره في
 ديوان وطبع بليدن وبيروت .

نموذج من شعره :

قال من قصيدة له :

أماوي إن المال غادٍ ودائح	ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إما مانع فمبين	وإما عطاء لا ينهنه الزجر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى	إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماوي إن يصبح صدائي بقفرة	من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضربي	وأن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إن المال إما بذلته	فأوله شكر وآخره ذكر
وقد يعلم الأقوام لو أن حاتماً	أراد ثراء المال كان له وفر
وقال أيضاً :	

تحلم عن الأذنين وأستبق وذهم ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

عليك فلن تلقى لها الدهر مُكرماً
يصير إذا مامت نهبا مقسماً
إذا ساق مما كنت تجمع مغنماً
وكف الأذى يحسم لك الداء محسماً
وذي أود قومته فتقوماً
وأعرض عن شتم اللئيم تكرماً
إذا هو لم يركب من الأمر معظماً
من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن
أهن في الذي تهوى التلاد فإنه
قليلاً به ما يحمدنك وارث
متى ترق أضغان العشيرة بالأدنى
وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر
وأغفر عوراء الكريم أدخاره
ولمن يكسب الصعلوك مجداً ولا غنى
لحا الله صعلوكاً مناه وهمه
ومن معانيه الجميلة قوله :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فلاني بحمد الله مالي معبد

١٣ - أمية بن أبي الصلت

٠٠٠ - ٦٢٦ م

٠٠٠ - ٥ هـ

نشأته وحياته :

أبو عثمان أمية بن أبي الصلت الثقي كان يمارس التجارة طوال عمره، فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن. وكان مفطوراً على التدين، فلقي في بعض أسفاره بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فآلتمس الدين ولبس المسوح وحرّم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة، وقال في دين إبراهيم.

كل دين يوم القيامة عند الله - إلا دين الحنيفة زور

فلما بعث الرسول ﷺ سقط في يده وكفر به حسداً وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه . فنزل فيه قوله تعالى . ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١) . ثم أخذ يحرض على الرسول ويرثي قتلى أعدائه في واقعة بدر، فنهى عن رواية شعره في ذلك . وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول : آمّن لسانه وكفر قلبه . ثم فرّ أمية بآبنته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقته هناك أوهاق المنية . وقد قال لما

١٣ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ٣٣ ، وطبقات فحول الشعراء : ص ٢٢٠ - ٢٢٤ ، والكنى :

ص ٢٨٩ ، والأغاني : ١٢٠/٤ - ١٣٣ ، ٣٢٧/٨ - ٣٣٣ ، وسمط اللآليء : ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ،

وتهذيب ابن عساكر : ١١٥/٣ - ١٢٨ . والمراجع : ٦٣/٢ - ٦٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية :

١٠٨٠/٤ - ١٠٨١ .

(١) سورة : الأعراف ، الآية : ١٧٥ .

أخذته غشية الموت وأفاق منها: لبيكما لبيكما! هأنذا لديكما لا مال يفديني، ولا عشيرة
تنجيني! إن تغفر اللهم تغفر جمأً، وأيُّ عبد لك لا المأ؟ ثم أقبل على من حضر وقال:
كل عيش وإن تطاول دهرأً منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك وأحذر غولة الدهر، إن للدهر عولا
وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة.

شعره:

انصرفت قريحة أمية إلى المعاني الدينية فأشتهر بها أمره، وأصطبغ بها شعره، فوصف
الله وجلاله، وذكر الحشر وأهواله، ونعت الجنة والنار والملائكة، ونظم حوادث التوراة
كخراب سدوم وقصة اسحاق وإبراهيم، وأدخل في الشعر معاني وأساليب، وفي اللغة ألفاظاً
وتراكيب، لم يألّفها الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثاته
فكان يسمي الله عز اسمه فالسُّلطيط والتغرور، والسماء بالصاقورة والحاقورة، ويزعم أن
للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور؛ ولذلك كان اللغويون لا يحتجون
بشعره.

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يعهد في عصره، فنحله العلماء ما جاء على
شاكلته ولم يعرفوا قائله. ورواة الشعر يعدونه في الطبقة الأولى، ولكن ما بين أيدينا من شعره
لا يؤيد هذا الرأي، فإن أكثره قلق اللفظ سخيّف النسيج نابي القافية، إلا أن يكون الزمان قد
عفى على أجوده. فقد قال الحجاج على المنبر: «ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك
اندراس الكلام».

نموذج من شعره:

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه:
غذوتك مولوداً ومُتُّك يافعاً
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت
كأنني أنا المطروق دونك بالذي
تخاف الردى نفسي عليك وإنني
فلما بلغت السن والغاية التي
جعلت جزائي غلظة وفظاظة،
ومن قوله:
الحمد لله مُنْساناً ومُضْجِناً
تُعَلِّ بما أجني عليك وتنهل
لشكواك إلا ساهراً أتململ
طرقت به دوني، فعيني تهمل
لأعلم أن الموت حتم مؤجل
إليها مدى ما كنت فيك أومل
كأنك أنت المنعم المتفضل

بالحمد صُبْحنا ربي ومُسانا

رب الحنيفة لم تنفذ خزائنه
ألا نبي لنا منا فيخبرنا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا
مملوءة، طبَّق الأفاق سلطانا
ما بعد غايتنا من رأس محيانا
أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة. لذلك كان أسبق الأمم إليه المصريون والفينيقيون. وأجهل الناس به البدويون، فلم يعرفه العرب إلا في الجهة التي عرفتها الحضارة وارتقت فيها العمارة وهي اليمن. كان اليمنيون يستعملون خطاً يسمونه المسند بأسم لغتهم، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحي نزل على كاتب هود. ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية، وأن الآرامي والمسند بأنواعه مشتقان منه، ومن الآرامي اشتق الخط النبطي في حوران، والسطر نجيلي السرياني في العراق، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربي، فمن الأول تولد الشكل النسخي، ومن الثاني تولد الشكل الكوفي، وكان يعرف قبل الإسلام بالحيري نسبة إلى الحيرة. وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام، وتعلموا الآخر من الأنبار: تعلمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب بن أمية جد معاوية، فعلمه جماعة من القرشيين فكثر من يكتبه منهم. ولما مضت الكوفة وشاع استعماله في الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمي بالكوفي.

عربی حديث	عبری اوکوفی	نبطی	سپرنجلی	فینیقی	آرامی	مصری العامة دیموطیقی	مصری للخاصة هیرا طیقی	مصری مقدس هیرو غلیفی
ا	א	א	א	א	א	א	א	א
ב	ב	ב	ב	ב	ב	ב	ב	ב
ג	ג	ג	ג	ג	ג	ג	ג	ג
ד	ד	ד	ד	ד	ד	ד	ד	ד
ה	ה	ה	ה	ה	ה	ה	ה	ה
ו	ו	ו	ו	ו	ו	ו	ו	ו
ז	ז	ז	ז	ז	ז	ז	ז	ז
ח	ח	ח	ח	ח	ח	ח	ח	ח
ט	ט	ט	ט	ט	ט	ט	ט	ט
י	י	י	י	י	י	י	י	י
כ	כ	כ	כ	כ	כ	כ	כ	כ
ל	ל	ל	ל	ל	ל	ל	ל	ל
מ	מ	מ	מ	מ	מ	מ	מ	מ
נ	נ	נ	נ	נ	נ	נ	נ	נ
ס	ס	ס	ס	ס	ס	ס	ס	ס
ע	ע	ע	ע	ע	ע	ע	ע	ע
פ	פ	פ	פ	פ	פ	פ	פ	פ
צ	צ	צ	צ	צ	צ	צ	צ	צ
ק	ק	ק	ק	ק	ק	ק	ק	ק
ר	ר	ר	ר	ר	ר	ר	ר	ר
ש	ש	ש	ש	ש	ש	ש	ש	ש
ת	ת	ת	ת	ת	ת	ת	ת	ת

الباب الثاني

عطر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه:

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجاز بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخمين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولا سيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة الشرب لوجود البيت، ومعقل العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومحجة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم - وهي الهدنة العامة المقدسة - نعمة السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعت أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة، وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيرون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعون إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهيئون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، ويذيعون وحدة الخلق والمادة واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفس الرغبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية

التي يدعوهم إليها الله، ثم كان الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجذب والحرب، ويعانون إلى ذلك عنت الكبراء. وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضي السيادة والقوة. ناهيك مما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السحت وتطفيف الكيل وكلب الزمان. فكان من جرأ هذه المادية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيات الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة». وكان ذلك فعلاً طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جلياً من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معناه السفه والحمية والأنفة - وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والإنقياد إلى الله - وهي قوام الدين الجديد الذي يقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(١) وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحنف بن قيس، وقد اجتمعاً للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب: «إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر الله لنا ولك، فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه:

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفى إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على أهل القول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية، أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾^(٢) وقال الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم؛ وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»^(٣) فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣. (٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث ٥١١٦) بنحوه، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (الحديث ٣٩٥٦) بنحوه.

السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في الله لا في العصب. وهذا التغير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء: والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم للعداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغني الذي كان يفجر ويثرى بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة. ويسنان الشرائع، ويرسمان الآداب. ويهذبان الأخلاق ويقرآن في القلوب المشتركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظاماً جديدة للأسرة ولأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتساير ما سيكونون عليه من بعد. فضاعت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. واقتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد، وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. وكان من زعمائهم من يقبل على الإسلام كقيس بن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. وقال النبي ﷺ: «إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلَأً»^(١). ومصدق هذا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (الحديث ٥٩١٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من عِلِمَ وَعَلِمَ (الحديث ٧٩).

الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجمة وحمية وشراب، وحدث الردة على أثر وفاة الرسول، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز، وانبعثت العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين، وبين الهاشميين والأمويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدرون عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل.

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة، فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد، وانتشارهم في مختلف البلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصرو، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدينيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونحل كثيرة، ومصروا فيه البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خلف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان والفسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنظم؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُتلقي الفلسفتين الشرقية والغربية؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشمير. وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدنياتهم وعقليتهم وجنسياتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاج العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، ذلك الجدل الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن، وافتعال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير، وفي الشام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول، والخوارج ينكرون

ويكفرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وخسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكامل للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها. ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما تعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصادر الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في القرآن؛ والحديث، والأدب الجاهلي وما نقل من الأدب الأجنبي.

١ - القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دُون في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضح النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع لا عهد للأذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القاريء ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريظ وأمراء البيان أكبروه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يجروا النقد البياني على أن يطير في جنباته، وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمنتشبين قد عارضوه إبطالاً لحجته، أو انتهاجاً لخطته، على نحو ما ورد عن مسيلمة: «يا ضفدع نقي ما تنقين، فلا الماء

تكدرين، ولا الشارب تمنعين،، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهنا طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم. جمل متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المثل لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحداثه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فظلت آية على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشىء، يرصع بها كلامه فتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع.

أسلوبه:

نزل القرآن منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحدث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجتمع على هذه الصورة ودون بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتشتت وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية - وهي ثلثا القرآن - على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جماعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والاهتمام بالمعروف والانتفاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعد الخالب، ووعيد المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير

الأي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادئ؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الأي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضاع الضلالة والجلالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه:

تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرف الغرض، وتنوع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق ونحن إلى هذا الرأي أميل. فإن القوم الذين تحدثوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بلغاء مصادع، وخطباء مصاقع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الحجاج، ما يعجز طوق البشر، ويرمي المعارضين بالسكات والحضر.

لغته:

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي ولد فيها وبُعث منها؛ ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقبيلتها تشرف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر؛ لأن الرسول ﷺ استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز من هوزان وأفصحها، لقوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر».

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى ﴿لَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾^(١) أي لا ينقصكم بلغة بني عبس، ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٤.

أغراضه ومعانيه :

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة . فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله : ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد آياته ، وتأيد الرسول بتحدي المكابرين ، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين ، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات ، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار ، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف .

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها ، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها ، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية ، وما تستتبعه من قصاص وحدود ، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني ، والمعاني متفقة مع الأغراض ، اتفاقاً ودونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله !

تأثيره :

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له ، فكان دعاءهم في المسجد ، ونظامهم في البيت ، ومنهاجهم في العمل ، ودستورهم في الحكومة . فسرى هديهم فيهم مسرى الروح ونزل وحيه منهم منزلة الطبع ، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله . فأما تأثيره في اللغة وأدبها - وهو ما يعنينا الآن ذكره - فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها ، وطباعاً جافية فأرقها ، وأحلاماً طافية فأقرها ، فكسب ذلك اللغة عذوبة في اللفظ ، ورقة في التركيب ، ودقة في الأداء ، وقوة في المنطق ، وثروة في المعاني ، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه ، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه ، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذي ضمن بقاءها تلك القرون العديدة ، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة ، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته .

قراءاته :

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام ، وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحُونٌ مختلفة كالفتح والإمالة ، والإظهار والإدغام ، والمد

(١) سورة: الحجر، الآية : ٩ .

والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهم وإليهم. فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرأوه بلحونهم وأقرهم الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلاشق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ومن جرأة ذوي العلل والمراء، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد الله بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد الله بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (١٢٨) وحمزة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعاً وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (١٣٢) وقراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذاً.

جمعه وتدوينه :

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر، وبعد أن رتبت آيه وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول الله والقرآن إما مسطور في العُسب واللخاف والأكتاف، وإما مذكور على السنة الصحابة ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حفاظه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: «كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً!» فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حفصة بنت عمر زوج النبي. فلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلافهم في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فخشي عثمان أن يختلفوا في دلالة كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن

بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ. كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى. وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلٍ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً. قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ يَسْؤِيهِ أَجْرًا عَظِيماً. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ. وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً؛ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفوراً. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيراً. إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيَّسُوراً. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وَأَيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً. وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا. وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا.

٢ - الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة
الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات
والحقوق، وأقوم طريق يؤدي إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصل إجماله، ويقيد
إطلاقه، ويخصص عمومته. والأحاديث التي صحت عن رسول الله قليلة، ولكنها موسومة
بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح
القبائل العربية، وتضلعة من لغة القرآن وإطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على
ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية؛
ولكن قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان
يدونه عند نزوله كتبه الوحي، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين،
﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾^(١) أما الحديث فلم يدون إلا حوالي
منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يروى من الذاكرة والذاكرة كثيراً ما تخون،
فنال من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في ذلك أن
العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال
هذه السنين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولوا الأهواء
الكذب على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح
قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون
إلا بنص الكتاب أو ماثور السنة؛ فملأوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى
وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية،
كالأحاديث الموضوعة في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل
بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السور ترجيحاً للناس في

(١) سورة البقرة، آية: ١٨١.

دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم الماثورة عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرطبة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ. ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد روى الزهري عن عروه بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله ﷺ فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء.

فكان من جراء ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفتنوا إلى درئها إلا حين استفحل السر وانتشر الأمل وأصبح الطب لدائها مستحيلاً.

ليس من هم الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدثين من جرح وتبديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوعة كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء فردية اجتهدية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث:

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المؤلف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف

المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمة العبقريّة وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنى واضح معيّن، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملاءمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره.

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: «إِنَّ الْمُنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهراً أَبْقَى. الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لِّئِنْ كَالَجَمَلِ الْأَنْفِ إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخَ. أَصْحَابِي كَالنَّجُومِ، بَأْيَهُمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ. بَطَانًا مِثْلَ الْمُؤْمِنِ كَالنَّحْلَةِ، لَا يَأْكُلُ إِلَّا طَيِّباً وَلَا يَطْعَمُ إِلَّا طَيِّباً. إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعَوْا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ الْمُؤْمِنُ آلفٌ مَأْلُوفٌ. وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ. إِنْ أَحْبَبْتُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبْتُمْ مِنِّي مَجَالَسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً، الْمُوْطَأُونَ أَكْنَافاً، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ. وَإِنْ أَبْغَضْتُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدْتُمْ مِنِّي مَجَالَسَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ. إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدِّمَنِ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمُنْبِتِ السَّوِّءِ. الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إِنْ رُمِيَ قَوَامُهَا كَسَرَتْهَا. النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ. جَنَّةُ الرَّجُلِ دَارُهُ. إِنْ قَوْمًا رَكَبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ، فَتَقَرَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا لَهُ مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ نَجَا وَنَجَوَا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا».

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة. فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه: «أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلَ شَمْسٍ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخَلَعَتْ لُجْمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ. وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلٍّ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأَعْطُوا أَزْمَتَهَا فَأُورِدَتْهُمْ الْجَنَّةُ. حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ شُغْلٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ. سَاعٍ سَرِيعٍ نَجَا، وَطَالِبٍ بَطِيءٍ رَجَا، وَمَقْصَرٍ فِي النَّارِ هَوَى الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوَسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ».

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب

بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكسر الحديث عن رسول الله، والله الموعود. كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصُّفْق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وكنت ألزم رسول الله فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا».

٣ - الشعر الجاهلي

وجد النثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلهما دليلاً ومدد، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيباً، مخافة من عصبية وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب، فظل يناق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إلمامة تغنينا عن استئناف البحث فيه، فلنتقل إلى المصدر الرابع وهو:

٤ - الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدينتين من أعظم مدنيات العالم وهما: مدينة الفرس في شرقها، ومدينة الرومان في غربها، وبينهما وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعنوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين الله، ودخل كثير من سبائهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبل الأولى: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وآدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثير في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهري فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن

الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابراً صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله: العنب دو، والتمر يك: أي في تناولهما مثني وفرادي. وذلك في تحقيق العلماء لا أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ. خربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُوذَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدي الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية لعهد فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ ولست مشنبذاً طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائلًا زوداً ليعجل صاحبي ويشتان في قلبي على كبير
ولا تاركاً لحني لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع تأثر في تفاصيله بفقه الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاهما جماعة من الموالي، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل بن يسار من الشعراء؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى، وصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: «من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوّلها إلى اللسان العربي».

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة، فقد شابه شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويربدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر؛ أو من الموالي كوهب بن منبه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فأتسع بذلك علمه، وكان أول من صنف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس بن كيسان التابعي، وموسى بن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين.

وتأثير أدب الموالي في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا

مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداءة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات، وتعصبهم لأدبهم لم يفكروا في نقل شيء من أدب هؤلاء وأولئك. وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة الملك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالى، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسبينا، وفنى أدبهم في أدبنا، كما تفنى شآبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافة وعصبية مفرقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وبياعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن يُنفض الإسلام رأسه إليه، وألا يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ﴾^(١) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢)، وفي الحديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء فمه شعراً»^(٣)، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويشير دفائن القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض. واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فجردوا عليه الأسنّة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص وينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والأرستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قلائاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثيراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبيري وعمر بن العاص

(١) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٢) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر الحديث (الحديث ٥٠٠٩)، وأخرجه

ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: ما يكره من الشعر (الحديث ٣٧٥٩).

وأبوسفيان، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم: «ماذا يمنع الذين نصرُوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم؟» حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشبوا حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: «اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم»، وقوله: «كيف تهجو قريشاً وأنا منها؟ فقال: «أسلك كما أسل الشعرة من العجين».

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، خرسست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فخفت صوت الشعر لقلة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والثناء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه، وحتى قال فيه: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة».

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأنًا وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتوح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومغن بن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كال معروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثيراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبید، أو كثرتة في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً، والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون البادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من

سؤدد وخلق وأدب: فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيثة والشماع إلا في المعاني السياسية. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الإنتاج العقلي للعرب.

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يشور. ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا إنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصروفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية. وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية. وقتل الإمام فتخرج الأمر وانشقت العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايح بني أمية، يرضى لهم الأمر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته. وفي العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة. وهناك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياء وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجئة. واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصوم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضييه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق

خصومه من خذر سياسته فزعزعوا عرشه ؛ حتى إذا وهي أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفيء ، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام ، واغتذى بشمر الفتوح ، واستمتع بجمال الحضارة ، واختلط بأنماط شتى من الناس ، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصية الغالبة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة . والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوجيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائه ، ويصطنع بصيغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها . وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه ، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدلاً دينياً حتى يقف تأثيره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر .

نظرة عامة

في العراق :

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخطبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه . وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إمامه المناذرة . فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان في العراق ميراث وفر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة ، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر . وأتى إليه العرب بالعصية اليمينية والنزارية ، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجلى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المعارضة لبني أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما

خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنه. ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: «يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إلي لأضعن عليكم الجزية». فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبلية ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحات بدوية وصلات أموية، فيزدهر ويتشعر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بنبابيع النهر: يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمة التيارات، فتكدر نميزه واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباح الأرض، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف، وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحه ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا على النعيم، وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني «ابن سُرَيْج، والغريص، ومَعْبَدٌ وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهيت، وطويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنيرة، وعزة الميلاء وحبابة، وسلامة، وبلبله، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسجح» وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميوله، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: «نشأت وأنا غلام أتبع المغنين وأخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بُنَيَّ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين وأتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى». من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقت عواطف بني، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لاقتنائهم فيه يبتدىء بهم وينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية

وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبية لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغنم، فبقي الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سقاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق:

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه - وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه - أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ: وهو مظهر تلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشقات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجرة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الأبناء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من السب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبط على أهله؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى دمن الشرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقاتل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيّة، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته، ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو وليّ العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصاري تقاؤل وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتخرج أن يذمّ قوماً أووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا

الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لو لا عون يريد. وبالحق الأمويون في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النفع عليهم، ففاضل الزبيرين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا أسلمي يا هندُ هندُ بني بكر وإن كان حياناً عدى آخر الدهر

لمناصبها الأمويين العدا من جهة، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم حياته بممالة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في الدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: «إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو»، فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لجج في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً والي العراق لمعاوية، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بوالها سعيد بن العاص من زياد فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُني بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة. وللأسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاقتها وبذاءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير بن عطية الخطفي التميمي قد قال الشعر كصاحبه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلها في الهجاء، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من البرعاة وهو منهم. وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأفحمه غسان السليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، ففاضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضل

الأخطل والفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه، فهجاء جرير. ثم نبه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعا العلبة وأنشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشعارين. وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف، يقوم الأولون بالمربد والآخرين بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشعاران كل بين أتباعه وأشباعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم، والأنصار يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه لشعرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطري بن الفجاءة، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دُعي إلى المبارزة، فقالا له: الفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن نخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القياد مع الطراد بطونها طي التجار بحضرموت برودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفراً وناباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: «أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجأهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجأهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم».

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطارز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازي، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقول في تيم:

وكننت إذا لقيت عبيد تيم
لثيم العالمين يسود تيماً
وتيماً قلت أيهما العبيد!
وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكفوله في كليب بن يربوع:

بش أصحاب وبش الشرب شربهم
قوم تنامت إليهم كل مخزية
إذا جري فيهم المزاء والسُكر
وكل فاحشة سُبت بها مضر
والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
حتى يحالف بطن الراحة الشعر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم
فتمنع البول شحاً أن تجود به
قالوا لأهمم بُولي على النار
ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعبر الهندي عندهم
والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعائب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايِس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يحد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. انظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عُميُّ اللذا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله
قتلا الملوك وفككا الأغلالا
حتى وردن جبي الكلاب نهالا
فانعق بضأنك يا جرير فلانما
متك نفسك أن تكون كدارم
أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له:

ولقد شددت على المراغة سرجها
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً
حتى نزعنت وأنت غير مجيد
ميهات من أمل عليك بعيد
طاطات رأسك عن قبائل جيد
بيتاً كبيت عطارد ولبيد
وإذا تعاضمت الأمور لدارم
وإذا عدت بيوت قومك لم تجد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجري مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمدو الشيخوخة في الأخطل وحدة الشببة في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: «أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني». وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جَارِيتُ مُطْلَعُ الرِّهَانِ بِنَا بِه رَوْقُ شَبِيبَتِهِ وَعَمْرُكَ فَإِنْ

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية. ومن تلك الأهاجي الماثورة قصيدتان تلخصان مذهباً وتصوران فنه: الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا هَنْدَ هَنْدَ بَنِي بَكْرٍ وَإِنْ كَانَ حَيَّانَا عَدَى آخِرِ الدَّهْرِ

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خَفَ الْقَطِينُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكُرُوا وَأَزَعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

ومنها:

بَنِي أُمَيَّةَ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ	فَلَا يَبَيِّنُ مِنْكُمْ آمَنًا زُفَرٌ
فَإِنْ مَشْهَدُهُ كَفَرٌ وَغَائِلَةٌ	وَمَا يُغَيِّبُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَعَرٌ
إِنْ الْعَدَاوَةُ تَلْقَاهَا وَإِنْ كُنْتُ	كَالْعُرِّ يَكْمُنُ حِينًا ثُمَّ يَنْتَشِرُ
بَنِي أُمَيَّةَ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ	أَبْنَاءَ قَوْمٍ هُمُ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
وَقَيْسَ عَيْلَانَ حَتَّى أَقْبَلُوا رُقُصًا	فَبَايَعُوكَ جَهَارًا بَعْدَ مَا كَفَرُوا
ضَجُّوا مِنَ الْحَرْبِ إِذْ عَضَّتْ غَوَارِبُهُمْ	وَقَيْسَ عَيْلَانَ مِنْ أَخْلَاقِهَا الضَّجَرُ

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيه جوبه وإن كان هو يستبيحه؛ كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر:

قَوْمٌ إِذَا هَدَرَ الْعَصِيرَ رَأَيْتَهُمْ حَمْرًا عَيُونُهُمْ مِنَ الْمَسْطَارِ

وكقوله في كليب بن يربوع:

بَشَّ الصَّحَابُ وَبَشَّ الشَّرْبُ شَرِبَهُمْ إِذَا جَرَّتْ فِيهِمُ الْمَزَاءُ وَالسُّكَّرُ

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العدواة فلا يوارى، فاحش الدعاية فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا يتلطف؛ فهو في

هجائه يذكر العورات، ويعلن المخزيات، بالفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بلّة الفتاة الخفيرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلطنة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطية ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسيّفوا هذا الإسفاف، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك ملء شذقيه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة، أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية، وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتن في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده هو ولا يصدق الناس، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل. إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوىء فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيغه رجولة، فينقص رثاء جرير لامراته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للमित حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها	خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى	جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأة وعندك مثلها	قعساء ليس لها عليك خمار
وليكيفينك فقد زوجتك التي	هلكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى	ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأي الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد، ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زُر حدراء والترب دونها	وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت عليّ بزائر	تراباً على مرموسه قد تضعضعا

وأهون مفقود إذا الموت ناله
يقول ابن خنزير بكيت ولم تكن
وأهون رزء لامرئ غير عاجز
على المرء في أصحابه من تقنعا
على امرأة عيني إخال لتدمعا
رزئة مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، وشهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الدم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائص على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيعه فيتوب عن قرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وأني
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً
لَبَّيْن رتاج قائماً ومقام
ولا خارجاً من في سوء كلام

أويستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبي ونفس كريمة، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالا لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا
فمال بال ميراث الحُتات أخذته
فلو كان هذا الأمر في جاهلية
علمت من المرء القليل حلائبه
تراثاً فيحتاز التراث أقاربه
وميراث حرب جامد لك ذائبه

إلى أن يقول:

وما ولدت بعد النبي وأهله
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل
نمته فروع المالكين ولم يكن
أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه
كمثلي حصان في الرجال يقاربه
أغر يباري الريح ما ازور جانبه

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة. فلا هو صاحب سياسة كالأخطل، ولا صاحب نخلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالأثين، وإنما كان سوقياً ترعية رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامة المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاقلوه بسلاخه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوياً بهذا القدر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بالقاف والخنزير والسكر؛

ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانية؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القين، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلحة حفيدة قيس بن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزويد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار، فيعمد إلى نقض الفخر الصلِّف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجه. وإذا أخذ جرير هذا المآخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بثى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

تجده يقول بعد هذا البيت:

بيتاً زُارة محتب بفنائهِ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتي بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عُدّ الفُعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

أخزي الذي سمك السماء مجاشعاً وبني بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم قينكم بفنائهِ دنسا مقاعده خبيث المدخل
قتل الزبير وأنت عاقد حيوٍ تباً لحبوتك التي لم تحلل
وافاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثنكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعِجان جعثن كالطريق المَعْمِل

ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسابغات إلى الوغى نتسربل

فيجيبه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فلانكم بعد الزبير كحائض لم تغسل

ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن إردت بناءنا ثهلاً ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالٍ الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان جِباء جفنة ينقل
إننا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانته يتقمّل

فيجيبه جرير:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله
وافخر بضبة إن أمك منهم
أبلغ بني وقبان أن حلومهم
أذري بحلمهم الفياش فأنتم
مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
ليس ابن ضبة بالمعم المخول
خفت فلا يزنون حبة خردل
مثل الفراش عشين نار المصطلي

ويقول الفرزدق:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا
ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:
وأبويزيد وذو القروح وجرول
دفعوا إلي كتابهن وصية
فورثتهن كأنهن الجنادل

فيجيبه جرير:

أعددت للشعراء سما ناعماً
لما وضعت على الفرزدق ميسي
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع
فسقيت آخرهم بكأس الأول
وصفي البعيث جدعت أنف الأخطل
ويعد شعر مرقش ومهلهل
فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل، ويطفئ حرارة الجد ببرودة الهزل،
ويقابل الكمي الهاجم في سلاحه ولأتمته، وهو في ثوب المهرج وبزته وضحكته.
ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياته الخاصة والعامة، فيتسقط أخباره،
ويتلقت حوادثه. ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها؛ فيقول جرير:
يا زيق قد كنت من شييان في حسب
أنكحت وملك قينا في استه حمم
يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق
يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق
يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير، فيأبى جرير إلا
أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى .
بحدراء قوم لم يروك لها أهلاً
ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

هما دلتاني من ثمانين قامة
كما أنقض باز أقم الريش كاسره

فيقول له جرير:

تدليت تزني من ثمانين قامة
وقصرت من باع العلا والمكارم

ويضرب الرومي في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير:
بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف
الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، وموضوعاً لنقدها ونضالها. وجرير
لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم،
ومن ذلك كان يتصور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم
أمض وآلم من مثل قوله:

يا تيم إن بيوتكم تيمية قُفس العماد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوك وفودهم نُتفت شواربهم على الأبواب
وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!
وقوله:

والتغلي إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
وقوله:

فخل الفخر يا ابن أبي خليل وأد خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكان الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد
دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف
هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله:
﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾^(١)، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عدي بمثله فهجاه جرير
بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا مألز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتتهت أن
تراه فيه، حتى صُورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها
فصار يشب على الناس فيخنفهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً
يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواء أرات أمه
هذه الرؤيا أم افترتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

(١) سورة: الغاشية، الآية: ٣ - ٤.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:
غلبتك بالمفقا والمعنى

وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقا أو المفقىء قوله:

ولست ولو فقات عينك واجداً أبا لك إن عد المساعي كدارم

وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله:

بيتاً زارة محتب يفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تُقضى المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وأطفهم مدخلاً، وأكثرهم افتناناً. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدنا ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألمنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألمنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، فيفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف

والأسلوب العف، بيد أنهم يغفلون في الفخر حتى يجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

اكسع البصري إن لاقيته	إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا	تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا	ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثنونه	وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة	فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا	وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شطت نوى من داره بالإيوان	إيوان كسرى ذي القرى والريحان
إن ثقيفاً منهم الكذابان	كذابها الماضي وكذاب ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان	إننا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان	بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدي من قحطان	فقل لحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان	فإنهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقري ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حياء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزع بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجاهلية مشروعة في عهد النبوة؛ إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحشتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء على الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع:

١ - في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعويض كقول أبي العباس الأعمى:

أبني أمية لا أرى لكم	شبهاً إذا ما التفّت الشيع
سعة وأحلاماً إذا نزعت	أهل الحلوم فضرها النزع
أبني أمية غير أنكم،	والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتمو فيكم عدوكمو	فسماء بهم في ذاكم الطمع

فلو أنكم كنتم لقومكم
عما كرهتم أو لردهم
وكقول الكميت:

مثل الذي كانوا لكم رجعوا
حذر العقوبة، إنها تنزع
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
ولاني لأؤذي فيهم وأؤنب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشهرهم، وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر.

٢ - وفي صورة الهجاء كمامر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتى
أو كالضعاف من الحمولة حملت
قوموا إليهم لا تناموا عنهم
إن الخلافة فيكم لا فيهم
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً
عجل التاج بحملها فأحالها
ما لا تطيق فضيعت أحمالها
كم للغواة أطلستم إمالها
ما زلتم أركانها وئمالها
فانهض بيمينك فافتح أقفالها

٣ - وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأي، كقول مسكين الدرامي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:

إليك أمير المؤمنين رحلتها
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر
بني خلفاء الله مهلاً فإنما
إذا المنبر الغربي خلاه ربّه
تثير القطا ليلاً ومن هجود
ومروان أم ماذا يقول سعيد
يبوئها الرحمن حيث يريد
فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لابنك أولى بملك والده
داود عدل فاحكم بسيرته
وهم خيار فاعمل بسنتهم
رنجم من قد عصاك مطّرح
تم ابن حرب فإنهم نصحوا
واحي بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره.

٤ - ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العرا
وكل لصاحبه مبغض
وقالوا عليّ إمام لنا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم
وكل يسر بما عنده
ومافي عليّ بمستعجب
وليس براض ولا ساخط
ولا هو ساء ولا هو سرّ
ق وأهل العراق لهم كارهينا
يرى كل ما كان من ذاك ديننا
فقلنا رضينا ابن هند رضينا
فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
يرى غث مافي يديه سميننا
ينال سوى ضمه المحدثينا
ولا في النهاية ولا الأمرينا
ولا بد من بعد ذا أن يكوننا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعْنْ معاوي ما لم يكونا
أتاكم عليّ بأهل العراق
يرون الطعان خلال العجاج
همو هزموا الجمع جمع الزبير
فإن يكره القوم ملك العراق
فقولوا لكعب أخى وائل
جعلتم علياً وأشياءه
لقد حقق الله ما تحذروننا
وأهل الحجاز فما تصنعوننا؟
وضرب الفوارس في النقع دينا
وطلحة والمعشر الناكثينا
فقدماً رضينا الذي تكرهوننا
ومن جعل الغث يوماً سميننا:
نظير ابن هند ألا تستحوننا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قريش
عليّ والثلاثة من بنيه
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط لا يذوق الموت حتى
تغيب لا يرى فيهم زماناً
ولاة الحق أربعة سواء:
هم الأسباط ليس بهم خفاء
وسبط غيبته كربلاء
يقود الخليل يقدمها اللواء
برضوى عنده غسل وماء

وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة
المسلمون عليّ الإسلام كلهم
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحدا
أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
والمشركون استبوا في دينهم قددا
في الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال:

كل الخوارج مخطئ في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعارض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهنهلة النسيج، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكده، أو شعور ممالك، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجريز، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة:

ورث علي بن أبي طالب بحكم مولده ومزياه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: «أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبيل منذ الحداثة، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ المهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية». ثم سار علي في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدم المال، وإنما أخلص النية للعميرين، ومحض النصيحة لعشائان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد. ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثرء الرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصعدت خلافته ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دائماً للفصيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم ورث بنوه وأهليه ذلك

العزم الثائر وهذا المجد الثائر، فذب الموت للحسن سرّاً في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قتلة لا يزال يردد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتتت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعاً في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهاى لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم؛ فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مرأى، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأزدلون بنوقشير	طوال الدهر لا تنسى علياً!
بنو عبد النبي وأقربوه	أحب الناس كلهم إلياً
أحبهم كحب الله حتى	أجىء إذا بُعثت على هوى
فإن يك حبهم رشداً أصبهُ	ولست بمخطيء إن كان غياً

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي:

نهاركم مكابدة وصوم	وليلكم صلاة واقتراء
أجمعكم وأقواماً سواء	وبينكم وبينهم الهواء؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم	لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف	وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فأشهد إن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سُميَّة غير داني

وقول عبد الله بن هشام السلولي في يزيد بن معاوية:

حُشِينَا الغِيظَ حَتَّى لَوْ شَرَبْنَا دِمَاءَ بَنِي أُمِيَّةٍ مَا رَوَيْنَا
لَقَدْ ضَاعَتْ رَعِيَتُكُمْ وَأَنْتُمْ تَصِيدُونَ الْأَرَانِبَ غَافِلِينَ

ومن المناقشة الجدلية قول الكميّ في الخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شَرَكْتَ فِيهِ بِجِيلٍ وَأَرْحَبَ
وَلَا انْتَشَلْتَ عَضْوِينَ مِنْهَا يُحَابِرُ وَكَانَ لِعَبْدِ الْقَيْسِ عَضْوٌ مُؤَرَّبٌ
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلَحْ لِحَيِّ سَوَاهُمْ إِذَنْ فَذَوِ الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
فِيَالِكَ أَمْرًا قَدْ تَشَتَّتْ جَمْعُهُ وَدَارًا تَرَى أَسْبَابَهَا تَتَقَضَّبُ
تَبَدَّلْتَ الْأَشْرَارَ بَعْدَ خِيَارِهَا وَجُدَّ بِهَا مِنْ أُمَّةٍ وَهِيَ تَلْعَبُ!

ويكاد الكميّ بن زيد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة. ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقيّة في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها.

فَالْآنَ صَرْتُ إِلَى أُمِيَّةٍ وَالْأُمُورَ إِلَى الْمَصَايِرِ
يَا ابْنَ الْعُقَائِلِ لِلْعَقَا ثَلُ وَالْحِجَاجَةِ الْأَخَايِرِ
مَنْ عَبَدَ شَمْسَ وَالْأَكَا بَرِ مِنْ أُمِيَّةٍ فَالْأَكَايِرِ
لَكُمْ الْخِلَافَةَ وَالْإِلَا فِ بَرِغَمِ ذِي حَسَدٍ وَوَاغِرِ

ومهما يقل الكميّ فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم في شعر السيد الحميري، ودعبل الخزاعي، وديك الجن، ومطيع بن إياس، وأبي الشيص، والعكوك، وأضرابهم.

شعر الخوارج:

وأما الخوارج - وجمهرتهم من البدو الجفافة والسذج - فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول، والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب. شايعوا علياً وآزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له: حَكُمْتَ الرِّجَالَ وَلَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ! ثم خرجوا عليه وأبو أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه. فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حقهم عليه وخلافهم له، فآثمروا به واغتالوه. واستعرضوا أعمال

الخلفاء وعقائد الناس، فخطأوا بعضاً وكفروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: «أنضاء عبادة وإطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: «وعجلت إليك رب لترضى».

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية، وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم، وخلوص عقيدتهم. وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أساس الناس منطقاً، وأروعهم كلاماً، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمه وصفه للحرب، ولهه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه الله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العدة فإنها أقامتكم للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح شديد القصيرى دارعاً غير أعزلا
فيا رب جمع قد فللت، وغارة شهت، وقرن قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفر فوزه تنجي من النار

والنار لم ينجُ من لهيبها أحد
أو الذي سبقت من قبل مولده

وقوله:

وأَمسي شهيداً ثاوياً في عصابة
فوارس من شيبان ألف بينهم
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى

وكقول قَطْرِي بن الفجاءة في يوم دولاب:

فلم أَر يوماً كان أكثر مَقْصعاً
وضاربة خدأ كريماً على فتى
أصيب بدولاب ولم تك موطناً
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم

إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
له السعادة من خلاقها الباري

يصابون في فج من الأرض خائف
تقى الله نزالون عند الزواحف
وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

يمج دماً من فائظ وكليم
أغر نجيب الأمهات كريم
له أرض دولاب وديمر حميم
تبيع من الكفار كل حريم
بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على
الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم
أربعون منهم ألفين لابن زياد:

ألفاً مؤمن فيما زعمتم
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم
هي الفئة القليلة قد علمتم
ويقتلكم بأسك أربعونا
ولكن الخوارج مؤمنونا
على الفئة الكثيرة ينصروننا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام:

لله در المرادي الذي سفكت
أَمسي عشية غشاها بضربته
كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
مما جناه من الأثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القعدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه فجاهد بلسانه.

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطْرِي بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا
فلأنك لو سألت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبرا
ولا ثوب البقاء بثوب عز

من الأبطال ونحك لن تراعي
على الأجل الذي لك لم تُطاعي
فما نيل الخلود بمستطاع
فِيُطَوَى عن أخي الخنع اليراع

سبيل الموت غايبة كل حي
ومن لا يُعتَبَطُ يسنام ويهرم
وما للمرء خير في حياة
وقال عبد الله بن قيس الرقيات في قريش:

فداعيه لأهل الأرض داع
وتسلمه المنون إلى انقطاع
إذا ما عدُّ من سَقَطَ المتاع

حبذا العيش حين قومي جميع
قبل أن تطمع القبائل في مد
أيها المشتهي فناء قريش
إن تودع من البلاد قريش

لم تفرق أمورها الأهواء
لك قريش وتشمت الأعداء
بيد الله عمرها والفناء
لا يكن بعدهم لحي بقاء

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأي:
تزور امرأ يؤتي على الحمد ماله
يرى البخل لا يُبقي على المرء ماله
كسوب ومتلاف إذا ما سألته
متى تأته تعشروا إلى ضوء ناره

ومن يؤت أثمان المحامد يُحمد
ويعلم أن البخل غير مخلص
تهلل فاهتز اهتزاز المهند
تجد خير نار عندها خير مُوقد

وقالت الخنساء:

دلّ على معروفه وجهه
تحسبه غضبان من عزه
ويُلمّه مسعر حرب إذا

بورك هذا هادياً من دليل
ذلك منه خلق ما يحول
ألقي فيها وعليه الشليل!

وقال الكميت الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك:

فما غاب عن حلم ولا شهد الخنا
وتفضل أيمان الرجال شماله
وما أجم المعروف من كرهه
وبتدل النفس المصونة نفسه
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم
فأنت الندي فيما ينوبك والسدى
وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة:

ولا استعذب العوراء يوماً فقالها
كما فضلت يمني يديه شمالها
وأمرأ بأفعال الندى وافتعالها
إذا ما رأى حقاً ابتذالها
وباعك في الأبواء قدماً فطالها
إذا الخود عدت عُقبه القدر مالها

إذا لم تصبه في الحياة المعابر
بأخلد ممن غيبته المقابر
ولا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
وكل امرئ يوماً إلى الموت صائر
ستاتاً وإن ضناً وطال التعاشر
أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

لعمرك بالموت عار على الفتى
وما أحد حي وإن عاش سالماً
فلا الحي مما أحدث الدهر مُغتَب
وكل جديد أو شباب إلى بلى
وكل قريني ألفه لیتفرق
فلا يُبعدنك الله يا توب هالكاً

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت

على فني ورقاء أو طار طائر

وقال أبو ذؤيب الهذلي يرثي بنيه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا في عام واحد:

أمن المنون وريبها تتوجع
قالت أمانة ما لجسمك شاحبا
فأجبتها إرثي لجسمي إنه
أودي بني فأعقبوني حسرة
فالعين بعدهم كأن حذاقها
فغبرت بعدهم بعيش ناصب
سبقوا هوي وأعنفوا لهواهم
ولد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنية أنشبت أظفارها
وتجلدي للشامتين أريهم
حتى كأنني للحوادث مروة
وقال جرير يرثي ابنه:

والدهر ليس بمغتب من يجزع؟
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أودي بني من البلاد فودعوا
عند الرقاد وعبرة لا تفلح
كحلت بشوك فهي عورا تدمع
وإخال أني لا حق مستتبع
فتخرموا ولكل جنب مصرع
وإذا المنية أقبلت لا تدفع
ألفيت كل تميمة لا تنفع
أنى لريب الدهر لا أتضعضع
بصفاء المشرق كل يوم تفرع

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم
فارقني حين كف الدهر من بصري
وقال مالك بن أسماء في الهجاء:

كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
وحين صرت كعظم الرمة البالي

لو كنت أحمل خمرا يوم زرتكم
لكن أتيت وريح المسك يفغمني
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني
وقال آخر:

لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
وعنبر الهند أذكيه على النار
وكان يعرف ريح الزق والقار

أقول حين أرى كعباً ولحيته
من السنين تولاهها بلا حسب
وقال عبد الرحمن بن الحكم:

لا بارك الله في بضع وستين
ولا حياء ولا قدر ولا دين

لحا الله قيساً قيس عيلان إنها
فشاول بقيس في الطعان ولا تكن
وقال الطرمح يهجو بني تميم:

أضاعت ثغور المسلمين وولت
أخاها إذا ما المشرفية سلّت

تميم بطرق اللؤم أهدي من القظا
ولو أن برغوثة على ظهر نملة

ولو سلكت سبل المكارم ضلّت
يكر على صفي تميم لولت

وقال حندج بن حندج المري يصف ليل صول:

في ليل صول تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول

لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به
لساهر طال في صول تملله
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله
ليل تحير ما ينحط في جهة
نجومه رُكِّد ليست بزائلة
ما أقدر الله أن يدني على شحط
الله يطوي بساط الأرض بينهما

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها:

جارى أباه فأقبلا ومهما
حتى إذا نزت القلوب وقد
وعلا متاف الناس أيهما؟
برزت صحيفة وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
ومما وقد برزا كأنهما

وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده:

وأطلس عسال وما كان صاحباً
فلما أتى قلت أدن دونك إنني
فبت أقد الزاد بيني وبينه
وقلت له لما تكشر ضاحكاً
تعش فإن عاهدتني لا تخونني
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كتما
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها:

خبروها بأنني قد تزوج
ثم قالت لأختها ولأخري
وأشارت إلى نساء لديها
ما قلبي كأنه ليس مني
من حديث نما إلي فظيع

وقال عروة بن أذينة في الغزل:

إن التي زعمت فؤادك ملها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها

وإن بدت غرة منه وتحجيل
كأنه حية بالسوط مقتول
والليل قد مُزقت عنه السراويل
كأنه فوق متن الأرض مشكول
كأنما هن في الجو القناديل
من داره الحزن ممن داره صول!
حتى يرى الربيع منه وهو مأهول

يتعاوران ملاءة الحضر
لزت هناك العذر بالعدر
قال المجيب هناك لا أدري
ومضى على غلوائه يجري
لولا جلال السن والكبر
صقران قد حط إلى وكر

دعوت لناري موهناً فأتاني
وإياك في زادي لمشتركان
على ضوء نار مرة ودخان
وقائم سيفي من يدي بمكان
نكن مثل من يا ذئب بصطحبان
أخيين كانا أرضعنا بلبان
رماك بنسهم أو شبة سنان

ت فظلت تكاتم الغيظ سراً
جزعاً: ليتته تزوج عشراً!
لا ترى دونهن للسر سترأ:
وعظامي كأن فيهن فترا؟
خلت في القلب من تلظيه حمراً

خلقت هواك كما خلقت هوي لها
بلباقه فأدقها وأجلها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي :
وإذا وجدت لها وساوس سلوة
وقال جميل بن معمر :

وإني لأرضى من بُشينة بالذي
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى،
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي
وقال أيضاً :

ما زلتُم يا بثن حتى لو أنني
إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها
وما زادني النأي المفرق بعدكم
ولا زادني الواشون إلا صباة
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة
وقال يزيد بن الطثري :

بنفسي من لو مر نرد بنانه
ومن هابني في كل أمر وهبته
وقال قيس بن ذريح :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا

وقال كثير من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه :
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها
ولم يلق إنسان من الحب ميعة
أريد الشواء عندها وأظنها
فما أنصفت، أما النساء فبغضت
يكلفها الغيران شتمي وما بها
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
فوالله ما قاربت إلا تباعدت
فإن تكن العتي فأهلاً ومرحباً
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا
أسيئي بنا أو أحسى لا ملومة
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى

ما كان أكثرها لنا وأقلها !
شفع الضمير إلى الفؤاد فسألها

لو أبصره الواشي لقرت بلبله
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
أواخره لا نلتقي وأوائله

من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
سلوا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وفي النفس حاجات إليك كما هيا

على كبدي كانت شفاء أنامله
فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

مقالة واش أو وعيد أمير
ولم يذهبوا ما قد أجن ضميري

ولا موجعات القلب حتى تولت
كناذرة نذراً فأوفت وحلت
نعم ولا غمء إلا تجلّت
إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
إلي، وأما بالنوال فضنت
هواني، ولكن للمليك استذلت
لعزة من أعراضنا ما استحلت
بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
وحقت لها العتي لدينا وقلت
منادح لو سارت بها العيس كلت
لدينا ولا مقلبه إن تقلت
ولا شامت أن نعل عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتي
فوالله ثم الله ما حل قبلها
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
واني وتهيامي بعزة بعدما
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
وقال جرير على لسان يزيد:

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة
واني لمغرور أعلل بالمنى
بأي نجاد تحمل السيف بعدما
بأي سنان تطعن القوم بعدما
وقال مالك ابن أسماء يعتذر:

لكل جواد عشرة يستقبلها
فهني يا حجاج أخطأت مرة
فهل لي إذا ما تبث عندك تبوة
وقال الحطيئة:

أتني لسان فكذبتها
بأن الوشاة بلا حرمة
فجئتك معتذراً راجياً
فلا تسمعن بي مقال العدى
فإنك خير من الزبرقان
وقال حسان بن ثابت:

المال يغشى رجالاً لا طبّاخ بهم
أصون عرضي بمالي أدنسه
أحتال للمال إن أودى فأجمعه
الفقر يزري بأقوام ذوى حسب
وقال كثير:

ومن لا يُغمض عينه عن صديقه
ومن يتبّع جاهداً كل عشرة

وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني

بعزة كانت غمرة فتجلت
ولا بعدها من خلّة حيث حلّت
وللنفس لما وطنت كيف ذلت!
تخلّيت مما بيننا وتخلّت
تبوأ منها للمقبل اضمحلّت
فقال نفس حسر سُلّيت فتسلّت

فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا
ليالي أرجو أن مالك ماليا
قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
نزعت سناناً من قناتك ماضيا؟

وعشرة مثلي لا تقال مدى الدهر
وجُرت عن المثلى وغنيت بالشعر
تدارك ما قد فات في سالف العمر؟

وما كنت أحسبها أن تُقالا
أتوك فراموا لديك المحالا
لعفوك أهرب منك النكالا
ولا تؤكّلني هديت الرجالا
أشد نكالا وخير نوالا

كالسيل يغشى أصول الدندن البالي
لا بارك الله بعد العرض في المال
ولست للعرض إن أودى بمحتال
ويقتدى بلثام الأصل أنذال

وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
يجذها ولا يسلم الدهر صاحب

سعي الفتى وهو مخبوء له القَد

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس وإحدة والهم منتشر
فالمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهي العمر حتى ينتهي الأثر

وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمي صفوه أن يكذرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قصره زهاء مائة شاعر كان لهم السهم الربيع في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية، لقوة الدعاية في الشعر، وتأثير الفصاحة في العرب، وشدة العصبية في الولاة. وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيالا وأقرب منالا وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت. وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة، وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجريز والفرزدق والكميت والطرماح وكثير وذو الرمة. وكلهم صريح العربية، صحيح اللغة، فصيح اللهجة، في الشعر والنحو حجة.

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة منوا بداء السياسة، وشهوة المنافسة، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم، وأشاعوا هجر القول في الناس، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتضح؛ وهم جرير والفرزدق والأخطل. وقد انقطعوا للشعر والتكسب به، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له. ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم، ولا يعقدون النفاضل إلا بينهم.

الشعراء المخضرمون

١٤ - كعب بن زهير

٠٠٠ - ٦٤٥ م

٠٠٠ - ٢٦ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المُرَني. نشأ أبوه على الأدب والحكمة

١٤ - انظر ترجمته في: السيرة، لابن هشام، والأغاني: ١٧/٨٢ - ٩١، ومعجم الشعراء: ص ٣٤٢ - ٣٤٣، والموشح: ص ٤٦، ٨١، وسط اللآليء: ص ٤٢١، والإصابة:

فَسَبَّ فَصِيحاً شاعراً، ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بُجَيْر إلى رسول الله ﷺ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بُجَيْر، فسمع كلام رسول الله وأسلم. فغضب كعب لإسلامه ونهاه، وهجاه وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها:

فهل لك فيما قلت ويحك هل لك؟	ألا أبلغا عني بجيراً رسالاً
فأنهلك المأمون منها وعُلكا	سفاك بها المأمون كأساً رويةً
على أي شيء وثب غيرك ذلكا	ففارقت أسباب الهدى واتبعته
عليه ولم تعرف عليه أخا لكا	على مذهب لم تُلَفْ أمّا ولا أبّا
ولا قائل إما عثرت لعماً لكاً!	فإن أنت لم تفعل فلست بأسف

فأهدر الرسول دمه، وأرجف الناس بقتله. وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والمثول بين يدي الرسول يطلب رضاه وعفوه. فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول. ودخل في الإسلام، ومدحه بلاميته المشهورة، فعفا عنه وأمنه وخلع عليه بُردته؛ فما زالت في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

شعره:

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه ملكته، وتجلت في صغره شاعريته. فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة. فنهاه أبوه مخافة أن يروى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره. فكان كعب يأبى أن ينتهي، ويلح أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوابه، وسلك شعابه، وأتى منه بالجد الرصين والرائق المعجب. وأوشك أن يسامي أباه لو لا غرابة في ألفاظه، وتعقيد في تراكيبه، وقصور في مطولاته؛ ومن كل ذلك برىء أبوه. ومما يدل على مكانه كعب وقيمة شعره أن الحطيئة وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوه بذكره في شعره حتى يشتهر، فقال:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَانَهَا مِنْ يَحْكُوكَهَا	إِذَا مَا مَضَى كَعْبٌ وَفَوْزٌ جِرُول
كَفَيْتَكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً	تَنْخُلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا تَنْخُلُ

نموذج من شعره:

من عيون شعره مشوبته التي مدح بها الرسول، ومطلعها:
بانت سعادٌ قلبي اليوم متبول مُتَيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبول

= ٥٩٢/٣ - ٥٩٥، وخزانة الأدب: ١١/٤ - ١٢، ومعجم المؤلفين: ١٤٤/٨، ودائرة المعارف الإسلامية، ٨٣٠/١، ٦٢٤/٢ - ٦٢٥.

ومنها:

وقال كل خليل كنت آمله
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكُم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
أنبت أن رسول الله أوعدني
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم

لا الهينك إني عنك مشغول
فكل ما قدر الرحمن مفعول
يوماً على آلة حدياء محمول
والوعد عند رسول الله مأمول
قرآن فيها مواعيط وتفصيل
أذن وقد كثرت في الأقاويل

ومن قوله:

السامع الذم شريك له
مقالة السوء إلى أهلها
ومن دعا الناس إلى ذمه

ومطعم المأكول كالأكـ
أسرع من منحدر سائل
ذموه بالحق وبالباطل

١٥ - الخنساء

٠٠٠ - ٦٤٥ م

٠٠٠ - ٢٤ هـ

حياتها:

هي السيدة ثماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية. والخنساء لقب غلب عليها: نبتت في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخوها معاوية وصخر سادات سليم من مضر. وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دريد بن الصمة سيد هوازن وفارس جشم، فردته وآثرت التزوج في قومها، ولما قوض الدهر ركني بيتها بموت أخويها معاوية وصخر جرعت عليهما أشد الجزع، وبكتهما أحر البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولا سيما صخر لما بلغت من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جنانه. ثم وفدت في قومها على الرسول ﷺ فأسلمت، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: هيه يا خناس! وكان في الظن أن تنهيه الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزواً عن سنة الجاهلية، إلا أن وجدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابيضت عيناها من الحزن. وكانت تقول: كنت أبكي له من الشار، وأنا اليوم أبكي له من

١٥ - انظر ترجمتها في: فحولة الشعراء: ص ٣٧، ٤٥، ٦٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٦٩، ١٧٤، والمفتالين: ص ٢١٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١١٠، وسمط اللآليء: ص ٧٨٢، والإصابة: ٥٤٩/٤ - ٥٥٢، وحسن الصحابة: ص ٩٤ - ٩٩، ومعجم المؤلفين: ٩٢/٣، والمراجع: ٨٧/٣ - ٩٢.

النار. على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت؛ فوجدت الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْح الله ومواسياً من فضله؛ فتقبلت مصرع بنيتها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً. فلم تزد على أن قالت. الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

شعرها:

ليس في شوارع العرب قبل الإسلام وبعده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جرسه، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول. ويرى النابغة وجريز وبشار أنها أفضل من الرجال، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة. وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء. أما الفخر فلأن أباهما أمثل قومه، وأخويها خيراً مضر؛ وأما الرثاء فلفجيعتها فيهم وطول وجدها عليهم. والأسى يدق الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتل فاض الدمع من عينها، والشعر من قلبها، فأتت في رثائها بالمعجب المعجز. وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً.

نموذج من شعرها:

قالت ترثي أخاها صخرأ:

أعيني جوداً ولا تجمداً	ألا تبكيان لصخر الندي؟
ألا تبكيان الجريء الجميل	ألا تبكيان الفتى السيدا!
رفيع العماد طويل النجا	د ساد عشيرته أمردا
إذ القوم مدوا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم	من المجد ثم انتمى مُصعبدا
يحملة القوم ما عالهم	وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذكر المجد ألفيته	تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضاً:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني	فقد أضحككتني زمناً طويلاً
دفعت بك الخطوب وأنت حي	فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً؟
إذا قبَّح البكاء على قتيل	رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

وقالت ترثي وتفتخر:

تغرقتني الدهر نهساً وحزاً	وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً	فأصبح قلبي بهم مستفزاً

كَانَ لَمْ يَكُونُوا حَمِيَّ يُتَقَى
 وَخَيْل تَكْدُسُ بِالْدَارَعِينَ
 بَيْضُ الصَّفَاحِ وَسُمْرُ الرِّمَاحِ
 جَزَزْنَا نَوَاصِي فَرَسَانِهَا
 وَمَنْ ظَنُّ مَنْ يَلَاقِي الْحُرُوبِ
 نَعَفَ وَنَعَرَفَ حَقَّ الْقِرَى
 وَنَلْبَسَ فِي الْحَرْبِ نَسْجَ الْحَدِيدِ
 وَمَنْ قَوْلَهَا:

إِنْ الزَّمَانُ وَمَا يَفْنَى لَهُ عَجَبٌ أَبْقَى لَنَا ذَنْبًا وَاسْتَوْصَلَ الرَّاسَ
 إِنْ الْجَدِيدِينَ فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسِدَانِ وَلَكِنْ يَفْسِدُ النَّاسُ

١٦ - حسان بن ثابت

٥٥٣ - ٦٧٤ م

٦٦ ق هـ - ٥٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش في الشعر، فكان يمدح المناذرة والفساسنة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنع الذين نصرُوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: والله ما يسرني به مَقُولُ ما بين بُصْرَى وصنعاء! والله لو وضعت على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه! فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: «أُسْلِكَ مِنْهُمْ كَمَا تَسِلُ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ» فقال: اهْجُؤْهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ. فهجأهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماته

١٦ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٠، ٣٦ - ٣٨، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٧٩ - ١٨٣، والشعر والشعراء: ص ١٧٠ - ١٧٣، والأغاني: ١١/٣ - ١٨، ١٣٤/٤ - ١٧٠، ١٥٧/١٥ - ١٧٣، وسط السلاسل: ص ١٧١ - ١٧٢، وتهذيب ابن عساكر: ١٢٥/٤ - ١٤٠، ونكت الهميان: ص ١٣٤ - ١٣٨، انظر أيضاً: الاعلام، للزركلي ١٨٨/٢، ومعجم المؤلفين: ١٩١/٣ - ١٩٢ والمراجع: ٣١/٣ - ٣٨.

منهم موقع السهام في غسق الظلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مكفي الحاجة من بيت المال، حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره:

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء، وكلها أغراض تقتضي اللفظ الفخم والأسلوب القوي، فبدأ عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام. ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن، فما كانت تتحرك إلا ذباداً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين. ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشياً، فكثرت به السقط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. وهو في شعره يضارع ابن كلثوم في الفخر بقومه والمباهاة بنفسه، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب.

نموذج من شعره:

قال في الهجاء:

مغلغلة فقد برح الخفاء	ألا أبلغ أبا سفيان عني
وعبد الدار سادتها الإماء	بأن سيوفنا تركتك عبداً
وعند الله في ذاك الجزاء	هجوت محمداً فأجبت عنه
فشركما لخيركما الفداء	أتهجوه ولست له بكفاء؟
سباب أو قتال أو هجاء	لنا في كل يوم من معدي
ويحري لا تكدره الدلاء	لساني صارم لا عيب فيه
لعرض محمد منكم وقاء	فإن أبي ووالدتي وعرضي

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر، فلما أنشدوه أمر حساناً أن يحييهم فقال:

قد بينوا سنة للناس تتبع	إن الذوائب من فخر وإختوتهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعا	قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
إن الخلائق فاعلم شرها البدع	سجية تلك فيهم غير مخذلة
عند الدفاع ولا يوهون مارقوا	لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع	إن كان في الناس سباقون بعدهم
لا يطبعون ولا يزرى بهم طمع	أعفة ذكرت في الوحي عفتهم
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع	لا يفخرون إذا نالوا عدوهم

وقال يمدح جبلة بن الأيهم :

لله در عصابة نادماتهم
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
والخالطون فقيرهم بغنيهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يسقون درياق الرحيق ولم تكن
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
فلبثت أزماناً طوالاً فيهم

يوماً بجلق في الزمان الأول
مشي الجمال إلى الجمال البزل
والمشفقون على الضعيف المرمّل
قبر ابن مارية الكريم المفضل
بردى يصفق بالرحيق السلسل
تدعى ولائدهم لنقف الحنظل
شم الأنوف من الطراز الأول
ثم أدركت كأنني لم أفعل

ومن قوله :

وإن امراً يُمسي ويصحّ سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال أيضاً :

رب علم أضاعه عدم الما
ما أبالي أنب بالحزن تيس
ل وجهل غطي عليه النعيم
أم لحاني بظهر غيب لثيم

١٧ - الحطيئة

٠٠٠ - ٦٦٥ م

٠٠٠ - ٤٥ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو مليكة جرول بن أوس العبسي ، ولد في بني عبس دعيًا لا يُعرف له نسب ، ولا يصله بالشرف سبب . فشب محروماً مظلوماً مذموماً لا يجد مدداً من أهله ، ولا سنداً من قومه ؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته . واصطلحت عليه عوامل الشر فحملت منه صورة للرذيلة فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق ، دنيء النفس ، فاسد الدين ، سئولاً ، ملحفاً ، جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، دميماً ، قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب في القبائل . وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامراته وبنيه حتى نفسه . فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة ، فلم يستطع

١٧ - انظر ترجمته في : العقدة : ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، وفحولة الشعراء : ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، وطبقات فحول الشعراء : ص ٩٣ - ١٠١ ، والشعر والشعراء : ص ١٨٠ - ١٨٧ ، والأغاني : ١٥٧/٢ - ٢٠٢ ، والموشع للمرزباني ، انظر : فهرسه ، وسمط اللالي : ص ٨٠ ،

الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة، ولا أن يُفل هذا المقول الجريء البذيء فمرج لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم. حتى الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فمالاً بغيض بن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر، فحبسه، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس. فقال: إذن يموت عيالي جوعاً. هذا مكسبي ومنه معاشي. فاشتري منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ.

شعره:

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول، من مديح وهجاء ونسب وفخر. ولولا خساسة طبعه، ودناءة طمعه، وقبح تبذله، لما فضله في المخضرمين أحد، فإنك لا تكاد تجد في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسيج، أو ركافة في اللفظ، أو نبؤ في القافية، ولكن شرف الكلام بشرف قائله.

والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين رووا فيه ونقحوه. وقد يؤثر عنه قوله: «خير الشعر الحولي المنقح المحكك». وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشا أو هجراً، حتى عمي على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلم يفتن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دل عليه حسان.

نموذج من شعره:

قال يهجو الزبرقان بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض:

والله ما معشر لأموا أمراً جنباً
ما كان ذنب بغيض لا أبالكُم
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم
لما بدا لي منكم عيب أنفسكم
أزمت يأساً مبيناً من نوالكم
جار لقوم أطالوا هون منزلهم
ملوا قراءه وهرته كلابهم
دع المكارم لا ترحل لبغيتها
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

في آل لاي بن شماس بأكياس
في بائس جاء يحدو آخر الناس!
كما يكون لكم متحي وإمراسي
ولم يكن لجروحي فيكم آسي
ولن يرى طارداً للحر كالياس
وغادروه مقيماً بين أرماس
وجرحوه بأنياب وأضراس
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال في المدح:

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنّا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى
ويعذلني أبناء سعدٍ عليهم
وإن غضبوا جاء الخفيظة والجّد
من اللوم أو سُدّوا المكان الذي سدوا
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن أنعموا لا كدّروها ولا كدوا
بنى لهم آباؤهم وبنى الجّد
وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

١٨ - عمر بن أبي ربيعة

٦٤٤ - ٧١٢ م

٢٣ - ٩٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي . ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب، فكان يقال، أي حق رُفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده . وكان سرّياً غنياً، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذُرعه من معالجة الأمور، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير، فما أبه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق . ومضي وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيه حتى ارتاض له وأسلس . فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أَمِنْ آل نَعَم أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكَرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحَ فَمُهْجَرٌ

«مال زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر». وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأولع به المغنون والظرفاء، وشغف به القيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الغُبر والزهاد وقال ابن جرّيج: «ما دخل العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة». ولم يقف شره عند ذاك، وإنما كان

١٨ - انظر ترجمته في: المردفات: ص ٧٢-٧٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٣٠، والشعر والشعراء: ص ٣٤٨-٣٥٢. والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١/٦١-٢٤٨، والموشح: ص ٢٠١-٢٠٦، وخزانة الأدب: ١/٢٣٨-٢٤٠، ومعجم المؤلفين: ٦/٢٩٤، وطبقات الشعراء: ص ٢٢٨، ٢٥٥.

يتعرض للحواج فيشيب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفات مُحرمات، فزهدت كرائم الأسر في أداء الفريضة خشية منه. وألوا الأمر يتعمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقباً لتوبته. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة. فنفاه إلى دَهْلِك إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، وقد كانت منفى لبني أمية ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العُمَرين قد أعانه على البر بقسمه، فزهّد وتنسك. ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف، ويحوم ولا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي. والله ما أعلم أنني ركبت فاحشة قط فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سرّيت عني.

شعره:

لشعر ابن أبي ربيعة نَوَطةٌ في القلب، وروعة في النفس، لسهولة وأناقة لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبه ونسبه وترّفه على أن يقول في ذلك ما لم يجرؤ أحد على قوله: فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! . على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكثير من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما هو يتبع نساء يسره أن يخالطهن ويحدثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمره مع الثريا بنت علي ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حباً.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في التشبيب:

نحنُ إلى نعم فلا الشمل جامع
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن
لئن كان إياه لقد حال بعدنا
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
أخا سفر جَوَابَ أرض تقاذفت
قليلاً على ظهر المطية ظلّه

ولا الجبل موصول ولا أنت مقصّر
أهذا المغيري الذي كان يذكر؟
وعيشك أنسباً إلى يوم أقبر
عن العهد والإنسان قد يتغيرا
فيُضحى وأما بالعشي فيُخصر
به فلوات فهو أشعث اغبر
سوى ما بقي منه الرداء المحبّر

وأعجبها من عيشة ظلُّ غرفة
ووال كفاهما كل شيء يهملها
وليلة ذي دوران جشمي الكرى
وبت رقيباً للرفاق على شفا
فقلت أباديهم فإما أفوتهم
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
ونفضت عني النوم أقبلت مشية ال
فحييت إذ فاجأتها فتوالت
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني!
أريتك أن هنا عليك ألم تخف
فلما تقضى الليل إلا أقله
أشارت لأختيها أعينا على فتى
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا:
يقوم فيمشي بيننا متنكراً
فكان مجني دون من كنت أتقي
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي:
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
هنأ لبعل العامرية نشرها

ومن قوله:

ألا ليت أني يوم تُقضى منيتي
وليت طهوري كان ريقك كله
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي

وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتبت إليك من بلدي
كئيب واكف العَيْنَيْنِ
يُورقه لهيب الشو
فيُمسك قلبه بيد

ورئان ملتف الحقائق أخضر
فليست لشيء آخر الليل تسهر
وقد يجشم الهول المحب المغرر
ولي مجلس لولا الليانة أعر
وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
مصاييح شُبَّتْ للعشاء وأنور
وروح رعيان ونوم سمر
حباب وركني خيفة القوم أزور
وكادت بمهجور التحية تجهر
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
رقيباً وحولي من عدوك حضر
وكادت توالى نجمه تتغور
أتى زائراً والأمر للأمر يُقدر
أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر
فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
ثلاث شُخوص. كاعبان ومُعصر
ألم تتق الأعداء والليل مقمر؟
أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
اللذيد ورئاهما الذي أتذكر

لثمت الذي ما بين عينيك والفم!
وليت حنوطي من مُشاشك والدم
هنا أو هنا في جنة أو جهنم

كتاب مؤله كمد
ن بالحسرات منفرد
ق بين السُخر والكبد
ويمسح عينه بيد

١٩ - الأخطل^(١)

٦٤٠ - ٧١٢ م

١٩ - ٩٥ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو مالك غِيَاث بن غوث التغلبي : نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة . وفجع في أمه وهو صغير ، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته . فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر وبدت بواكير شعره منذ الحداثة ، فهاجى كعب بن جُعيل شاعر تغلب فأخمله وهبٌ ذكره يسير . ولما طلب يزيد بن معاوية وهو ولي العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره ، خشي الأنصار ودله على الأخطل رجاء أن يفتكوبه ، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذبوع اسمه . فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية فحكمهم فيه ، فطلبوا قطع لسانه . ولكن يزيد ترضاهم فعفوا عنه . وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه ، وبخاصة عبد الملك بن مروان ، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها ليمالأتهم أعداءه من آل الزبير ، فسهل عليه حجابهم ، ووطأ له جنباه وأغدق عليه عطاءه ، وسماه شاعر الخليفة : وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمرأً فيدخل عليه بغير إذن . أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق ، فسيبه أنه عرض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر . فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها :

يا ذا الغباوة إن بشرأً قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان
فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه . وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني ، وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز .

وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاده الجزيرة ، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالغاً من العمر سبعين سنة .

١٩ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، والشعر والشعراء : ص ٣٠١ - ٣١٢ ، والمؤتلف والمختلف : ص ٢١ ، والموشح ص ١٣٢ - ١٤٢ وسمط اللاليء : ص ٤٤ - ٤٥ ، الأعلام ، للزركلي ٣١٨/٥ ومعجم المؤلفين : ٣٢/٨ - ٤٣ ، والمراجع : ١٣/٢ - ١٨ ، بزوكلمان الأصل 52 - 1,49 والملحق 84 - 1,83 .

(١) يقال لهؤلاء أيضاً عليا هوازن ؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف : وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء ، أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم .

شعره:

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة.

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللفظ والسقوط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في مدائحه سنة. وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبت عليه طبيعته المرححة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

أبدى النباجذ يوماً عارم ذكر
خليفة الله يُستسقى به المطر
ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهة صبروا
ولا يُبَيِّنُ في عيدانهم خور
وأوسع الناس أحلاماً إذا قدروا
قل الطعام على العافين أو قَتَرُوا
تمت فلا منة فيها ولا كدر

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا
الخائض الغمرة الميمون طائره
في نبعة من قريش يعصمون بها
حُشدٌ على الحق عَيَافُو الخنا أنف
لا يستقل ذوو الأضغان حربهم
شمسُ العداوة حتى يستقَادَ لهم
هم الذين يبارون الرياح إذا
بني أمية نَعَمَماكم مجلَّة

وقال يهجو الأنصار:

كالجحش بين حمارة وحمار
بالجزع بين صُلَيْصِل وصرار
حمرأ عَيُونُهُم من المسطار
وخذوا مساحيكم بني النجار
واللؤم تحت عمائم الأنصار

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته
لعن الإله من اليهود عصابة
قوم إذا هدر العصير رأيتهم
خلوا المكارم لستم من أهلها
ذهبت قريش بالمفاخر كلها

ومن قوله:

طول الحياة يزيد غير خبال
ذخراً يكون كصالح الأعمال

والناس مهم الحياة ولا أرى
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

٢٠ - الفرزدق

٦٣٣ - ٧٠٦ م

١٢ - ١١٠ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي . كانت ولادته ونشأته بالبصرة ، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة . وأخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته ، وانطلق به لسانه ؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره . فقال عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له . فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر ، فصمم على حفظ القرآن ، فقيد نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه ؛ وبرّ يمينه . ثم اتصل بولاة المصريين فنالهم بالمدح والهجاء ، وأجازوه بالإدناء والإقصاء . ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل عليّ . وكان الفرزدق معاصراً لجريز وكان بينهما تنافس وتحاسد . فما كاد يحتدم الهجاء بين جريز وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره . فغاض ذلك جريراً فهجا الفرزدق ، ورد عليه هذا ، فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين ، ففتق ذهنيهما ، وأحد لسانيهما ، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة ، وصدق النظر . وانشعب الناس في أمرهما شعبتين ، تناصر كل منهما أحد الشعاعين . وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جريز ، وكان الفرزدق فاجراً ، فاحش النطق ، خبيث الهجاء ، ضعيف الدين ، قاذفاً للمحصنات ، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه ، وكرم نسبه . فاستعان بكل رذائله وفضائله على جريز فما هزمه ولا أسقطه .

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل عليّ تجلت فيها صراحته وشجاعته ، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج ، وسمعه يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجلة من الناس : (من هذا؟) تجاهلاً لأمره ، وغضاً من قدره . فشق ذلك على الفرزدق ، فأجابه بقصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

٢٠ - انظر ترجمته في : النقائض : لأبي عبيدة ، انظر فهرسه ، وفحولة الشعراء : ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، وطبقات فحول الشعراء : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ - ٣١٤ ، وأسماء المغتالين : ص ١٨٢ - ١٨٣ والشعر والشعراء : ص ٢٨٩ - ٣٠١ ، والمؤتلف والمختلف : ص ١٦٦ ، والأغاني : ٣٢٤/٩ - ٣٤٥ ، ٢٧٦/٢١ - ٤٠٣ ، وسمط اللآلي : ص ٤٤ ، وإرشاد الأريب : ٢٥٧/٧ - ٢٦١ ، ووفيات الأعيان : ٢٥٩/٢ - ٢٦٧ ، وخزانة الأدب : ١٠٥/١ - ١٠٨ ، ومعجم المؤلفين : ١٥٢/١٣ - ١٥٣ .

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارف المائة.

شعره:

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدلاً بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغریت، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضلة النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابه شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعُهره، ولجرير صلابته لطهره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأختل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الرثاء متخلف.

نموذج من شعره:

إذا اغبر آفاق السماء وكشفت
وأصبح مبيض الصقيع كأنه
ترى جارنا فيه بخير وإن جنى
وكننا إذا نامت كليب عن القرى
لنا العزة القعساء والعدد الذي
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا

وقال أيضاً:

ومستمنح طاوى المصير كأنما
دعوت بحمرء الفروع كأنها
ولاني سفيه النار للمبتغي القرى
إذا مت فابكيني بما أنا أهله
وكم قائل مات الفرزدق والندى!

ومن قوله في مدح علي بن الحسين:
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلهم

يساوره من شدة الجوع أولق
ذرى راية في جانب الجو تخفق
ولاني حلیم الكلب للضيف يطرق
فكل جميل قلت في يصدق
وقائلة مات الندى والفرزدق

والبيت يعرفه والجل والحرم
هذا التقى النقي الطاهر العلم

وليس قولك (مَنْ هذا) بضائره
إذا رآته قريش قال قائلها
يُغْضِي حياء ويُغْضِي من مهابته
يكاد يمسكه عرفان راحته
ينشق نور الهدى عن نور غرته
من معشر حبهم دين وبغضهم
ومن أبياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليب تُسبني
وقوله:

وكنا إذا الجبار صغر خده
وقوله:

تُرْجِي ربيع أن يجيء صفارها
وقوله:

قوارص تأتيني وتحتقرونها
وقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزاة
وقوله:

ترى كل مظلوم إلينا قرارة

العرب تعرف من أنكرت والعجم
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
فما يكلم إلا حين يبتسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
كفر وقربهم منجى ومعتصم

كأن أباهما نهشل أو مجاشع

ضربناه حتى تستقيم الأخادع

بخير وقد أعيار ربيعاً كبارها

وقد يملأ القطر الإناء فيفيم

وتخالنا جنأ إذا ما نجهل

ويهرب منا جهده كل ظالم

٢١ - جرير^(١)

٦٤٠ - ٧٢٨ م

٢٨ - ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ

٢١ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٦٥، وطبقات فحول الشعراء: ص ٣١٥ - ٣٨٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٧١ والموشح: ص ١١٨ - ١٣٢، وسمط اللآلئ: ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ووفيات الأعيان: ١/١٢٧ - ١٣٠، ومعاهد التنصيص: ٢/٢٦٢ - ٢٦٩ وخزانة الأدب: ١/٣٦ - ٣٧، ومعجم المؤلفين: ٣/١٢٩ - ١٣٠ والمراجع: ٢/١٤٨ - ١٥٦.

(١) راجع صفحة ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.

بالبادية، فشبّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفسه القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار لأهله. فازدهاه ما رأى على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه ديبب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمها أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قرنه عن كُتب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائح فيه، حتى بلغت عبد الملك فنفسه على الحجاج. وأحس الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحقيق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه حتى أنشده قصيدته التي مطلعها:

أتصحرو أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صحبتك بالرواح؟

فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن وما زلنا كذلك. وأجازه بمائة لقحة وثمانية رعاء، وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل أثر الشعراء عند الخلفاء ولا سيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظريه، فشنوا عليه حرب الهجاء وأرث هذه الحرب أعراض السياسة، وتحريض الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعا الغلبة وثبتا له. ودامت هذه المهاجاة سجالاتاً بينهم حتى توفي الأخطل، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائص المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ.

شعره:

برىء جرير من خبث الأخطل وسُكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجميل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة

الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

نموذج من شعره:

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفاً
بوصل حبله إذا جن ليله
دلّيت تزني من ثمانين قامة
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم

ومن جيد قوله فيها:

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى
أذكركم بالله من ينهل القنا
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف
إذا عُدت الأيام أخزيت دارما
وما زادني بُعد المدى نقض مرة

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
نال الخلافة إذ كانت له قدراً
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
ما زلت بعدك في أر تعرقني
لا ينفع الحاضر المجهود بآدينا
كم بالمواسم من شعشاء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
ممن بعدك تكفي فقد والده

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إن العيون التي في طرفها حور
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

فجاءت بوزار قصير القوادم
ليرقى إلى جاراته بالسلالم
وقصرت عن باع العلى والمكارم
مداخل رجس بالخبيثات عالم
ظهوراً لما بين المصلي وراقم

إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
ولم يرهبوا في الله لومة لائم
ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وريش الذنابي تابع للقوادم
وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
ولا رق عظمي مضروس العواجم

من الخليفة مانرجو من المطر
كما أتى ربّه موسى على قدر
أم تكتفي بالذي بلغت من خبري
قد طال بعدك إصعادي ومُنحدري
ولا يجود لنا بادٍ على حضر
ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
مساً من الجن أو رزءاً من البشر
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

قتلنا ثم لم يحيين قتلنا
ومن أضعف خلق الله إنساناً

وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفي الهجاء:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع؟

ومن جيد فخره قوله:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضَرُّ أبي وأبو الملوك، فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبيننا؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شُرطِيًّا. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إلي قطينا، لسقتهم إليه!

٢٢ - الطُّرْمَاح بن حكيم

٧٤٣ - ٠٠٠ م

١٠٠ - ٠٠٠ هـ

نشأته وحياته:

نشأ الطُّرْمَاح بن حكيم الطائي بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفلاً من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة. وكان فيهم شيخ من الشراة الأزارقة^(١) له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلابسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصحه حتى لقي الله عليها. ثم عرف الكميت بن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرماح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا

٢٢ - انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٣٧١ - ٣٧٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٨، والمكاثرة ص ٣٩ وإرشاد الأريب: ٣٦١/٢، ٨/٧، وتهذيب ابن عساكر: ٥٢/٧ - ٥٣ وخزانة الأدب: ٤١٨/٣، ومعجم المؤلفين: ٤٠/٥ - ٤١، والمراجع: ٢٢٧/٣ - ٢٣٠.

(١) وهي فرقة من فرق الخوارج.

الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب : «إنما اتفقنا على بغض العامة» وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل : «كل الشعراء أرسقراطيون». وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهممة لم يقفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد المهلبى، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماح لينشد، فقال له : أنشدنا قائماً. فقال : «كلا والله : ما قَدَّرُ الشعر أن أقوم له فيخط منى بمقامى وأحط منه بضراعتى، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمآثر العرب» فقيل له : تنح ودع الكميت، فأنشد الكميت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرها الطرماح وقال له : أنت أبا ضبيبة أبعد هممة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرماح مع اعتداد بأمره وإعظامه لقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميت أبياتاً من ذي الرمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميت صدر الطرماح وقال : «هذا والله الديباج لا نسجي ولا نسجك الكرايس» فقال الطرماح : «لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته».

وكال الطرماح رغب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول :
أَمْخْتَرِمِي رَبِّبَ الْمَنُونِ وَلَمْ أَنْلِ مِنْ الْمَالِ مَا أَعْصِي بِهِ وَأَطِيعُ ؟
فدأب في سبيله وجدَّ في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله :

وإني لمقتاد جنواذي وقاذفٌ	به وبنفسي العام شتى المقاذف
لأكسب مالاً أو أوول إلى غنى	من الله يكفيني عدات الخلائف
فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن	على شرجعٍ يُعلَى بخضر المطارف
ولكن قبري بطنٌ نسر مقيله	بجو السماء في نسور عواكف
وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة	يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم	تقى الله نزالون عند التراجف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى	وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

شعره :

نشأ الطرماح نشأة حضرية، فيما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألَّم بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي،

لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرُّجَّاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثم كان الأصمعي وأبو عبيدة يعيبان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثماني عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجور وتحقير أمره فكانما يوحى إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يُقَرُّ له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد أنشد يوماً قول الطرماح:

إذا قُبِضَتْ نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: إي والله! وعنان الخطابة والروية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره:

الطرماح من أصحاب الملحومات، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

قل في شط نهر وان اغتماضي
فتطربت للصب ثم أوقف
وأراني المليك رشدي وقد كذ
غير ماريبة سوى ريق الغرة (م)

ومنها:

وجرى بالذي أخاف من البين (م)
صيدجي الضحي كأن نساء
سوف تدنيك من لميس سبتنا
فهي قوداء أنفجت عضداها
ويقول في آخرها:

إننا معشر شمائنا الصب
نصر للذليل في ندوة الحي
وعين تنوض كل مناض
حيث تجث رجله في أباض
أمارت بالبول ماء الكراض
عن زحاليف صنف ذي دحاض

وإذا الخوف مال بالأخفاض
مرائب للشأي المنهاض

لم يَفْتَنَّا بِالْوَتْرِ قَوْمٌ وَلِلضِّ
فسلي الناس إن جهلت وإن شد
ومن قوله:

لقد زادني حُباً لنفسي أنني
وأني شقي باللثام ولا ترى
بغِيضٍ إلى كل امرئ غير طائل
شقياً بهم إلا كريم الشمائل

ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لها
أو أنزل الله وحياً أن يعذبها
لا عز نصر امرئ أضحي له فرس
لو كان يخفي على الرحمن خافية
حوض الرسول عليه الأزد لم تزد
إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
على تميم يريد النصر من أحد
من خلفه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة:

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، وردع البدع، وتحسيس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة. وكان لها من أي القرآن وحججه معين لا ينضب، ومدد لا ينفذ. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقياً عظيماً، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته، وتأيد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لوث العمامة واتخاذ المِخْصِرة والوقوف على نشز من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول ﷺ، والخالفاء الراشدون، وسحبان وائل وزبيد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطري بن الفجاءة.

٢٣ - محمد رسول الله ﷺ

٥٧١ - ٦٣٣ م

٥٣ ق هـ - ١١ هـ

مولده ونشأته وبعثته :

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد، في مهد اليتيم والعُذم، فقد استوفى أبوه ظمء حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكمّله بالعقل الرجيح، والخلق السجيج، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجامع، ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النُصب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً، وسمت نفسه الكبيرة على خدائتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والصدق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقة. ثم ارتد إلى مكة فهز من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرُّبح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضي زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيع، ثم مضى الرسول يضرب في الأفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجه؛ ونفسه عازقة عن مُتّع الحياة، صادقة عن لذادة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يُخلي ذرعه من صوارف الدنيا اللبالي الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أوحى إليه

٢٣ - انظر ترجمته في: كتب السيرة والتاريخ والحديث وغيرها. مثل: سيرة ابن هشام، لابن إسحاق، والروض الأنف، للسهيلى، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، وإنسان العيون، المعروف بالسيرة الحلبية، وسبل الهدى والرشاد، المعروف بالسيرة الشامية، وتاريخ الإسلام للذهبي، والطبقات الكبرى، لابن سعد، والكامل في التاريخ، لابن الأثير، والبداية والنهاية، لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري، ومشاهير ابن حبان والاكتفاء وغيرهم كثير.

في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فانقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخزيك الله أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وفتح الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقوله الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ﴾^(١) فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعالن بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء. ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بجنة الصبر وعدة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يدود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقريه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وخرج بعدهما في مكة مقامه. فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة - وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج - فأحس المشركون منه هذا العزم فآثمروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسيل. فبلغاها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين. يجادلهم بالقرآن، ويجالدهم بالسيف، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك، وعلمت شمس التوحيد في أفق الوجود.

وحينئذ نزل قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) (فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية).

صفته:

وصفه بعض من رآه قال: كان رسول الله ﷺ فخماً يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره؛ أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن، بينهما عرق يدركه الغضب، ألقى العرنين له نور يعلوه،

(١) سورة: المدثر: الآية: ١ - ٣.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣.

ويحسبه من يتأمله أشم؛ كت اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المشربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدل الخلق بادناً متماسكا سواء البطن والصدر، بعيداً ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبط العصب، خمسان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذ زال زال تقلعاً، ويخطو تكفواً، ويمشي هوناً. ذريع المشية، إذ مشى كأنما ينحط من صَبَب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جُل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام. وكان ﷺ متواصل الأحران دائم الفكرة طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثاً ليس بالجافي ولا المهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غص طرفه. جُل ضحكة التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

فصاحته:

تقلب رسول الله ﷺ في أخلص القبائل منطقاً أو عذبها بياناً؛ فولد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يُزَيَّف حديثه ولم يُدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يند في لسانه لفظ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم ينب عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُد بالتأييد ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبين عن فحواه، من كلامه ﷺ.

أثر الحديث في اللغة والأدب:

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبين من أن يُبين، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضب ويتجوز ويشق، وينهج المذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسراً من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة،

ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات خَتَفَ أنفه . الآن حمي الوطيس .
هُدنة على دَخَن . يا خيل الله اركبي . لا ينتطح فيها عنزان . وقوله لحادي النساء رويدك !
رفقاً بالقوارير . وقوله في يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة
والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

٢٤ - عمر بن الخطاب

٥٨٤ - ٦٤٤ م

٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة ، ونشأ نشأة الفتيان من قريش ، فرعى الماشية صغيراً ، ومارس التجارة والحرب كبيراً ، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه ، فتعلم الكتابة ، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً ، والشام والعراق شمالاً حتى فخم أمره وعظم قدره . واشتهر في الناس ببلاغة اللسان ، وثبات الجنان ، وقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه ولجَّ في الخصومة والإنكار على متبعيه ، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلاً وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سرّاً في دار الأرقم المخزومي ، فكان الرسول ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل ، فأختاره الله لهذه السعادة ، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على ختنته يؤنبه ويعذبه على إسلامه . فَلَحَتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه ، فلما قراها تعظمت في صدره وقال : آمِن هذا فَرَّتْ قريش ؟ ثم سأل أين الرسول ؟ فقبل له في دار الأرقم . قال عمر : «فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا عمر ! قال : وعمر ! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج ، فتشهدت ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ! قلت : فقيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد . فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهما كآبة شديدة . فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ .»

٢٤ - انظر ترجمته في : الإصابة : ترجمة ٥٧٣٨ ، وحلية الأولياء : ٣٨/١ ، وصفة الصفوة : ١٠١/١ ، وأخبار القضاة : ١٠٥/١ ، والكامل في التاريخ : ١٩/٣ ، والبدة والتاريخ : ٨٨/٥ ، والخميس : ٢٥٩/١ و ٢٣٩/٢ ، واليعقوبي : ١١٧/٢ ، والأعلام للزركلي : ٤٦/٥ .

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذي قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه، وعادى في الله صديقه ونسيبه، حتى تسلل المؤمنون لواءاً إلى المدينة فأرين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سيفه وتنكب قوسه وأتى الكعبة، وأشراف قريش بفنائها، فطاف وصلى، ثم أقبل عليهم وقال: «شاهت الوجوه! من أراد أن تشكله أمه ويثتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي!» فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول الله صاحب الأمين يؤيده بسانه ولسانه، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل، حتى حضر الموت أبا بكر فلم يجد غيره من عهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعزمه القوي الشجاع، وحنكة الشيخ المجرب، وحكمة العبقري الأريب، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الجديدة يدبره ويسوسه. فيولي الولاة، ويختار القضاة وينصب القواد، ويحرك الأجناد، ويبعث الأمداد، ويرسم الخطط، ويخطط المدن، ويسن السنن، ويقسم الفيء ويقوم الحدود، مما ينوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأي وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو مفترش الغبراء، ويعايش الدهماء، ويتدثر بالثوب الخلق، ويأتمم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثل من المثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أَرْضَى الله والناس بعدله وفضله، لم يُرَضْ عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة بن شعبه، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودب إليه في الغلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنه بخنجر ذي نصلين طعنات كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

صفاته ومواهبه:

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً، أبيض شديد الحمرة، أصلع أشيب، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السبال كبيره. وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هواة. وقُلْ مَنْ سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من درته (عصاه). وكان مُخَصِّدَ الرأي، مُحَكِّمَ الحيلة، مُوثِقَ الحجة، شديد الورع، طاهر اليد، واسع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرت علماً ببلاغه اللسان ذكرته هو ببلاغه العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فتري منه الفقيه المجتهد، والإداري

الحازم والسياسي المحنك، وكل ذلك دون تلقين ولا وحي ولا اقتداء، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

نموذج من عهوده وخطبه:

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك!

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. أس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال ففسر الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه. فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يُعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

ومن خطبة له رضي الله عنه:

أيها الناس! إنه أتى عليّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده. ألا وإنه قد خيل إليّ أن أقواماً يقرؤون القرآن يريدون ما عند الناس. ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل، وإذا النبي ﷺ بين أظهرنا، فقد رفع الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننا به خيراً وأثنينا به عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه.

أفدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة. وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية إن هذا الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة.

٢٥ - علي بن أبي طالب

٦٠٠ - ٦٦١ م

٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ

نشأته وحياته :

ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ورُبي مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه. ولما بعث النبي ﷺ بالرسالة كان عليّ مراهقاً، فأمن به وشب على حبه، وتغلغل أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان عليّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهد من بعده عمر، وأخطأته الشورى إلى عثمان، ناوَص الجرة ثم سالمها، متجاملًا في كل ذلك على نفسه. وقتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود عليّ عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حلّت العُقد، وأوهنت العُرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتلتا حيناً من الدهر. ثم قرت السيوف في الأغمار دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. واثمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو بن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجَم، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه :

كان عليّ كرم الله وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه. وكان حُجة في الفقه، قُدوة في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا؛ فكانت هذه خلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق، ولا أبل ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومرسلاً بعيد غور الحجة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

٢٥ - انظر ترجمته في: تاريخ الأمم والملوك: ٨٣/٦، وصفة الصفوة: ١١٨/١، والبدء والتاريخ: ٧٣/٥، وتقاتل الطالبين: ص ١٤، وحلية الأولياء: ٦١/١، وشرح نهج البلاغة: ٥٧٩/٢، ومنهاج السنة: ٢/٣، وتاريخ الخميس: ٢٧٦/٢، والإسلام والحضارة العربية: ١٤١/٢.

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك، تعد من معجزات اللسان العربي، وبدائع العقل البشري. وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَّاته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه:

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضي في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: «يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليها طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبعية البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة» والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة! أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي، وكلت النزع بأشطان الركي! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزّون بالموتى. مرّه العيون من البكاء، خُمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفّر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظماً إليهم ونعُض الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يُسني لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدقوا عن نزغاته ونفثاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم وأعقلوها على أنفسكم.

ومن كلام له عليه السلام:

إلا وإن الخطايا خيل شمس حُمل عليها أهلها، وخُلعت لجمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُل حُمل عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلماً أدبر شيء فأقبل. شغل من الجنة والنار أمامه. سباع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار.

هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

٢٦ - سحبان وائل

٠٠٠ - ٦٧٤ م

٠٠٠ - ٥٤ هـ

نشأته وحياته :

نشأ سحبان بن زفر بن إباد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سحبان خطيباً غمراً البديهة، قوي العارضة، متصرماً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله، فاقتضب من حيث كان وأدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إلي عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءت ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصاه، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحج ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتداء في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء. فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان: لا تقطع علي كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أمامك! نحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعد. فقال معاوية: أنت أخطب العرب، قال سحبان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجراته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

نموذج من خطبه :

إن الدنيا دار بلاغ، والآخر دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار ممركم، إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم،

٢٦ - انظر ترجمته في: بلوغ الأرب: ١٥٦/٣، وشرح المقامات للشرشي: ٢٥٣/١، ونهذب ابن عساكر: ٦٥/٦، وخزانة الأدب: ٣٤٧/٤، ومجمع الأمثال: ١٦٧/١، والأعلام للزركلي: ٧٩/٣.

قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتكم، ولغيرها خلقتكم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم.

٢٧ - زياد ابن أبيه

٦٢٢ - ٦٧٣ م

١ - ٥٣ هـ

نشأته وحياته :

كان للحارث بن كلدة الثقي طيب العرب أمةً بغيٌ تدعى سميةً، وعبد رومي يسمى عبيداً. فزوّج العبد من الأمة. فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة! وقد ضربت فيه بعرق أشب فنشأ أريباً أديباً. ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر، فتجلى نبوغه وظهر حذقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله «لا لخيانة ولا لعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله» على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غير عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو بن العاص: لله در هذا الغلام! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلامه لعليّة قريش وفيهم عليٌّ أن زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين عليّ وجد في زياد اليد المصروفة، والرأي الجميع، واللسان الذرب، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم الساسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل عليّ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب، ثم ولاه معاوية المصريين، وهو أول من جمعا له فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٣ هـ.

أخلاقه ومواهبه :

كان زياد من ذوي الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق، قال فيه

٢٧ - أنظر ترجمته في: تاريخ الطبري: ٢٤٦٥/١ - ٢٤٦٦، ٦٦/٢ - ٨٧، ٥٨/٣ ومروج الذهب: ١٥/٥ والأغاني: ٧٣/١٢ - ٧٥، ٣/١٦ - ٩، ٢١/٢١ - ٤٠ ومعجم البلدان: ٩٠٥/١ ومقدمة ابن خلدون: ٥/٣ - ١٥ وابن خلدون: البدء والتاريخ ٢/٦، وخزانة الأدب: ٥١٧/٢، ودائرة المعارف الإسلامية ١٣٣٤/٤ - ١٣٣٥، والأعلام للزركلي: ٥٣/٣.

الشعبي : ما سمت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً».

وزياد من أقوى العمدة التي قام عليها عرش بني أمية. رمى به معاوية وجوه الفتن فلم الشعب وشد السلطان، واشتد في العقوبة! فأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وقتل المعلن، واستصلح السر، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي في الإسلام بخطبته المعروفة بالبراء وهي التي خطبها حين قدم البصرة.

نموذج من كلامه : خطبته البراء

أما بعد : فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغفّي الموفّي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا. وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف كقهر، والضعيفة المسلوقة بالنهار لا تنصر، والعدو غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ أقربتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يرد من سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعت السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب، حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إن رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالطاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كذبة الأمير بقاء مشهورة، فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً. فكفوا عني أيديكم والسنتكم أكف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا

ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين قوم إخنُ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ ، حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم . وأعينوا على أنفسكم ، فربُّ مبتشس بقدومنا سيُسّر ، ومسرور بقدومنا سيبتشس .

أيها الناس ! إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحيينا . ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيثنا بمناصحتكم لنا . وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي !

٢٨ - الحجاج بن يوسف

٦٦١ - ٧١٤ م

٤١ - ٩٥ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٤١ في مهد الخمول والفقر . فزاوُل مع أبيه تعليم الصبية بالطائف ؛ إلا أن نفسه الرغبة الطامحة ربأت به عن الضعة فلفت إليه بذكائه رَوْحُ بن زنباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان فجعله في شُرطته . ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوْح بن زنباع فدله على الحجاج ، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردهم إلى الطاعة . ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله بن الزبير ، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز ، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك ، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة ، ويضطرم بثورة الخوارج ، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم ، وطأطأ إشرافهم ، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر في أشلائهم ، ويخوض بهم في دمائهم .

وبقي طول حياته بالعراق دِعامَةً لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين . ثم مات بواسط سنة ٦٥ هـ .

٢٨ - انظر ترجمته في : البدء والتاريخ : ٢٧/٦ ، والجرح والتعديل : ١٦٨/٣ ، وتعجيل المنفعة : ص ٨٧ وتاريخ البخاري : ٣٧٢/٢ ، والمعارف : ص ٣٩٥ ، ٥٤٨ ، ومروج الذهب : ٣٦٥/٣ ، والبدء والتاريخ : ٢٧/٦ ، ومعجم البلدان : ٣٨٢/٨ ، وشذرات الذهب : ١٠٦/١ ، والأعلام للزركلي : ١٦٨/٢ .

أخلاقه ومواهبه :

كان الحجاج طماحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والفسوة، وتذرع لنييلهما بالفصاحة والقوة، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فأنتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرئ يعرف عيوب نفسه، فصف نفسك ولا تخف عني شيئاً. فقال: «أنا لجوج حقود حسود. ومتى كانت هذا الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا» وكان فصيحاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمانه. قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج: إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين». مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتوفي وفي سجنونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه :

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمِلاً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه مُتَنَكِّب قوسه، ومكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق! وهم عُمَيْر بن ضابئ البرجمي أن يرحمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره، فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلأع الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة! إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها! وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى!

هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حُطَم
ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم
قد لفها الليل بعَضَلْبِي أروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي
قيد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجذوا
والقوس فيها وتر عرد مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد!

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعِّعُ لي بالشنان، ولا يُغْمِزُ جانبي كتغماز التنين. ولقد فررت عن ذكاء، وفُتِشتُ عن تجربة. وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، نشر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكبراً فرماكم بي. لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال.

والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فرئت. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتاباً بالطبع يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز ولفظ فصيح. فلما امتدت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفناء اضطربهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل مصر: ففي العراق وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين فحولت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء من وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أو شكت أن تصير بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد وكانت تبدأ بالبسملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وتختتم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من أتبع الهدى. فلما ولي الخلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتجويد القراطين، وتفخيم الخطاب، وألا يكتب بمثل ما تكتب به السوق. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استخلف عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد أتيًا هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا

الأسلوب المحكم الفير، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام عليّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكُتاب

٢٩ - عبد الحميد بن يحيى

٧٥٠ - ٠٠٠ م

١٣٢ - ٠٠٠ هـ

نشأته وحياته :

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية، ونُسب إلى بني عامر نسبة ولائية. ثَقَّفَ الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولاية على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان. لم لا تسجد؟ فقال: ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. فقال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذ مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الألوية السود ودنو أبي مسلم وتتابع الفشل قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تحوَّجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعي في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرْمِي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، ما عندي إلا الصبر حتى يفنح الله عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أَسِرُّ وفاء ثم أظهر غُدره فَمَنْ لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد الله بن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهما: أنا. مخافة على صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لو لا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـ.

٢٩ - انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٢٦٣/٣، وثمار القلوب: ص ١٩٦، وأمرأه البيان: ٣٨/١ - ٩٨، والشرشي: ٢٥٣/٢، وصبح الأعشى: ١٩٥/١٠، والوزراء والكتاب: ٧٢ - ٨٣، والصناعيين: ص ٦٩، وحيون الأخبار: ٢٦/١، والبيان والتبيين: ٩/٣، والأعلام للزركلي: ٢٨٩/٣.

أثره في الكتابة :

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهياة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعب أطراف الدولة، وبدؤ ثمار الحضارة، وزهو النثر والخطابة ودنو العربية من الفارسية وتخرج عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبينة القواعد.

أسلوبه :

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة، يسبي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبى أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

نموذج من نثره :

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتاب أصبحوا جماعة.

..... وإياكم والكبر والسُخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إخنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتى هي أليق لأهل الفضل

والعدل والنبيل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته .

وكتب في التوصية بشخص : حق موصل كتابي عليك كحقه علي ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله .

نماذج من النثر

الحكم:

من حكم أبي بكر رضي الله عنه قوله :

صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي والنكث والمكر .

ولعمر رضي الله عنه : من كتم سره كان الخيار في يده . مَرُّ ذوي القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . أشكوا إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي .

وقال علي كرم الله وجهه : رأي الشيخ خير من جلد الغلام . الناس أعداء ما جهلوا . قيمة كل امرئ ما يحسن .

الخطب:

خطب الرسول ﷺ ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس ! إن لكم معالم فانتوها إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فانتوها إلى نهايتكم ؛ فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى فلا يدري ما الله فاعل به ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبية قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والنار .

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب . وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ^(١) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو. أويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنفّسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة! إني لا أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق: يعيرون الشيء وهم فيه. كل امرئ منهم شيعة نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شرّ لكم، وإن معروف زماننا هذا منكراً زمان مضي، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالرُتقُ خير من الفتق، وفي كلِّ بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشفاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماغ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظّمكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألسنتم أصحابي بالأهواز، حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لؤاذاً، وتنهزمون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا بلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفريات والغدرات، والثورة بعد الثورات! إن أبعثكم إلى ثغوركم عللتم وخنتم، وإن أمنتكم أرجفتم، وإن خفتكم نافقتم، لا تذكرون خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاوٍ واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كتتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه، ينفي عنه المدر؛ ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والغطاء!

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٠٠.

الرسائل :

كتب أبو عُبَيْدَةَ بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
ينصحه :

من أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإننا
نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مُهم، فأصبحت
وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف
والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإنا نحذرك يوماً تعنو
فيه الوجوه، وتجبُّ له القلوب، وتنقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق
داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر
زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة. وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل
الذي نزل من قلوبنا، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه :

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلطف
من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريرة، فأطمعني أولك في إخائك، وأياسني آخرك
من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة.
فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على
ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا :

أوصى علي بن أبي طالب ولده الحسن قال :

احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرّك ما عملت معهن : أغني الغني العقل، وأكبر الفقر
الحمق، وأوحش الوحش العُجب، وأكرم الحسب حُسن الخلق. يا بني ! إياك ومصادقة
الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يبعد عنك أحوج
ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه
كالسراب يقرب إليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه عند احتضاره قال :

يا بني احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني : إذا أنا مت فسودوا كباركم،
ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم. وعليكم بحفظ المال، فإنه منبهة
للكريم، ويُستغني به عن اللثيم، وإياكم والمسألة فإنه أخس كسب الرجل.

اللحن ونشوء العامية :

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بيض اللحن على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بنينا النبي الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفئدة، وأصبحت لسان النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بد من الخضوع له والتأثر به، فأتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمة الملك، ومقتضيات الحضارة، ومصطلحات العلوم. وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدنية، وتنوع المناظر الحضارية.

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نشرهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقبصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على السنة المسلمين أحمرهم وأسودهم، والمتعربين أدناهم وأبعدهم، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق، أن ينطقوا بها كأهلها، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت بالسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول ﷺ. ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشوا تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصد عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

النحو:

يروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ هو واضع مبادئ النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والي العراقيين، فقال له: «أصلح الله الأمير! إني أرى

العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ «فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح الله الأمير. توفي أبانا وترك بنون...» فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكمّلوه وفصّلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجع أنه ألّم بالسريانية (وقد وُضع نحوها قبل العربية) أو اتصل بقساوستها وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلم في العصر الأموي:

لم تكن نفوس العرب مهتأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن. والعصر لحل مشكلة، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو إهماله.

واقترضت حُنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم، فألف عبيد بن شَرِيّة كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية، وربما كتب غيره غيره، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تُعْن أحدًا في هذا العصر، اللهم إلا خالد بن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها.

وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

الخط بعد الإسلام:

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخذ بعض كتابهم أسرى، قبل الرسول ﷺ من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول، ورغبة في كتابة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة.

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية وأخّر الكلم في المصاحف بالنقط، فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بعداد مخالف. فلما تبايرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فالتبست الجيم بالحاء، والذال بالذال، والسين والشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب به الكلمة تمييزاً للحرف بعضها من بعض. ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد ووضع الشكل على هذا النمط المعروف، فحل نقط أبي الأسود.

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم. فقد تنافس الكتاب في تجويده، وتفننوا في تنويعه، وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع، وقلم النساخ، والقلم الرياسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل). ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيفت أشكال الكوفي على عشرين شكلاً. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد بن مقله المتوفى سنة ٣٢٨ فجود هذا الخط ونمّقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة، واستعمل في كتابة المصاحف وأدخل في الدواوين، وجاء بعده علي بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي. ثم تنوع الخط النسخي إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون. أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف (والثلث) وعرضه ملليمتر واحد. ثم تتدرج الأقلام في الدقة، فيجيء خفيف الثلث، فاللؤلؤ، فالتوقيع، فالرقاع، فالمحقق، فالغبار، وهو أدقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها، ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في النشوء والرقى. وكثير من الأمم التي استضاءت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القاريء في لبس شديد، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القاريء إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام. فهو يقرأ: عِلْمَ أو عِلِمَ أو عِلْمَ أو عِلْمَ أو عِلْمَ أو عِلْمَ. ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة. وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره. فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه

المجمع، فآلف في عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدرج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، وبرأيها أخذ المجمع.

الباب الثالث

العصر العباسي

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة يُنمَّون، إلى العباس عم النبي ﷺ. وانترعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمعونة الفرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى نل ذلك العرش هلاكاً سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثر الطاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتائبها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

أما الدولة العباسية فقد اصطفت بصيغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوحدوها وأبدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الحلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعت العصية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونشج من ذلك دحول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزواج والتناسل، واختلاط المدنية الآرية بالمدينة السامية، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرق وشيوخ المقاتلات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجوّاري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمجون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بين في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأفئدة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقريباً من الفاتح، واستدراراً للرزق، وتفقهوا في الدين، فكثر اللحن وسرت عداوة إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة. وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقييح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من الهربية ومن لغة الإقليم الوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية والمنزلية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلاصهم إلى الترف، وإشراق الموالى للكلم السهل والأسلوب البين، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفاح والمنصور والرشيد وذو الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأدية المعنى الواحد بالألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢ إذ

استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويواثبون
 الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء
 المتوكل فعضد الأتراك ونصر السنة. فتقاتل العنصران، وتناضل المذهبان، وابتغى كل منها
 الفلج والفوز يقهر العرب وكُتبت الخلفاء، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس، وزالت
 هيبتها من القلوب، فاستشرَف ولاية الأطراف إلى الاستقلال، وبدأ بنو بويه فوضعوا أيديهم
 سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذهم إلى جُل الممالك الشرقية
 الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهب أحفاد الأكاسرة وأبناء
 الدقاهين يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى
 شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات
 القصصية والأناشيد القومية. ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فإن المتنبي، وهو من
 رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس:

معاني الشعب طيباً في المعاني	بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها	غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لوسار فيها	سليمان لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في جنى القرآن
 تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف، وقد عز النصير من أهلها، حتى غلب التار على
 بغداد فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة الفاهر، بعد ما خلفت في تلك البلاد
 شرائع وعلوم وأداباً لم تقو على محوها الأيام.

الفصل الثاني

النثر

الكتابة

الإنشاء مظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثرٌ عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وغنوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، ولم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعهدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة. والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهنيتي والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضارية التي لم يعهد أكثرها من قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداء، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتاب بتنوع الدواوين: فكان منهم كتاب الخراج والنفقات، وكتاب المظالم والقضاء، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع، وكتاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة واستاذوا البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز والقصد في الغلو والتنميق، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان جعفر بن يحيى يقول في إيثار الإيجاز: «إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا».

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويطيّلون. وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجمل على المعنى الواحد، ورأوا ذلك التكرار أبلغ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وإن وقد تلكأ في بيعته: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت» فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب: «إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، ويُعيد ويُبدى، ويحذر وينذر». ثم مالوا إلى الازدواج والسجع، وتضمنين الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمحت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت ممّوهة الظاهر مشوّهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العُتبي والفتح القدسي.

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبّغت كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة:

فالطبقة الأولى: إمامها ابن المقفع. وطريقته تنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع. وقد حدّ البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها». وقال لبعض الكتاب: «إياك وتتبّع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيُّ الأكبر». وقال لآخر: «عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة». ومن رجال هذه الطبقة يعقوب بن داود، وجعفر بن يحيى، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، والحسن بن وهب.

والطبقة الثانية: إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفأة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سامة القارىء، وتحليل للمعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة: إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة الإتباعية عند الفرنج. لتقيدها بقيود لا بدّ من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمن المُلح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلامته. ومن رجالها الصاحب بن عباد، والوزير المهلب، والخوارزمي، والبديع، والصابي، والثعالبي. ومن آثار هذه الطبقة المقامات.

والطبقة الرابعة: إمامها القاضي الفاضلي. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخي السجع والبديع، إلا أنه غالى في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية محضاً: ألفاظ منمقة تحتها معنى غث وخيال ضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكاتب الأصبهاني.

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المنشور هو عُدّة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأقلام، وتباعد بين الأساليب، فتعددت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام علياً كالشريف الرضي. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشبيب بن شيببة.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقلّ النضال باللسان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلّة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم. وقصّرت على خطب الجمع والعيد والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنونهم إلى عهد الخليفة الراضي. فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون وملك العبي السنّة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المضرية الحديثة فراقها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج النثر

التوقيعات:

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هُبَيْرَةَ بواسط: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك. فخذلي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: داو جرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر بن يحيى: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾. وكتب إليه إبراهيم بن المهدي: إن غفرت فبفضلك، وإن أخذت فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله. ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: العدل أوثقه، والتوبة تطلقه، ووقع في كتاب رجل شكاه إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت.

ووقع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لعيرك كما دَرَّ لك.

الخطب:

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسروا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه،

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠١.

لإعزاز دينه وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه . إن من نازعنا عروة هذا القميص أجزأناه خبيء هذا الغمد . إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه .

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد أباه :

والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته ، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته ولو أردته لكان أسرع إلي من السيل الخدور ، ومن النار إلى يابس العرفج . وإني لماخوذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف . ولكنه والله حين رأي للملك قمنا ، وللخلافة خطراً ، ورأى لي يداً تنالها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تكمل لخصالها ، وتستحقها بخلالها . وإن كنت لم اختر تلك الخصال ، ولا اصطنعت تلك الخلال ، ولم أرشح لها في سر ، ولا أشرت إليها في جهر ، ورأها تحن إلي حنين الوالدة ، وتميل إلي ميل الهلوك ، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع ، وترغب في خير مرغب ، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ، ونصب في التماسها . وتفرد لها بجهدته وتهياً لها بكل وسعه ، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليق بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنب فأتوب منه ، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه . وإن زعم إنه لا صرّف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم ، والحزم والعزم ، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ، وشغلته عن التدبير ، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير . ومن المجهود إلا القليل !

وخطب داود بن علي يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال :

شكراً شكرياً ! إنا والله ما خرجنا لنخفر فيكم نهراً ، ولا لنبني فيكم قصرأ . أظن عدو الله أن لن نقدر عليه أن رُوحه له من خطامه ، حتى عثر في فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعاد القوس إلى النزعة ، ورجع الملك إلى نصابه في أهل بيت النبوة والرحمة ، أمن الأسود والأحمر . ولكم ذمة الله . لكم ذمة رسول الله ﷺ . لكم ذمة العباس لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لا نهيج منكم أحداً .

وخطب شبيب بن شيبه يعزي المهدي يوم توفيت أخته قال :

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك

بنقمة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل:

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلالها:

بلغني استقلالك لما أطفئت. والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يفتنم.
وكتب في تهنته بابلاله من مرض:

قد أذهب الله وصَب العلة ونصبها؛ ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من ارغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان عنده من السرور بأولاهها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات على لسان الخليفة لأحد العمال:

أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حجة، ولا يزيل الأثمة: إما تقصير في عملك دعائك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، مُجَلَّة للُنُكْر بك، وموجبة للعقاب عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت من عظم العثرة يجب اجتهدك في تلافي التقصير والإضافة. والسلام.

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرفق صفوها النزوع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح؛ لكن، ما بقي أن يصفوا عيش مع بُغدي عنك ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشملي أنسي. وقد حُرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس بيت بلا نظام، قرأت كتابك - جعلني الله تعالى فداءك - فامتلت سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك. وما أمرُ ظهما، فكل خصالك مقرظ عندي. وما أمدهما، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي. وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرِي فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطي هواك وما ألقى على بصري.

المقامات

المقامة الخرزية لبديع الزمان الهمداني

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما بلغت بي الغربية باب الأبواب، ورضيت من الغنمة بالإياب، ودونه من البحر وثاب بغاربه، ومن السفن عساف براكبه، استخرت الله في القفول، وقعدت من الفلك، بمشابة الهلك. ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار جبلاً، وتحوذ من الغيم جبلاً بريح ترسل الأمواج أزواجاً، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الحين، بين البحرين، لا تملك عُدّة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء. ولا عصمة غير الرجاء. وطويناها ليلة نابغة، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخي الصدر منشرح، نشيط القلب فرح. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له: ما الذي آمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يفرق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت. فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآتت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حقة عاج، قد ضمن صدرها رقاعاً وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحللتنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إليّ فقال دعوه فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سرّ حالك. قال: أنا من بلاد الاسكندرية. فقلت: كيف نصرك الصبر وخذلنا؟ فأنشأ يقول:

ونك لولا الصبر ما كُنْ	ت ملأت الكيس تبراً
لن ينال المجد من ضا	ق بما يخشاه صدرا
ثم ما أعقبني السا	عة ما أعطيت ضراً
بل به أشند أزرأ	وبه أجبر كسراً
ولو أني اليوم في الفر	قى لما كلفت عذرا

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

اعلموا يا آمال، وثمان الأرامل، أنى من سرّوات القبائل، وسريّات العقائل، لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسIRON القلب، ويُمضون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاء، وفجع بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهراً لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفقدت الراحة، وصلد الزند، وهنت اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذاغبر العيش الأخضر، وازور المحبوب الأصفر اسود يومى الأبيض، وابيض قودي الأسود؛ حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!

الفصل الثالث

الكُتَّاب

٣٠ - ابن المقفع

٧٢٤ - ٧٥٩ م

١٠٦ - ١٤٢ هـ

نشأته وحياته :

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داذويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف، فاحتجن من مال السلطان شيئاً، فضربه الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود بن هبيرة، وفي عهد بني العباس عيسى بن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: «قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك»، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورؤوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشيّة ذلك اليوم فجعل يأكل وي زمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال «كرهت أن أبيت على غير دين» ثم غدا عليه فأعلن إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبة.

٣٠ - انظر ترجمته في: أخبار الحكماء: ص ١٤٨، وأمرأ البيان: ص ٩٩ - ١٥٨، وأمالى المرتضى: ٩٤/١، وتاريخ يعقوبي: ١٠٤/٣، وتاريخ الطبري: ١٨٢/٩، وخزانة الأدب: ٤٥٩/٣ - ٤٦٠، ومعجم المطبوعات: ٢٤٩، والبداية والنهاية: ٩٦/١٠، وسير أعلام النبلاء: ٢٠٨/٦، والأعلام للزركلي: ١٤٠/٤

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورُمي بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثله حينما مر على بيت نار للمجوس ببني الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعرّضُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنني لأمنحك الصدودَ وإنني قسما إليك مع الصدود لأتميل

وبقي ابن المقفع في خدمة عمّي المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فساؤه طوالق، ودوابه حُبُس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حِلٍّ من بيعته» فوجد المنصور عليه وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية المهلب أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه:

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعاً في أدب العرب والفرس «مقدّمًا في بلاغة اللسان والقلم ووالترجمة واختراع المعاني وابتداع السّير. وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً».

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العمم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل لل خليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن علمه أكثر من عقله. وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيتّه، وإن رأيت قبيحاً أتيتّه. وكان في سائر أحواله عفيفاً أدبياً وفيّاً لأصحابه. وأمره مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

نثره وشعره:

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عُرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه في قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزّنا أبا عمر ولا حيّ مثله فله ريبُ الحادثات بمن وقع!

فإن تَكُ قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة في انسداد لها طمع
فقد جرُّ نفعاً فقدنا لك أننا أمنا على كل الرزايا من الجزع

مترجماته ومؤلفاته :

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليلة ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثلاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح: ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وألف كتابي الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نشره :

قال: لا يؤمنك شرُّ الجاهل قرابةً ولا جوارٌ ولا إلف، فإن أخوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها. وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألفك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سبغ ضار، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة في الدين قائد إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأسود، والحريق المخوف، والدين الفادح، والداء العياء.

وقال أيضاً: «إن استطعت أن تنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فأفعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال».

وقال أيضاً: كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما عظمه في عيني صغير الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعه. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بدُّ القائلين. وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجدُّ فهو الليث عادياً وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى،

ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخصص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، وإن تطيق. ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

٣١ - الجاحظ

٧٨٠ - ٨٦٩ م

١٦٣ - ٢٥٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عثمان عمرو بن الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب، فأكب على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة. وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالاته، ونصر الاعتزال بكتابته. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأغرم بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يكثر في حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، وأصبح في الأدب منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعي الجانب، مكفي الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكرماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب. ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضة الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو عثمان دميماً الخلقة جهم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لقبه»؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه إليه بسر من رأى ليؤدب ولده. فلما

٣١ - انظر ترجمته في: إرشاد الأريب: ٥٦/٦ - ٨٠، والفهرست: ص ٢٠٨، ٢١٢، وسرح العيون: ص ١٣٦، وأمراء البيان: ص ٣١١ - ٤٨٧، وميزان الاعتدال: ٢٤٧/٣، وتاريخ بغداد: ٢١٢/١٢، وتذكرة النوادر: ص ١٠٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥٥٠، ووفيات الأعيان: ٤٧٠/٣، ٤٧٥، وآداب اللغة: ١٦٧/٢.

رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دُعابة وَمَجَانة واستخفاف
بالعادات المرعية والأداب الوضيعة، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكاهة المحاضرة
صادق المواساة.

علمه وأدبه :

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للمقارئ ما لنا بغة العرب وفولتير
الشرق من الأثر في الأدب. ويحسبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة،
واستقصاء البحث، وشدة المعارضة، وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم الكلام وخلطه
بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسَمُوا
بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع. وهو أول عالم عربي
جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان
والنبات والأخلاق والاجتماع.

نثره وشعره :

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين
والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول.
وقد قال فيه البديع: إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة، قليل الاستعارة. وهذا الحكم
وإن كان شديداً يطابق الحق أحياناً. أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه
إلى الاتباع لا إلى الابتداع وهو قليل مشور في ثنابا الرسائل والكتب كقوله للوزير
ابن عبد الملك:

ففللّ منهم شبّاة العَدَمْ	بدا حين أئرى لإخوانه
فبادر بالعُرفِ قبل الندم	وأبصر كيف انتقال الزمان

وقوله :

لئن قُدُمْتُ قبلي رجالاً فطالما	مشيت على رِسلِي فكنْتُ المقدما
ولكنّ هذا الدهر تأتي صروفه	فتبرم منقوضاً وتنقض مُبرَما

مؤلفاته :

كُتِبَ الجاحظ تربي على مائتي كتاب، وهي كما قال الأستاذ ابن العميد: «تعلم العقل
أولاً والأدب ثانياً، ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء والخطابة،
وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب
البخلاء، وديوان رسائله.

مثال من نثره :

قال يعاتب صديقاً له : «والله يا قُليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يدلّ صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنفُ القلبي راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء».

وقال في رسالة التربيع والتدوير وهي من أبلغ رسائله :

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بالنسيان، ومرة بالاتكال على عفوك. وعلى ما هو أولى بك. والجملة أنا لو اعتمدنا، ثم أصررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتذرنا ثم أطيننا؟ فإن تقبل فحظك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهد جهدك، ولا أبقي الله عليك إن أبقيت، ولا عفا عنك إن عفوت. وأقول كما قال أخو بني منقر:

فما بَقِيََا عَلَيَّ تَرَكَتْمَانِي ولكن خفتما صدر النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأزمينك بكنانة. ولئن نهضت بصالح بن علي لأنهضن بإسماعيل بن علي. ولئن صُلّت عليّ بسليمان بن وهب لأدمغتك بالحسن بن وهب. وأنا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السلامة. واحذر البغي فإن مصرعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجريز إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس بن زهير إذا مكر، وللأغلب إذا كر، ولطاهر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجادّة ودع البُنَيَات. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبار، أني أظهر منك حرباً، والطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حلماً، وأخف روحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قدماً، وأبعد غوراً، وأجمل وجهاً، وأنصح ظرفاً، وأكثر ملحاً وأنطق لساناً، وأحسن بياناً، وأجهر جهارة، وأحسن شارة، وأنت رجل تشد من العلم، وتنشف من الأخبار، وتموه نفسك، وتغز من قدرك، وتتهيا بالثياب، وتتبل بالمراكب، وتتجب بحسن اللقاء؛ ليس عندك إلا ذاك. فلم تزاحم البحر بالجداول، والأجسام بالأعراض، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يعدل بين القناة والكرة؟ وبين رخي الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرّين، وبين المتقاربين دون المتفاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطيء فيه الذهن، ولا يكذب فيه الجس.

٣٢ - ابن العميد

٨٩٢ - ٩٧٠ م

٢٩٧ - ٣٦٠ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى، فنشأه على الأدب ودرّبه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عُذته، واستحصدت قوته، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وُزرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشؤون الدولة، وجرى على منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبى روحاً لنهضة العلم وقطباً لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبى على مكانته يجله وينهيه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادِ هواك صَبَرْتَ أم لم تصبرا وبُكَاك إن لم يجر دمعك أو جرى
ويقول فيها:

شاهدت رَشَطَالِيسَ والإسكندرا مَنْ مُبْلَغُ الأعراب أني بعدها
من ينحر البدرَ النُّضَارَ لمن قرى ومَلَّتْ نحرَ عِشارها فأضافني
متملكاً متبدِّياً متحضراً وسمعت بطليموس دارس كتبه
ردُّ الإله نفوسهم والأعصرا ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القولنج والنقرس حتى استعز الله به سنة ستين وثلثمائة.

٣٢ - انظر ترجمته في: الإمتاع والمؤانسة: ٦٦/١، وتجارب الأمم: ٢٧٤/٦ - ٢٨٢، ومعاهد النصيص: ١١٥/٢، وبتيمة الدهر: ١٥٤/٣ - ١٨٨، والكامل في التاريخ، في حوادث سنة ٣٥٩، ووفيات الأعيان: ١٠٣/٥ - ١١٣، وشذرات الذهب: ٣١/٣ - ٣٤، وطبقات أعلام الشيعة: ص ٢٦٩، والأعلام: ٩٨/٦.

نثره وشعره:

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفِقرَ أنيق الديباجة، بديع الوشي، طبع على غرارهِ مشايعوه لموافقته ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرقى معاصريه طبعاً، وأقلهم سجعاً، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاتاً للأمثال، وتضميناً للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما رأى إلا البديع، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة، متفوقاً في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة الماثورة: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد». أما شعره فيغلب فيه الحسن ورويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره.

مختار من كلامه:

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة:

كتابي وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدل بسابق حُرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يُرعى لك. ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأثني ثانية لاستبقائك واستطلاحك، فقد يَغْرُبُ العقل ثم يؤوب، ويعزّت اللب ثم يشوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضع الرأي ثم يُستدرَك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذا كنت كذلك فقد عرفتَ حالها، وحلبت شطريها؛ فنشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك كيف وجدت ما زلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء غذيّ وماء رويّ، ومهاد وطيّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، عززت به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعّة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المثربة؟... فقيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عدت، والخلف مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفقت منها كفك، وغمست في خلافتها يدك؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عندك؟ أظلّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظليل ولا يُغني من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها. والمس جسّدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟

وهل حلّى بصدرك أن تظفر بفؤت سريح ، أو موت مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله .

ومن شعره قوله لبعض إخوانه :

قد ذبت غير حشاشة ودماء
لا أستفيق من الغرام ولا أرى
وصروف أيام أقمن قيامتي
وجفاء خل كنت أحسب أنه
أبكي ويضحكه الفراق ولن ترى
ومنها :

من يشف من داء بآخر مثله
لا تغتنم إغضائي فلعلها
واستبق بعض حشاشتي فلعلني
فلئن أرحت إلي عازب بلوتي
لأجهزن إليك قبح تشكر
ولأغضلن مودتي من بعدها

أثرت جوانحه من الأدواء
كالعين تغضبها على الأقداء
يوماً أفيك بها من الأسواء
ووجدت في نفسي نسيم عزاء
ولأنثرن عليك سوء ثناء
حتى أزوجهما من الأكفاء

٣٣ - الصاحب بن عباد

٩٣٨ - ٩٩٥ م

٣٢٦ - ٣٨٥ هـ

نشأته وحياته :

وُلد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد بطالقان من أعمال قزوين ، ودرس على ابن فارس اللغوي ، واتصل بابن العميد شاباً فأخذ عنه ؛ واشتدت صحبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب . ثم وُزرَ لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قُتل أبو الفتح بن العميد وزيره ، فدبر أموره وسدَّ ثغوره . ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب ،

٣٣ - انظر ترجمته في : البداية والنهاية : ٣١٤/١١ - ٣١٦ ، ولسان الميزان : ٤١٣/١ - ٤١٦ ، ومعجم الأدباء : ١٦٨/٦ - ٣١٧ ، ووفيات الأعيان : ٢٢٨/١ - ٢٣٣ ، والنجوم الزاهرة : ١٦٩/٤ - ١٧١ ، ومعاهد التنصيص : ١١/٤ ، وابن البردي : ٣١٢/١ ، والمنتظم : ١٧٩/٧ - ١٨١ ، ونزهة الجليس : ٢٨٤/٢ ، والأعلام : ٣١٦/١ .

فقال له : ذلك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة . فسيل كل منا أن يحتفظ بحقه .

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه ، وغرس للأدب جناحاً ناضرة ، وشار للعلم ربوعاً عامرة . وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه ، ويتنافسون في مدحه ، وهو يرشدهم بنقله ، ويعينهم برفده ، حتى أزهى الأدب في عهد بني بويه بفضلله ازدهاراً قل أن يصادفه في عهد آخر .

وكان للصاحب ولعٌ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها . وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر ، ومتكلم يناظر ، وناشيء يروي ويستفيد . وعاش الصاحب ما عاش مبعلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة . فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقوائده في خير ملابسهم . فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض . ودفن بأصبهان .

نثره :

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأرى عليه في الجلية اللفظية ولا سيما في السجع والجناس ، حتى قيل فيه : «لو رأى سجعه تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، لما هان عليه أن يتخلى عنها» ومنزله بعد البديع وقبل الخوارزمي . وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده . ولم تعقه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف ، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات ، وكتاب الإمالة ، والكشف عن مساوئ المتنبي ، وغير ذلك : وأكثر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب .

نموذج من كلامه :

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الري وافداً عليه :
تحدثت الركاب بسير أروى إلى بلد حططت به خيامي
فكدت أطيّر من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحق ما قيل أمر القادم ، أم ظن كأماني الحال ؟ لا والله بل هو درك العيان ، وإنه ونيل المنى سيان . فمرحباً أيها القاضي براحتك ورخيلك ، بل أهلاً بك وبكافة أهلك ، وبأسرعة ما فاح نسيم مسراك ! ووجدنا ربيع يوسف من ريبك ؟ فحث المطي تزل غلتي بسقياك ، وتزح غلتي بلفياك . وقص علي يوم الوصول لنجعله عيداً مشرفاً ، ونتخذة موسماً ومعرفاً ورد الغلام ، أسرع من رجوع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبا في عقال وأسر .

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوي يا زياد بن عامر
أصائل قُرب أرتجي أن أنالها بلياك قد زحزح حرّ الهواجر

٣٤ - الخوارزمي

٩١٥ - ٩٩٣ م

٣٠٣ - ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي ، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم ، ثم فارقه وهو فتى السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق ، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء . ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاعتراب : فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته ، وربحت تجارته ، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى مُني في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته . فانخذل انخذالاً شديداً ، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته ، وخمدت شهرته ، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .

منزله في الأدب والكتابة :

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة ، وشهر بذلك حتى قيل : إنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال : إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول . فقال الوزير قل له : قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب فقال أبو بكر للحاجب : أرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال : هذا أبو بكر الخوارزمي .

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب ، عالماً بأشعار العرب وأخبارها ، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب . وهو في النثر من طبقة ابن العميد . وكثير

٣٤ - انظر ترجمته في : بتيمة الدهر : ١٩٤/٤ - ٢٤١ ، والأنساب : ٢٠٢/٨ - ٢٠٣ ، واللباب : ٢٧٣/٢ ، وبغية الوعاة : ١٢٥/١ ، ووفيات الأعيان : ٤٠٠/٤ - ٤٠٣ ، وشذرات الذهب : ١٠٥/٣ - ١٠٦ ، ومعجم الأدباء : ١٠١/١ ، والأعلام للزركلي : ١٨٣/٦ ، وسير أعلام النبلاء : ٥٢٦/١٦ .

من الناس يفضلهُ على الصاحب . ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق ، ولا يرجع إلى سليقة . أما شعره فبين الرديء والجيد .

مختار من كلامه :

من فصوله المختارة قوله : الرجال حصون بينها الإحسان ، ويهدمها الحرمان ، وتبلغ بثمرها البر واليسر ، ويمحقها الحفاء والكبر . وإنه لا مال إلا برجال ، ولا صلح إلا بعد قتال . والجبان مقتول بالخوف . قبل أن يُقتل بالسيف ، والشجاع حي وإن خاته العمر ، وحاضر وإن غيَّبه القبر ومن طلب المنيّة هربت منه كل الهرب ، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب . وقال :

أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه ، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه . وأكرم من النبت الزكي من زرعه ، وأكرم من الكريم من اصطنعه . لا صيد أعظم من إنسان ، ولا شبكة أضيّد من إنسان ، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته ، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته !

ومن أجود شعره قوله :

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى
دمعان في الأجفان يزدهمان
ما أنصفتني الحادثات ، رميتني
بمودعين وليس لي قلبان

وقوله :

قلت للعين حين شامت جمالاً
لا يغرّنك هذه الأوجه الغرّ (م)
في وجوه كواذب الإيمان
فيا ربّ حية في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال :

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم
من الكنى ومن الألقاب أبواباً؟
قل الدراهم في كفي خليفتنا
ما كان يرضى به للقصر بواباً
هذا فأنفق في الأقوام القاباً

وقال في الحكّم :

لا تصحب الكسلان في حالاته
كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة
والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة :

أست ترى السيف كيف انثلم
وركن الخلافة كيف انهدم؟
طوى الحسن بن بويه الردي
أبدرى الردي أي جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان
رفيع السنان سريع القلم
إذ تم شيء بدا نقصه
توقع زوالاً إذ قيل تم

٣٥ - بديع الزمان الهمذاني

٩٦٩ - ١٠٠٨ م

٣٥٨ - ٣٩٨ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها . وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية ، ولم يترك أدبياً في همذان إلا استنفذ ما عنده . ثم غادرها إلى صاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه . وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور . وفي سنة ٣٨٢ يمّم نيسابور فتجلت فيها عبقريته ، وذاعت بين الناس شهرته ، وأملى بها أربعمئة مقامة . ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي ، وكان أسنُّ منه وأشهر . وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات . وغلب هذا قوم وذاك آخرون . وساعد البديع شبابه ولسانه وحاجته إلى الظهور ، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء . وأجاب قرنه داعي ربه ، فخلأ له الجو ، وابتسم له الدهر ، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها ، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها ، وعاش بها رخيّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨ .

واختلف في موته فقيل مات مسموماً ، وقيل مات بالسكتة وعُجل بدفنه فأفاق في جدته ، وسُمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر .

أخلاقه ومواهبه :

كان البديع مقبول الصورة ، خفيف الروح ، ناصع الظرف ، ذكي القلب ، قوي الحافظة حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً . وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها . وربما ابتداء بآخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متسق . وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع .

٣٥ - انظر ترجمته في : الوافي بالوفيات : ٣٥٥/٦ - ٣٥٨ ، وأعيان الشيعة : ٣٠٦/٨ - ٣٥٥ ، وبتيمة الدهر : ٢٥٦/٤ - ٣٥١ ، ومعجم الأدباء : ١٦١/٢ - ٢٠٢ ، ومعاهد : ١١٣/٣ ، والنويري : ١١٠/٣ ، والنجوم الزاهرة : ٢١٨/٤ ، ٢١٩ ، والكامل في التاريخ : ٢٠٩/٩ ، والأعلام للزركلي : ١١٦/١ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ٤٧١/٣ .

نثره وشعره :

نثر البديع يستهوي القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنشور، وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيّل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحق فارس الطريقة العميدية وابن بحدتها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته :

المقامات حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو ملحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكي بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكذبة وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام. ولم يعثروا منها إلا ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوباً طلي شهي، إلا أن قصر حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبيديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه :

قال من رسالة: واللّه لو لا يدٌ تحت الحجر. وكبدٌ تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حَبَّبَ إليّ العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عند هذا المُقام. ولكن صبراً جميلاً واللّه المستعان.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لثيم فضل صنيئك. فخفض عليك يرحمك الله! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحد من الناس كثير. إن الله خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب ففصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، وللحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلم تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرض بشاطه ولا الجبال سقاطه، ولا السماء فسقاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه...؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والمِقة
إياك واحذر أن تكو ن من الثقات على ثقة

صدق والله وأجاد. فللثقات، خيانة في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دخلته، الرديء نحلته، السيء وصلته، الخبيث جملته. وقد قاسمته في أزرِك، وجعلته موضع شرك. فأرني موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. ما أبعد غلطك عن غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيت تولباً. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في الرمس! أظاھرُه غرك، أم باطنه شرك؟

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضبي جفونك ياريا ض فقد فتنت الحور غمزا
واقني حياءك ياريا ح فقد كدرت الغصن هزا
وارفق بجفونك يا غما م فقد خدشت الورد وخزا
خلع الربيع على الربى وربوعها خزا ويزا
ومطارفاً قد نقشت فيها يد الأمطار طرزا

ومنها:

وكان أمطار الربيع إلى ندى كفيك تعزى
يا أيها الملك الذي بعساكر الآمال يُغزى
خلقت يداك على العدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الأمية ر لنا من الأحداث حرزا

٣٦ - الحريري

١٠٥٤ - ١١٢٢ م

٤٤٦ - ٥١٦ هـ

نشأته وحياته:

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال لها

٣٦ - انظر ترجمته في: معاهد التنصيص: ٢٧٠/٣ - ٢٧٧، وكشف الظنون: ٥٠٧ - ٧٨٩، ومرآت الجنان: ٢١٣/٣ - ٢٢١، وتلخيص ابن مکتوم: ص ١٩٤، ومختصر دول الإسلام: ٣٠/٢، والفلاكة

المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمى منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه:

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بنتف لحيته عند التفكير. فعاضه الله من ذلك برائع أدبه، ورقيق ملحه، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملي عليه قال له اكتب:
ما أنت أول سار غره قمر
ورائد أعجبت خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إني رجل
مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني
فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره:

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع.. وهو من ساقه أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع، والبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه علىيلة ضئيلة كالعروس المسلوكة جمّلوها بالأصباغ وأثقلوها بالفلافل والحلى. وشعره كثره في الكلف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنایا المقامات وجمع في ديوان خاص. مؤلفاته:

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحّة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره. مقاماته:

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السروجي على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع، جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي مالا غاية بعده. فهي ديوان مُمتع

= والمفلوكون: ص ١١٨ - ١١٩، وخزانة البغدادی: ١١٧/٣، ومطالع البدور: ٩/١، والأعلام للزركلي: ١٧٨/٥.

للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٠، وباللاتينية في هيسبرج سنة ١٨٣٢، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٩٣، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة ١٨٢٢.

عيوبها:

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدتها مغزاها، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألفه الفرنج واليونان قديماً، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها:

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، ورث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كل كلم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأنشأ خمسين.

مختار من كلامه:

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعلياؤه محسودة، وأعداؤه محصودة، دعاء من يقترب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكر من أطلق من أسره، وأذيق طعم اليسر بعد عسره. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، لقدم اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أنى ينهض المُقعد؟ ومن له بأن يصعد فيسعد؟

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تنزّر من تحب في كل شهر غير يوم ولا تزده عليه

فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
وقال أيضاً:

لا تقعدن على ضررٍ ومسغبة
وانظر بعينيك هل أرضٌ معطلةٌ
فعدّ عما تشير الأغبياء به
وارحل ركابك عن ربيعٍ ظمئت به
واستنزل الرئي من درّ السحاب فإن
لكي يقال عزيزُ النفس مصطبر
من النبات كأرضٍ حفها الشجر؟
فأيُّ فضلٍ لعود ماله ثمر؟
إلى الجنب الذي يهمل به المطر
بلت يداك به فليهنك الظفر

٣٧ - القاضي الفاضل

١١٣٥ - ١٢٠٠ م

٥٢٩ - ٦٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو علي عبد الرحيم البيسانى بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين عليّ قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفي سنة ٦٩٥ بالقاهرة.

منزله في الكتابة:

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبل طلاء خداعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتاب، وورطوا أنفسهم فيما لا غناء

٣٧ - انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة: ١٥٦/٦، وخطط مبارك: ١٢/٦، وكتاب: الروضتين: ٢٤١/٢، والكتبخانة: ٢٩٠/٤، وفريدة القصر: قسم شعراء مصر ٣٥/١، وكشف الظنون: ١٠١٦/٢، والنعمي: ٩٠/١، والنويري: ١/٨ - ٥١، والأعلام للزركلي: ٣٤٦/٣.

فيه ولا رجع منه . وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، رائئاً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية .

نموذج من كلامه :

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عيذاب في توليته خطابة الكرك وهي :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول صالح وأثبتته، وأخذ عدوه قاتلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته .

خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما بنا به المنزل عنها، وقل عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبقت الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، سارياً في ليلة أمل كلها نهاراً فلا يسأل صباحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب، وتوسل بالملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام .

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الإجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتاب؛ فإن أولئك بالخلفاء الصق، ونفوسهم بالتلف والمدنية أعلق. وهم المنادمون على الشراب، والمفاكهون في السمر ضاق مضطربهم في السعي فأتسع متقلبهم في الخيال، وغلت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر ففرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة. ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً، ومن الحضارة والطبيعة ناصرأ، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة، فجالوا في الشعر جولة لم تتوافر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجربة، والأخبية المطبئة إلى الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة. على يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير في أسلوبه، فهجر الكلمات الغريبة، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والاستكثار منه، وترك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والخمر والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولدان جنسيتين، ورضاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم. ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم وإثارة لشعرهم؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون، والوعظ، والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرى، كالمتطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد، والموشح والزجل، والدوبيت والمواليا. وكذلك في القافية كالمُسَمِّط والمُزْدَوِّج.

ولما انفرط عقد الخلافة، وتعددت حواضر الدولة، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وجمي؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بني بويه وآل حمدان أكفاً سُمُحَة، وصدوراً رُحْبَة، وربوعاً خُصْبَة، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ولنظرة عَجَلَى في فهرس اليتيمة للثعالبي تكفيك لتعلم أثر ذلك الشعب السياسي في نهضة الشعر، إذ كان الأمراء يتقبلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعزيد الأدباء والشعر والعلم كما رأيت لا يزهران إلا في ظل ملك أو أمير.

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ، والإصابة للغرض، والافتنان في المعنى، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق، وفقد تأثيره في النفوس، لذهاب المعضدين له من بني بويه، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والمحن، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية، وعَيَّت القرائح عن التوليد والابتداع، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مُهلِهَة النسيج مُنَمَّقة الوشي، وأخذوا يتعلقون بالبديع، ويُغَلون في المجاز والكناية، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك والأمراء. ولا سيما المتأخرون منهم، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا: «أعذب الشعر أكذبه». ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كمال التثرف فيه سواء بسواء.

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية؛ فهو في الجاهلية أنغام صبي، وحماسة فتوة وعواطف أثرية، وفي الإسلام أناشيد جهاد، وثوران عصبية، وأطماع حياة. ثم استبحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية، فظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما عبث شباب، وأغاني طرب، ومظاهر ترف. ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في أوساطها فبدا في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة، وخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلها في علمه.

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة :

قال أبو فراس الحمداني :

ولما ثار سيف الدين ثرنا
أسنته إذا لاقى طمعانا
دعانا والأسنة مُشرّعاتُ
صنائع فاق صانعها ففاقت
وكنا كالسهم إذا أصابت
فلما اشتدت الهيجاء كنا
وأمنع جانباً وأعزّ جاراً
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً

كما هيجت آساداً غضابا
صوارمه إذا لاقى ضرابا
فكنا عند دعوته الجوابا
وغرس طاب غارسه فطابا
مراميها فراميها أصابا
أشدّ مخالباً وأخذ نابا
وأوفى ذمة وأقلّ عابا
إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وقال أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزاً أو متّ وأنت كريمٌ
فرؤوس الرماح أذهب للغيـ
لا كما قد حيت غير حميدٍ
فاطلب العز في لظى ودع الذل (م)

بين طعن القنا وخفق البنود
ظ وأشفي لغل صدر الحقود
وإذا متّ متّ غير فقيـ
ولو كان في جنان الخلود

المدح :

قال أبو تمام :

بمهديّ بن أصرم عاد عُودي
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً
ونعمة مُغتفٍ يرجوه أحلى
جعلت الجود لآل المساعي
ولم يحفظ مضاعّ المجد شيء
ولو صورت نفسك لم تزدها

إلى إيراقيه وامتد باعي
ولولا السعي لم تكن المساعي
على أذنيه من نغم السماع
وهل شمس تكون بلا شعاع؟
من الأشياء كالمال المضاع
على ما فيك من كرم الطباع

وقال المتنبي :

قور بلوغ الغلام عندهم
كأنما يولد الندى معهم
إذا تولوا عداوة كشفوا

طعن نحور الكُماة لا الحلم
لا صغر عانز ولا هرم
وإن تولوا صنيعة كتموا

تظن من كثرة اعتذارهم
إن يرقوا فالحتوف حاضرة
تشرق أعراضهم وأوجهم
أعيدكم من صروف دهر كمو

وقال ابن الرومي :

كان مواهبه في المحو
فلو كان غيثاً لعم البلاد
ولو كان يعطى على قدره

أنهم أنعموا وما علموا
أونطقوا فالصواب والحكم
كأنها في نفوسهم شيم
فإنه في الكرام متهم

ل آراؤه عند ضيق الحيل
ولو كان سيفاً لكان الأجل
لأغنى النفوس وأفنى الأمل

الثناء :

قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :
المأ على معن وقولاً لقبره
فيا قبر معن أنت أول حفرة
ويا قبر معن كيف وارىت جوده
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
فتى عيش في معروفه بعد موته
ولما مضى معن مضى الجود وانقضى

سقتك الغواصي مربعاً ثم مربعاً
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
وقد كان منه البر والبحر مترعاً !
ولو كان حياً ضيقت حتى تصدعا !
كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً
وأصبح عزين المكارم أجدعا

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثي زوجته :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه
رأى كل أم وابنها غير أمه
وبات وحيداً في الفراش تجنه
فلا تلحياني إن بكيت فإنما
فهني عزمت الصبر عنها لأنني
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبه
فلم أر كالأقدار كيف تصييني
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي

بُعِد الكرى عيناه تتسكبان ؟
بيتان تحت الليل يتتجيان
بلا بل قلب دائم الخفقان
أداوي بهذا الدمع ما تريان
جليد ، فمن بالصبر لابن ثمان ؟
ولا يأتسي بالناس في الحدثنان
ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
فبش إذن ما في غد تعداني

وقال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا

فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

الهجاء :

قال مسلم بن الوليد :

أما الهجاء فمدح عرضك دونه
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه
وقال أبو تمام :

كم نعمة لله كانت عنده
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت

وقال ابن الرومي :

يقتر عيسى على نفسه
فلو يستطيع لتقتيره

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي :

أكلما أغتال عبدُ السوء سيِّدة
صار الخصيُّ إمام الأبقين بها
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
العبد ليس لحر صالح باخ
لا تشتري العبد إلا والعصا معه
من علم الأسود المخصيُّ مكرمة؟
أم أذنه في يد النخاس داميةٌ
وذاك أن الفحول البيض عاجزة

وقال ابن لنكك :

وعصبية لما توسطهم
كأنهم من سوء أفهامهم
يضحك إبليسُ سروراً بهم

الوصف :

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى :

صنت نفسي عما يذس نفسي
وتماسكت حين زعزعتي الدهر
بلغ من صباية العيش عندي
وكان الزمان أصبح محمور
وترفعت عن جذا كل جيس
ر التماساً منه لتعسي ونكسي
طففتها الأيام تطفيف نجس
لا هواء مع الأخس الأخس

واشترائي العراق خُطة غُبنٍ
ولقد رابني نَبُو ابن عمي
وإذا ما جُفيت كنت حَرِيًّا
حضرت رخلي الهموم فوجه
أَتسلى عن الحظوظ وآسى
ذُكُرتنيهم الخطوب التوالي
وهم خافضون في ظل عال
مُغلق بابهُ على جبل القيد
جلَل لم تكن كأطلال سُغدى
ومساع لولا المُحَاباة مني
نقل الدهرُ عهدهن عن الجد
فكان الجرماز من عدم الآن
لو تراه علمت أن الليالي
وهو ينيك عن عجائب قوم
وإذا ما رأيت صورة أنطا
والمنايا موائل وأنو شر
وعراك الرّجال بين يديه
من مشيح يهوي بعامل رمح
تصف العين أنهم جدُّ أحياء
يغتلي فيهم ارتيابي حتى
قد سقاني ولم يُصَرِّد أبو الغو
من مُدام تقولها هي نجم
وتراها إذا أجدت سِرورا
أفرغت في الزجاج كل قلب
وتوهمت أن كسرى أبرو
حُلُم مطبقي على الشك عيني
وكان الإيوان من عجب الصند
يتظني من الكأبة إن يب
مزعجا بالفراق عن أنس ألف
عكست حظه الليالي وبات ال
فهو يُبدي تجلداً وعليه

بعد بيعي للشام بيعة وكس
بعد لين من جانبيه وأنس
أن أرى غير مُصبح حيث أمسي
ت إلى أبيض المدائن غنسي
لمحل من آل ساسان دَرس
ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي
مشرف يُخسرُ العيون ويخشي
ق إلى دارتي خِلاط ومكس
في قفار من البسابس مُلس
لم تَطقها مَسعاة عنس وعبس
لذة حتى غدون أنضاء لُبس
س وإخلاقه بَنِيَّة رَمس
جعلت فيه مأتماً بعد عرس
لا يُشاب البيان فيهم بلبس
كَيَّة ارتعت بين روم وفرس
وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في خفوت منهم وإغماض جرس
ومليح من السنان بترس
لهم بينهم إشارة خرس
تتقراهم يدي بلمس
ث علي العسكرين شربة خلّس
أضوا الليل أو مُجاجة شمس
وارتياحاً للشارب المتحسي
فهو محبوبَةٌ إلى كل نفس
ز معاطي والبلهَبَذ أنسي
أم أمان غيرن ظني وحدسي
عة جَوَّب في جنب أرعن جَلْس
د لعيني مُصبح أو مُمسي
عز أو مُرهقاً بتطليق عرس
مُشتري فيه وهو كوكب نحس
كلُّكُل من كلاكل الدهر مُرسي

لم يَعْبَهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيدِ
مُشْمَخِرٌ تَعْلُولُهُ شُرُفَاتُ
لَابَسَاتٍ مِنَ الْبِيَاضِ فَمَاتُ
لَيْسَ يُذْرَى أَصْنَعَ إِنْسَ لَجِنِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ
فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقُو
وَكَأَنَّ الْوَفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ الْمَقَاصِدِ
وَكَأَنَّ الْإِلْقَاءَ أَوَّلَ مَنْ أَمَ
عُمِّرَتْ لِلْسُرُورِ دَهْرًا فَصَارَتْ
فَلَهَا أَنْ أَعْيِنَهَا بِدُمُوعِ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيْدُوا مَلَكْنَا وَشَدُّوا قَوَاهُ
وَأَعَانُوا عَلَى كِتَابِ أَرِيَا
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكَلَفِ بِالْأَشْ

بَاجٍ وَاسْتُلَّ مِنْ سَتُورِ الدِّمَقْصِ
رَفَعَتْ فِي رَعُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ
صَرُّ مِنْهَا إِلَّا غِلَاطِلُ بُرْسِ
سَكْنُوهُ أَمْ صَنَعَ جَنَ لِإِنْسِ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ بِنَكْسِ
مَ إِذَا مَا بَلَّغْتَ آخِرَ حَسْبِي
مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُنْسِ
رَ يُرْجَعْنَ بَيْنَ حَوِ وَلُعْسِ
سَ وَوَشَكُ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ
لِلتَّعْزِي رِبَاعِهِمُ وَالتَّأْسِي
مَوْقِفَاتٍ عَلَى الضَّبَابَةِ حُبْسِ
بِاقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَا الْجَنَسِ جَنَسِي
غَرَسُوا مِنْ زَكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ
بِكُمَاةٍ تَحْتَ السَّنُورِ حُمْسِ
طَ بَطْعِينَ عَلَى النُّحُورِ وَدَعْسِ
رَافِ طَرَأَ مِنْ كُلِّ سِنَخٍ وَأَسِ

وَقَالَتْ إِحْدَى شَوَاعِرِ الْأَنْدَلُسِ تَصِفُ وَادِيَّ أَشْ:

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمَادِ وَادِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمًا زَلَالَا
تَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةِ الْعِذَارَى
يَصْدُ الشَّمْسُ أَنَّى وَاجْهَتْنَا

سَقَاهُ مَضَاعِفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَنَوُ الْمَرْضُوعَاتِ عَلَى الْفُطِيمِ
أَلَذُّ مِنَ الْمَدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
فَتَلَمَسَ جَانِبَ الْعَقْدِ الْعَظِيمِ
فِيحْجِبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ

الحكم والأمثال:

قال بشار بن برد:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مَعَاتِبًا
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مَرَارًا عَلَى الْقَذَى

صَدِيقُكَ لَمْ تَلَقِ الَّذِي لَا تَعَاتِبُهُ
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمَجَانِبُهُ
ظَمِئْتُ، وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِبُهُ

وقال مسلم بن الوليد:

حَسْبِي بِمَا أَبَدَتْ الْأَيَّامُ تَجْرِبَةً
دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَقَهَا

سَعَى عَلَيَّ بِكَأْسِيهَا الْجَدِيدَانِ
مَا اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

ما كنت أدخر الشكوى لحادثة
وقال أبو العتاهية :

الصمت أجمل بالفتى
لا خير في حشو الكلا
كل امرئ في نفسه

وقال أبو تمام :

من لي بإنسان إذا أغضبتَه
وإذا طربت إلى المدام شربت من
وتراه يصغي للحديث بقلبه

وقال البحتري :

وترت القوم ثم ظننت فيهم
فما خرق السفيه وإن تعدى
متى أخرجت ذا كرم تخطى

وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد
فإن الداء أكثر ما تراه
وما اللجج الملاح بمزويات

وقال المتنبي :

إننا لفي زمن ترك القبيح به
لو لا المشقة ساد الناس كلهم
وإنما يبلغ الإنسان طاقته
ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته

الاعتذار والاستعطاف :

قال علي بن الجهم يعتذر للمتوكل :
عفا الله عنك ألا حرمة
لئن جل ذنب ولم أعتمد
أم تر عبداً عدا طوره
ومفسد أمر تلافيته
أقلى أقالك من لم يزل

حتى ابتلى الدهر أسراري فأشكاني

من منطق في غير حينه
م إذ اهتديت إلى عيونه
أعلى وأشرف من قرينه

وجهلت كان الحلم رد جوابه
أخلاقه وسكرت من آدابه
وبسمعه ولعله أدرى به!

ظنوناً لست فيها بالحكيم
بأبلغ فيك من حقد الحلیم
إليك ببعض أخلاق اللثیم

فلا تستكثرن من الصحاب
يحول من الطعام أو الشراب
وتلقى الرئي في النطف العذاب

من أكثر الناس إحسان وإجمال
الجود يفقر والأقدام قتال
ما كل ماشية بالرحل شمال
ماقاته، وفضول العيش أشغال

تجود بعفوك أن أبعدا
لأنت أجل وأعلى يدا
ومولى عفا ورشيداً هدى؟
فعداد فأصلح ما أفسدا
يقيك ويصرف عنك الردى

وقال البحتري :

فَدَيْنَاكَ مِنْ أَيِّ خُطْبٍ غَرَى
وإن كان رأيك قد خال في
أكْذُبُ نفسي بأن قد سخطت
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
أيصبح وِرْدِي في ساحتيك
وما كان سخطك إلا الفراق
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا
سَأَصْبِرُ حَتَّى أَلْقِي رِضَا
أَرَأَيْتَ رَأْيَكَ حَتَّى يَصْحُ

وقال سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً، فإن زعمت بأن
قد تطرف الكف عين صاحبها

ونائية أوشكت أن تنوبا
وأوليتني بعد بشر قطوبا
وما كنت أعهد ظني كذوبا
أذم الزمان وأشكر الخطوبا
طرقاً ومرعاًي مَحْلاً جدياً!
أفاض الدموع وأشجى القلوبا
نَ خالجنِي الشكَّ في أن أتوبا
كَ إِمَّا بَعِيداً وَإِمَّا قَرِيباً
وأنظر عطفك حَتَّى يَثُوبا

أتيت ذنباً، فغير مُعتمد
فلا يرى قطعها من الرُّشد

ومن قصيدة للمتنبى يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفر بهم :
طَلَبْتُهُمْ عَلَى الْأَمْوَاءِ حَتَّى
يَهْزَ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ
وكيف يتم بأسك في أناس
تَرْفُقُ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمُ
وإنهم عبيدك حيث كانوا
وعينُ المخطئين هم وليسوا
وما جهلت أياديكَ الْبَوَادِي
وكم ذنب مُوَلَّدُهُ دَلَالُ
وَجُرْمُ جَرَّةٍ سَفْهَاءُ قَوْمُ

تَخُوفُ أَنْ تَفْتَشَهُ السَّحَابُ
كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ
تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ الْمَصَابُ؟
فإن الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ
إِذَا تَدْعُو لِحَادِثَةِ أَجَابُوا
بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطُّوا فَتَابُوا
ولكن ربما خفي الصَّوَابُ
وكم بَعْدَ مُوَلَّدِهِ اقْتِرَابُ
وحل بغير جارمه الْعِقَابُ

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وحمي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة مُلك، وناصر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصريع غانية. وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالي الذين أطاعوا العرب كرهاً، واعتقدوا الإسلام رياءً، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعقريات الماثورة، كمطيع بن إلياس، وحماد عجرد، وحسين بن الضحاك، وشار بن برد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان بن عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان بن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي بن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعسكوك.

شعراء بغداد

٣٨ - بشار بن برد

٧١٤ - ٧٨٤ م

٩٥ - ١٦٧ هـ

نشأته وحياته:

هو بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرعث لأنه كان في

٣٨ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٤٧، ٤٨، والشعر والشعراء: ص ٤٧٦ - ٤٧٩، وطبقات الشعراء: ص ٢ - ٦، (طبعة ثانية) ص ٢١ - ٣١، والأغاني: ٣/ ١٣٥ - ٢٥٠، وزهر الآداب،

أذنيه رُعة، «والرعة القرط». أصل أبيه من فرس طخارستان من سبي الملهب بن أبي صفرة، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم من الشعراء. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لو لا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوناً للعذارى وغيره على المخدرات. قال مالك بن دينار: «ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد»، ودخل فريق من الغير على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: «بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب» وأمر به، فلما جاء قال له: «والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتين على روحك»، فكان بشار بعد ذلك إذا أراد الغزل ذكره أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقع بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سعى به ثانية إلى الخليفة ورُمي عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أمية هبوا أطال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة ١٦٧، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه:

ولد بشار أكمةً فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كان مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

وكان ضخماً الجثة، مفرط الطول، مجدور الوجه، جاحظ الحديقين، قد تغشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عَمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لِمَ يهابك

للحصري، انظر فهرسه، والموشح: ص ٢٤٦ - ٢٥٠ وسط اللآليء: ص ١٩٦، ١٩٧، ونكت الهميان، ص ١٢٥ - ١٣٠ وخزانة الأدب: ٩٦/١ - ٩٧، والأعلام، للزركلي ٥٢/٢، ومعجم المؤلفين: ٤٤/٣ - ٤٥.

الناس مع قبح صورتك فأجابها: ليس من حسنه يُهاب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له: يا أبا معاذ، من القائل: إن في برديّ جسماً ناحلاً لو توكّات عليه لآتهدم.

قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حُلتي جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا
قال: أنا، قال حملك على هذا الكذب؟ واللّه إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك!

وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحسن، بذّيء اللسان، كثير المجون، مغموز الدين، يؤمن بالرجعة ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم ينشد!

شعره:

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاء وقال هجوت جريراً فاستصغرنني وأعرض عني، ولورد علي لكنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواة الشعر ونقده متفقون على أنه زعيم طبقة السولدين، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضرة، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامريء القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتيريز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومثور ومزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والإختراع المتفنين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه».

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنن بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عبدة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائفة وأشعار سائرة.

عيوب شعره:

لا يسن لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم

يبق من اثني عشر ألف قصيد إلا قطع مختارة منتشرة في الكتب وكل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بالفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
وقوله:

إن سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالاً تقتضيه، وعن مثل الثاني بأنه قاله في صباد.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهدني في حب عبدة مغشّر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما آختر وأرتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
وقوله:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
وقوله:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف الم
نفسى يا عبد عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لآنهذم
ومن أبياته السائرة قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك، فإن الحب أقصاني
وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عيني ك وأخشي مصارع العشاق
وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر:

طبع علي ما في غير مخير هواي، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، أعطي ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا

ومن قوله في الوصف والحماسة:
إذا الملك الجبار صغر خدّه
وأزغن يغشى الشمس لون حديدّه
تغص به الأرض الفضاء إذا غدا
ركبنا له جهراً بكل مثقف
كان مثار النقع فوق رؤوسنا
مشينا إليه بالسيوف نعائبه
وتحبس أبصار الكماة كتائبه
تزاجم أركان الجبال مناكبه
وأبيض تستسقي الدماء مضاربه
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

٣٩ - أبو العتاهية

٧٤٨ - ٨٢٦ م

١٣٠ - ٢١١ هـ

نشأته وحياته:

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة علي صناعة أهله، وكانوا باعة جرار. فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلاً في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه وربما حدث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه، حتى إنه كان يقول عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت».

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاريه ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخرف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه خرفاً، ثم ما لبث أن صنعه درأ تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظي لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عتبة، أكثر فيها الغزل حتى هم المهدي أن

٣٩ - انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٠٥ - ١٠٨، وطبعة ثانية ص ٢٢٨ - ٢٣٤، ومروج الذهب: ٨٢/٧ - ٨٣، والأغاني: ١/٤ - ١١٢، ووفيات الأعيان: ٨٩/١ - ٩٢، وتاريخ بغداد: ٢٥٠/٦ - ٢٦٠، ولسان الميزان: ٤٢٦/١ - ٤٢٩، وأعيان الشيعة للعالمى ٨٠/١٢ - ١١٠.

يهيها إياه لو لا ضراعتها وكرامتها له . فآلهاء عن ذكرها بالمال الكثير ، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائحه له . وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليذكر بذلك . فلما توفي المهدي واستخلف الهادي ، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة ، وأخذ في التزهّد والتخشّن ، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفرق ، فكان يأخذ بكل وقتاً ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه . ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتّة . فأرغمه الرشيد عليه فأبى ، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر . وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر ، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه . واتصلت شهرته بالآفاق وتغنّى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره ، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ .

صفته وأخلاقه :

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جفدة وهيئة حسنة . وكان لبق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لا يضطربه في الآراء وتلونه في النحل ، مقترأ على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله . وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد . وعلى الجملة فالدارس للحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته .

شعره :

كان هذا الشاعر غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتتان قليل التكلف ، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول . وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال . ولقد قال الأصمعي : «إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والنوى ، وذلك حق ؛ لأنه كان يرسل الشعر ارسالاً على البديهة من غير تعمل ولا تنقيح . على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس ، وهذا كان يفضل على نفسه ويمتاز أبو العتاهية بقلّة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال . وحبته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء . وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فافتقوا أثره فيها . ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد ، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو في الحكيم وضرب الأمثال . وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل . أما غزله فخيره ما قال في عتبة وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد . ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن ، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هجر :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالاً

وما تصنع بالسيف
ولو مَدَّ إلى أذني
أرى قومك أبطالاً

درر من قلائده:

من قوله في الغزل:

عيني على عتبة مُنْهَلَّة
كأنها من حسنهما درة
كان في فيها وفي طرفها
بسطت كفي نحوكم سائلاً
إن لم تنيلوه فقولوا له
لم يُبق مني حبها ما خلا
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى

وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

ما للجديدين لا يَبْلَى اختلافهما
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته
كان كل نعيم أنت ذائقه
لا تَلْعَبَنَّ بك الدنيا وأنت ترى
ما حيلة الموت إلا كل صالحة

ومن قوله للرشيده وقد سجنه لاضرابه عن الغزل:

تذكر أمين الله حقي وحرمتي
ليالي تدني منك بالقرب مجلسي
فمن لي بالعين التي كنت مرة

ومن قوله يعظ الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

وقال:

لدوا للموت وابنوا للخراب
أيا موت لم أر منك بدا
كأنك قد هجمت على مشيبي

إذ لم تك قتالاً؟
في كفيه لما نالا
وقد أصبحت بطلا

بدمعها المنسكب السائل
أخرجها اليم إلى الساحل
سواحراً أقبلن من بابل
ماذا تردون على السائل؟
قولاً جميلاً بدل النائل
حُشاشة في بدن ناجل
من شدة الوجد على القاتل!

وكل غصن جديد فيهما بالي؟
كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي!
من لذّة العيش يحكي لمعة الال
ما شئت من عبر فيها وأمثال
أولاً، فما حيلة فيه لمحتال

الغزل:

وما كنت توليني لعلك تذكر
ووجهك من ماء البشاشة يقطر
إلي بها في سالف الدهر تنظر

ولو تسترت بالأبواب والحرس
لكل مدرع منا ومترس
إن السفينة لا تجري على اليبس

فكلكم يصير إلى ذهاب
أتيت وما تحيف وما تحابي
كما هجم المشيب على الشباب

٤٠ - أبو نواس

٧٦٢ - ٨١٥ م

١٤٥ - ١٩٩ هـ

نشأته وحياته:

هو الحسن بن هانيء بن عبد الأول الحكمي . يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن ، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له : أنت من أشرف اليمن فتكن بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبدأ أسماءهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال : ذو جدن وذو يزن وذو نواس فأختار ذاتوس فكناه بها ، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي ولدت بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها . ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها . كان أبوه من جند مزوان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله ، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده . ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغولاً بالأشعار والأخبار ، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء ، ويحضر حوار الشعراء ، ويترنم بالنظم . وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه . فاتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن . فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها ، وستقول الشعر فأصبحني أخرجك ، فقال له ومن أنت؟ قال : أنا والبة بن الحباب . فقال له . نعم أنا والله في طلبك ، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لأخذ عنك . فسار أبو نواس معه ، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً . وتأدى خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه وأتصل به ونفق عنده . وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب فيحيونه وهو متكئ ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم . وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر ، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين . ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه ، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ببغداد .

صفاته وأخلاقه:

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة فصيح

٤٠ - انظر ترجمته في : الشعر والشعراء : ص ٥٠١ - ٥٢٥ وتاريخ الطبري : ٧٠٤/٣ ، ٩٥٨ - ٩٦٧ ، ٩٧٢ - ٩٧٣ ، وأخبار الشعراء : ص ٣٣ ، ٣٩ وأشعار أولاد الخلفاء : ص ١٤٤ ، والموشح : ص ٢٦٣ - ٢٨٩ وشعراء الشيعة : ص ١١٣ ، والبداية والنهاية : ٢٢٧/١٠ - ٢٣٥ ، وتاريخ بغداد : =

اللسان، مدمناً للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم، مستخفاً بأمور الدين. وله مع الشعراء مناقضات كثيرة. ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مفسوس عليه؛ لأن جل أشعاره في ذكر الله ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه، فالحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها.

منزله في الشعر:

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، إلا أنه أمتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقته في تصوير خليقته وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً «لو سمعه الحسنان لهاجراً إليها وعكفا عليها» وأقل شعره مدائح، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: «بشار وأبو نواس معناهما واحد والعدة اثنان: بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن».

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح، يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده وهو على رفته ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتاره في الفجور، وأسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب.

درر من قلائده:

قال في الخمر:

ما زلت أستلُّ رُوح الدُّنِّ في لَطْفٍ وأستقي دَمَه من جوف مجروح
حتى انشيت ولي روحان في جسدي والدُّنُّ منطرح جسماً بلا روح

وقال أيضاً:

مُعْتَقَةٌ صَاغَ المَزَاجَ لِرَأْسِهَا أَكَالِيلَ دِرٍّ مَا لَمَنْظُومِهَا سَلَكُ

= ٤٣٦/٧ - ٤٤٩، ووفيات الأعيان: ١/١٦٨ - ١٧٢، وأعيان الشيعة: ٣/٢٤ - ٢٤٩، والأعلام، للزركلي ٢٢٥/٢ ومعجم المؤلفين: ٣/٣٠٠ - ٣٠١.

جرت حركات الدهر فوق سكونها
وقد خفيت من لطفها فكأنها
قال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصهباء باكرها
فكل شيء رآه ظنه قدحاً
وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا
مساحب من جر الزقاق على الثرى
حبست بها صخي فجددت عهدهم
تدار علينا الراح في عسجدية
قراراتها كسرى، وفي جنباتها
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وقال في عاقبة الجهالة:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه
وقال في مدح الخصيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خف محملي
أما دون مصر للغنى متطلب
فقلت لها وأستعجلتها بواد
دعيني أكثر حاسديك برحلة
فتى يشتري حسن الشاء بماله
فما جازه جود ولا حل دونه
وقال في وصف الدنيا:

ألا كل حي هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا لييب تكشف
ومن أبياته التي يتمثل بها:
قوله:

لا أذود الطير عن شجر
وقوله:

ليس على الله بمستنكر

فذابت كدوب التبر أخلصه السبك
بقايا يقين كاد يذهبها الشك

في فتية بأصطباح الراح حذاق
وكل شخص رآه ظنه الساقى

بها أثر منهم جديد ودارس
وأضغاث ريحان جني وبابس
واني على أمثال تلك لحابس
حبها بألوان التصاوير فارس
مها تدريها بالقسي الفوارس
وللماء ما دارت عليه القلائس

وأسمت سرح اللهو حيث أسلمو
فلذا غصارة كل ذاك أثم

عزيز علينا أن نراك تسير
بلى إن أسباب الغنى لكثير
جرت فجرى في إثرهن عبير
إلى بلد فيه الخصيب أمير
ويعلم أن الدائرات تدور
ولكن يسير الجود حيث يسير

وذو نسب في الهالكين عريق
له من عدو في ثياب صديق

قد بلوت المر من ثمره

أن يجمع العالم في واحد

وقوله :
صار جدا ما مزحت به ربُّ جد ساقه اللعب

٤١ - ابن الرومي

٨٣٦ - ٨٩٧ م

٢٢١ - ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته :

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد الله بن علي رومي الأصل . ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ . ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة . وقد حمل الناس بلسانه على بره وتكرمه ، إما رغبة وإما رهبة .

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره . وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب . وكان شديد الطيرة يغلو فيها ويحتج لها ويقول : إن النبي ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وأنه مر برجل وهو يزحل ناقة له ويقول : (يا ملعونة) ، فقال لا يصحبنا ملعون . وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب . وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع ، وهي في بعضهم أظهر ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم؟ قال علي بن المسيب : دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهدى إلي عدة من الجواري القيان ؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة . فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره ، وأقام باقي يومه لا يخرج . فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح ، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القيتين سبب ذلك وكتب إلي يقول :

أيها المُتَحَفِّي بحول وعُور	أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً	ساءني فيك أيها الخُلْصَان
فتحك المهرجان بالحوول والعو	ر أَرَانَا مَا أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابتك الحر	ة مصبوغاً بها الأكفان
وتجافى مؤملاً لي جليل	لج فيه الجفاء والهجران

٤١ - انظر ترجمته في : أخبار أبي تمام : ص ٢٥ ، ٦٧ ، والأغاني : ٥٩/١٠ ، طبعة ثانية ٧٢/٢٠ ،
والموشح : ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، وسط اللآلئ : ص ١٦٠ - ١٦١ ، والمتنظم : ١٦٥/٥ - ١٦٨ ،
وإرشاد الأريب : ٢٢٤/١ - ٢٢٧ ، ومعاهد التنصيص : ١٠٨/١ - ١١٨ .

قف إذا طيرة تلقتك وأنظر وأستمع ثم ما يقول الزمان
خبر الله أن مشامة نت لقوم وخبر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحة اليوم كلمة سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديد حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد لا يفتأ خذراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكلة وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم على والدي. فقال ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نبطويه النحوي وهو يجود بنفسه:

غلط الطبيب علي غلطة مُورِد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يَلْحُون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره:

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من قوله:

كم عائب كل شيء وكل ما فيه عيب
قد تحسّن الروم شعراً ما أحسنته العُريبُ
يا منكر المجد فيهم أليس منهم صهيب؟

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فلمانه جمع إلى تعمق الآريين في الفكر، تفوق الساميين في الخيال؛ وضم إلى دقة الروم في التصور، قوة العرب في التصوير. فأمتاز بتوليد المعنى وأستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره. ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط. وقلما رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة. ولابن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء، لما كان يُعنى به من جفاء الأصدقاء، وإعراض الكبراء، لحدة طبعه وضيق خلقه. وهو في منزلة أبي تمام والبحري، وربما فضلهما أحياناً؛ لأنه قال في كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول).

على أنه يسف أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته. ولو أنه نشأ نشأة عبد الله بن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والملح؛ فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال

له بعض معاصريه يلومه: لِمَ لا تشبه كتشييات ابن المعتز؟ فقال له: أنشدني من قوله الذي
أستعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر؟

فقال له زدني. فأنشده قوله في الأذريون، وهو زهر أصفر في سوطه خمل أسود:

كَأَنَّ أَذْرِيونَهَا غُبَّ سَمَاءِ هَامِيَةٍ

مَدَاهِنُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن
خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس. فهل
لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً من الجود كنأ والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر إثر مبيض

كأذيال خورٍ أقبلت في غلائل مُصْبَغَةٌ والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يذحو الرقاقة مثل الملح للبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء فيه بالحجر

نموذج من شعره:

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

أراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجّون نجوم

منها معالم للهدى، ومصالح تجلو الدجى، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بُعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه

وكان هو بطل

وقوله:

توددت حتى لم أجد متودداً وأفنيت أقلامي عتاباً مُردداً

كأنني أستدني بك ابن حنيّة إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيت سواد الرأس واللهو تحته كليل وحلم بات رائيهِ ينعم

فلما اضمحل الليل زال نعيمه
وقوله في قصيدة يصف الشمس في الاصيل:

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت
وودعت الدنيا لتقضي نحبها
ولاحظت النوار وهي مريضة
كما لاحظت عواده عين مذنف
وظلت عيون النور تخضل بالندى
يراعينها صوراً إليها روانيا
وبين اغضاء الفراق عليهما
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة
وأذكي نسيم الروض ريعان ظله
وغرد ريعي الذباب خلالة
فكانت أرائين الذباب هنا كمو

على الأفق الغربي ورساً مزعزعا
وشول باقي عمرها فتشعشعا
وقد وضعت خذاً إلى الأرض أضرعاً
توجع من أوصابه ما توجعاً
كما أغرورقت عين الشجي لتدمعا
ويلحظن الحاظاً من الشجو خشعاً
كأنهما خلاً صفاء تودعاً
من الشمس فاخضراخضراراً مشعشعا
وغنى مغني الطير فيه وسجعا
كما حثت النشوان صنجا مشرعاً
على شدوات الطير ضرباً موقعاً

٤٢ - ابن المعتز

٨٦٣ - ٩٠٩ م

٢٤٩ - ٢٩٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموئل الخلافة، وربى في باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرد وثعلب، وشارك في أكثر العلوم العقلية والعقلية وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قليل هموم القلب إلا للذة
فإن تطلبه تقتنصه بحانة
ولست تراه سائلاً عن خليفة

يُنعم نفساً أذنت بالتنقل
ولا ببستان وكرم مظلّل
ولا قائلًا من يعزلون ومن يلي

٤٢ - انظر ترجمته في: أشعار أولاد الخلفاء: ص ١٠٧ - ١١٧، ومروج الذهب: ٢٤٩/٨ - ٢٥٤، والأغاني: ٢٧٤/١٠ - ٢٨٦، والفهرست: ص ١١٦، وتاريخ بغداد: ٩٥/١٠ - ١٠١، ووفيات الأعيان: ٣٢٣/١ - ٣٢٦ وفوات الوفيات: ٥٠٥/١ - ٥١١، ومعاهد التنصيص: ٣٨/٢ - ٤٧، ومعجم المؤلفين: ١٥٤/٦ - ١٥٥.

ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو علي
إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر وأستبداد المماليك وسوء سياستهم
خلعوه وباعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاؤوا التسليم
راضين. فتحزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسسته. واختفى
الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتقحموا عليه الدار وأعتقلوه. ودفعه المقتدر
إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره:

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي
الأسلوب، لركة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق
الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وأمتلاً ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق
الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه، فبريء من كذب المدح ولؤم
الهجاء، وأنصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله
ولع بالبدیع في حسن صنوغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة
اللفظ ودقة التخیل.

مؤلفاته:

لابن المعتز كتاب البديع، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً
منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك،
وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهر والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع
ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره:

كن جاهلاً أو فتجامل تفز
والعقل محروم يرى ما يرى
للجهل في ذا الدهر جاء عريض
كما ترى السوارث عين المريض
وقال:

أقتلا همي بصرف عفار
إن للمكروه لدعة هم
وأترك الدهر فما شاء كانا
فلإذا دام على المرء هانا
وقال:

ونسيم يشر الأرض بالقط
ووجوه البلاد تنتظر الغيب
ر كذيل الغلالة المبلول
ث انتظار المحب رجع الرسول

وقال:

أعاذلَ قد كبرت على العتاب
رددت إلى التقى نفسي فقرت

وقال في مقبره:

وسكان دار لا تزاور بينهم
كأن خواتيماً من الطين فوقهم

وقال:

كم حاسد حنق عليّ بلا
متضاحك نحوي كما ضحكت

وقال:

انظر إلى حُسن هلال بد
كمنجل قد صيغ من فضة

وقال:

قلبي وثاب إلى ذا وذا
يهيم بالحُسن كما ينبغي

وقال:

من لي بقلب صيغ من صخرة
جرحت خديه بلحظي فما

وقال:

ولقد قضت نفسي مآربها
ونهار شيب الرأس يوقظ من

وقال:

ولاني على إشفاق عيني من البكا
كما حلثت عن ماء برد طريدة

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك:

عصفق إما ارتياحة لسننا الفج

وقد ضحك المشيب على الشباب
كما رُدَّ الحسام إلى القِرَاب

على قرب بعض في المحلة من بعض
فليس لهم حتى القيامة من فض

جُرم فلم يضرزني الحنق
نار الذبالة وهي تحترق

يهتك من أنواره الجندسا
يحصد من زهر الدجى نرجسا

ليس يرى شيئاً فيأباه
ويرحم القُبح فيهواه

في جسد من لؤلؤ رطب
برحت حتى أقتص من قلبي

وقضيتُ غياً مرة ورشد
قد كان في ليل الشباب رقد

لتجمع مني نظرة ثم أطرق
تمد إليه جيدها وهي تفرق

ر وإما على الدجى أسفا

ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندري إن كان ابتدعه أم أتبع فيه الأندلسيين:

أيها الساقى إليك المشتكى
قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت في غرته
ويشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس إليه وأتكى وسقاني أربعاً في أربع

ما لعيني عشيت بالنظرا
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت، فأسمع خبري:
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي!

غصن بان مال من حيث التوى
مات من بهواه من فرط الجوى
خفيق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى ويحبه! يبكي لما لم يقع!

ليس لي صبر، ولا لي جلد
يا لقومي عدلوا وأجتهدوا!
أنكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي؟ كمد اليأس وذل الطم
كبد حرى، ودمع يكف
يذرف الدمع ولا يندرف
أيها المعرض عما أصف!
قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحب إنني مدعي

٤٣ - الشريف الرضي

٩٧٠ - ١٠١٣ م

٣٥٩ - ٤٠٤ هـ

نشأته وحياته:

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي ببغداد، ونشأ في حجر والده، ودرس

٤١٠ - انظر ترجمته في الرجال: ص ٣١٠ - ٣١١ وتاريخ بغداد: ٢/ ٢٤٦ - ٢٤٧، والمحمّدون: =

العلم في طفولته؛ فبرع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبين سنة ٣٨٨، ثم إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه الله إليه في المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه:

كان الشريف أبي النفس عالي الهمة، سمت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيناً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلوات الملوك والأمراء، وأجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

شعره:

نهج الرضي في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحري إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونته. قال الثعالبي: «وهو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق» ثم قال بعد ذلك: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه». وكان على مكانته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية؛ لأن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبينا.

مؤلفاته:

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتاباً آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى

= ص ٢٤٣ - ٢٤٤ وإنباء الرواة: ١١٤/٣ - ١١٥ ووفيات الأعيان: ٢/٢ - ٥، والوافي بالوفيات: ٢/٣٧٤ - ٣٧٩، الأعلام، للزركلي ٣٢٩/٦، ومعجم المؤلفين: ٢٦١/١١ - ٢٦٢، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٩٠/٣ - ١٩٥.

أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر؛ ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمشوب.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطي البحتري في مدح المتوكل:

لله يوم اطلعتك به العلا	عَلَمًا يُزَاوِلُ بِالْعَيُونِ وَيُرْشَقُ
لما سمت بك عزة موموقة	كَالشَّمْسِ تَبْهَرُ بِالضِّيَاءِ وَتُومِقُ
وبرزت في بُرد النبي وللهدي	نُورٌ عَلَى أَسْرَارِ وَجْهِكَ مَشْرِقُ
وكان دارك جنة حصاؤها الجا	دِيٌّ أَوْ أَنْمَاطُهَا الْإِسْتَبْرَقُ
في موقف تغضي العيون جلالة	فِيهِ وَيَعْتَرِ بِالكَلَامِ الْمُنْطَقُ
وكانما فوق السرير وقد سما	أَسَدٌ عَلَى نَشْرَاتِ غَابِ مَطَرُ
والناس إما راجع متهيب	مِمَّا رَأَى، أَوْ طَالِعِ مَتَشَوِّقُ
مالوا إليك محبة فتجمعوا	وَرَأَوْا عَلَيْكَ مَهَابَةً فَتَفَرَّقُوا
وطعنت في غرر الكلام بفصل	لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ السِّنَنُ الْأَزْرَقُ
وغرست في حُب القلوب مودة	تَزْكُو عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَتُورِقُ
وأنا القريب إليك فيه ودونه	لِيَدِي عَدُوكَ طُودٌ عَزَّ أَعْنَقُ
عطفاً أمير المؤمنين فإننا	فِي دُوحَةِ الْعِلْيَاءِ لَا نَتَفَرَّقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوت	أَبَدًا، كِلَانَا فِي الْمَعَالِي مُغْرَقُ
إلا الخلافة ميزتك فإني.	أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْكَ مَطُوقُ

٤٤ - الطفرائي

١٠٦٣ - ١١٢٠ م

٤٥٥ - ٥١٣ هـ

نشأته وحياته:

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطفرائي نسبة إلى مهنته أول

٤٤ - انظر ترجمته في: النزهة: ٧٣/٢، وفوات الوفيات: ١٥٩/١، وكشف الظنون: ٦٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥١٤، ٥١٥، والأعلام للزركلي: ٢٤٦/٢.

حياته . فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه . ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وُزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل ، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشيء . فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همدان وكانت النصره لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً ، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله ، ومالاه عليه بعض حسدته من رؤوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣ .

شعره :

شعر الطغرائي عاصر الأبيات ، متين القافية ، مختار اللفظ ، يغلب فيه الفخر والحكمة . ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب . وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك . وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم ، وهي من عيون الشعر ومختاره . قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل . وقد أفردتها العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير . قال في مطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع
ومنها :

حب السلامة يشئ هم صاحبه
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً
ودع غمار العلا للمقدمين هلى
رضا الذليل بخفض العيش مسكنه
وقال وقد رزق مولوداً على كبر :

هذا الصغير الذي وافى على كبر
سبع وخمسون ولو مرت على حجر
ومن قوله في الفخر :

أبى الله أن أسمو بغير فضائلي
وإن كرممت قبلي أوائل أسرتي
وما المال إلا عارة مستردة
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة
ولا كان لي حكم مطاع أجيزه
فأعذر أن فصرت في حق مجتد
أأكفى ولا أكفى؟ وتلك غضاضة
إذا ما سما بالمال كل مسود
فإني بحمد الله مبدأ سؤددي
فهلا بفضلي كاثروني ومحتدي
يطول بها باعي وتسطوبها يدي
فأرغم أعدائي وأكبت حسدي
وأمن أن يعتادني كبد معندي
أرى دونها وقع الحسام المهند

من الحزم ألا يضجر المرء بالذي يعانيه من مكروهة فكان قد
إذا جلدي في الأمر حان ولم يُعن مريرة عزمي ناب عنه تجلدي
ومن يستعين بالصبر نال مراده ولو بعد حين إنه خير مسعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حمل العلم وخلجتها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنها بالشعراء، وغصت مجالسها بالأدباء. وقد علمت كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أдал الله العباسيين من الأمويين والفرس من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: «ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم» وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مُمدح؛ فوطاً كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحري في إشار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن صاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها، وينهل من أدبها. وروى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: «ما فتق قلبي، وشحد فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وأمتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب».

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في العرب في أبي تمام والبحري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالى في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

٤٥ - أبو تمام

٨٠٤ - ٨٤٦ م

١٨٨ - ٢٣١ هـ

نشأته وحياته :

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق . ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته . فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى ؛ حتى بلغ من الشعر مبلغاً لم يزاحمه فيه أحد من أهل عصره . وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد ، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفيا ظل النعمة . فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالاً لم يُبق لغيره مجالاً ، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهماً بالشعر في حياته . ثم اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين .

صفاته وأخلاقه :

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلوا الكلام فيه تمتمة يسيرة . وكان ذكي الطبع حاضر البديهة قوي الذاكرة قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات . وكتاباً الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك . ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها :
ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربع الأدراس
ووصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً : الأمير فوق من وصفت . وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب . فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال على البديهة :
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرورا في الندى والبأس

٤٥ - انظر ترجمته في : طبقات الشعراء : طبعة أولى ص ١٣٣ - ١٣٥ وطبعة ثانية ص ٢٨٣ - ٢٨٧ ومروج الذهب : ١٥١/٧ - ١٦٦ ونزهة الألباء : ص ٢١٣ - ٢١٦ والموشح : ص ٣٠٣ - ٣٢٩ والرجال : ص ١٠٨ - ١٠٩ وسمط اللآلئ : ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ، وتهذيب ابن عساكر : ١٨/٤ - ٢٦ ، ومعجم المؤلفين : ١٨٣/٣ - ١٨٤ .

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا. وقال الفيلسوف
للخليفة: منهما يطلب فأعطه، فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده،
ولا يعيش كثيراً: فولاه بريد الموصل.

شعره:

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين،
وظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها.
واستنبط من ذلك طريقته التي أثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر
من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنائيات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى
أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم
له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه
جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها
من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكتها المتنبي
وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: «أبو تمام والمتنبي حكيمان،
والشاعر البحتري»، وقد كثر اختلاف الناس فيه؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله
على كل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جیده فطواه، وإلى رديئه فرواه ولكن لسان
المدح كان أغلب، فقد فضله من الرؤساء والعظماء ما لا قبل للطاعنين عليه بهم. قال
محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: يا أبا تمام إنك لتَحلي شعرك من
جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهي الجواهر في أجياد الكواعب. وما يُدخر
لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة.

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع
فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى
قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره:

من أبدع قصائده قوله:

غدت تستجير الدمر خوف نوى غد	وعاد قتاداً عندها كل مرقد
وأنقذها من غمرة الموت أنه	صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعاً وورداً	من الدم يجري فوق خد مورد

ويقول فيها في الحث على الاغتراب ، ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق في كل بيت :
ولكنني لم أخو وفراً مجتمعا
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً
وطول مقام المرء في الحي مخلق
فإني رأيت الشمس زبدت محبة
ومن قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
كم منزل في الأرض يألوه الفتى
وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد
ألا في سبيل الله من عطلت له
فتى كلما فاضت عيون قبيلة
فتى دهره شطران فيما ينوبه
فتى مات بين الطعن والضرب موة
وما مات حتى مات مضرب سيفه
تردى ثياب الموت حمرأ فما دجا

وقال في المدح :

حوّل، لا فعاله مرتّع الذم (م)
سرخ قوله إذا ما استمرت
لا معنى بكل شيء ولا كل (م)
ليس يغري عن حلة من طراز الـ
وإذا كف راغب سلبته
ما مهاة الججال مسلوية أظ
واجيد بالخليل من برحاء الشـ
كل شعب كنتم به آل وهب
إن قلبي لكم لكا لكبد الحر
وقال أيضاً :

إذا حركته هزة المجد غيرت
يرى أقبح الأشياء أوبة أمل
عطاياه أسماء الأمانى الكواذب
كسته يد المأمول حلة خائب

وأحسن من نور تفتح الصُّبا بياض العطايا في سواد المطالب

٤٦ - البحتري

٨٢١ - ٨٩٧ م

٢٠٦ - ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته :

أبو عبادة الوليد بن عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب والفرات) سنة ٢٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيٍّ وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب . ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع . وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبرد وظل صنيعه لأبي تمام يردد صداه، ويترسم خطاه، وحبيب يرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يوماً . «أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي»، فصدق الله نبوءته . وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض . وأقام في العراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وزيره إلى أن قتل على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منبج . وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد «وسراً من رأى» فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤ .

صفاته وأخلاقه :

كان البحتري على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره . وكان من أبغض الناس إنشاداً : يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري ، ويهز رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين قائلاً : ما لكم لا تقولون أحسنت؟ وهذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له . قال له بعض الناس وقد سمع شعره : أنت أشعر من أبي تمام . فقال : ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، آخذ منه لائذ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه !

٤٦ - انظر ترجمته في : طبقات الشعراء : طبعة أولى ص ١٨٦ - ١٨٧ ، وطبعة ثانية ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، أخبار أبي تمام : ص ٦٦ - ٦٧ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، وأخبار الشعراء : ص ٨١ ، والموشح : ص ٣٣٠ - ٣٤٣ ، وسط اللآلئ : ص ٢٧٩ ، ٤٢٧ ، وأمالى المرتضى : ١/ ٥٩٣ - ٥٩٥ ، ومعاهد التنصيص : ٢٣٤/١ - ٢٤٦ .

شعره:

ترسّم البحتري خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى «وأراد أن يشعر فغنى» كما قال فيه ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته، وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله: «أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري»، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدرّبه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الغث لكثرت، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحتري. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وطبعت في بيروت.

نموذج من شعره:

من قوله في وصف بركة المتوكل:

كالخيل خارجة من جبل مجريها	تنصبّ فيها وفود الماء مُعجّلة
من السبائك تجري في مجاريها	كأنما الفضة البيضاء سائلة
مثل الجواشن مصقولا حواشيها	إذا غلتها الصبا أبدت لها حُبكا
وريق الغيث أحيانا يياكيها	فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها
ليلاً حسبت سماء رُكبت فيها	إذ النجوم تراءت في جوانبها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر:

ويسنة الله الرضية تفرط	بالبر صمت وأنت أفضل صائم
يوم أغر من الزمان مُشهر	فانعم بيوم الفطر عينا إنه
لحِبّ يخاط الدين فيه ويُنصر	أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل
والبيض تلمع والأسنة تزهر	فالخيل تصهل والفوارس تدعي
والجو معتكر الجوانب أغبر	والأرض خاشعة تميد بثقلها
طوراً ويطفئها العجاج الأكر	والشمس طالعة توقد في الضحى
ذاك الدجى وانجاب ذاك العشير	حتى طلعت بنور وجهك فانجلي
يومى إليك بها وعين تنظر	فافتن فيك الناظرون فإصبع

لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يُزهي ولا يتكبر
في وسعه لسعي إليك المنبر
تنبي عن الحق المبين وتخبر
بالله تنذر تارة وتبشر

كروا بطلعتك النبي فهللوا
حتى انتهيت إلى المُصلى لابساً
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
أبدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في بُرد النبي مذكراً

ومن قوله في الطيف:

شفى قربه التبريح أو نفع الصدى
حسبت حبيباً راح مني أو غد
نُعذب أيقاظاً وننعم هجداً

إذا ما الكرى أهدى إلي خياله
إذا انتزعت من يدي انتباهه
ولم أر مثلياً ولا مثل شأننا

٤٧ - المتنبي

٩١٥ - ٩٦٥ م

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين. كان أبوه سقاه بالكوفة، ثم سافر به صغيراً إلى الشام متنقلاً من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضل، ضوامن لنجحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتساباً للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحاً إلى المجد: بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته بالخلافة وهو لذن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه. فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعشق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا والموت مني كجبل الوريد

٤٧ - انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١/١٢٦ - ٢٤٠ والفهرست، لابن النديم ص ١٦٩ وتاريخ بغداد: ١٠٢/٤ - ١٠٥ ونزهة الألباء: ص ٣٦٦ - ٣٧٤، ووفيات الأعيان: ١/٤٤ - ٤٦، ودائرة المعارف الإسلامية، ٣/٨٤٤ - ٨٤٧.

دعوتك لما براني البلى وأومن رجلي ثقل الحديد
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود

فاطلقه . ولكن حب الرياسة لم يزل متمكناً من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره . وفي سنة ٣٢٣ أدعى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبي ﷺ قال : إنه بشر بمجيشي وأخبر بنبوتي فقال : لا نبي بعدي ، وأنا اسمي في السماء (لا) . وضمف كلاماً عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدي ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه وتفرق عنه أصحابه . فطفق يتجشم أسفاراً أبعد من آماله ، ولا زاد إلا صبره ، ولا عدة إلا بأسه ، كما يتجلى ذلك في مثل قوله :
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
وقوله :

ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقل عنه قعودي
أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعودي

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه ، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم . وأفعم وطابه ودرت له أخلاف الدنيا على يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة ومن وجد الإحسان قيلاً تقيدا

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه إلى مصر في سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراً الإخشيدي وأبا شجاع . وأقام في مصر ردهاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فما هو إلا أن قال :

أبا المسك ، هل في الكأس فضل أناله فلاني أغني منذ حين وتشرب
وقال :

وهل ناعني أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتعالیه في شعره وطموحه إلى الملك ، فزوى عنه وجهه ، فهجاه وقصد بغداد . ولم يمدح الوزير المهلبی لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره . ولكنه لم يجبههم ، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل بن العميد فكتب إليه الوزير صاحب بن عباد

يستزيره بأصبهان طاماً أن يمدحه فلم يقم له وزناً وأمّ عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب
الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته - وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلمية،
وألّفوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يابه لهم ذهاباً
بنفسه وإعجاباً بشعره.

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول
وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل
إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز
عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بني ضبة، فعرض له بالصافية من سواد واقتتلا. فلما رأى
الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القاتل:
الخيول والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ.

شعره:

المتنبي شاعر من شعراء المعاني، وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته
بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب
العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي. ولقد حظي في شعره
بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات، وإجادة
التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع
المديح، وإيجاع الهجاء، وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه
برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاكل الناس وأهواء القلوب
وحقائق الوجود وأغراض الحياة لذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، ومثلاً لكل
خاطب.

عيوب شعره:

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه وتبعد غايته منه فيطيش سهمه وقد
بلغ من إهماله اللفظ أن وقع بعض المساوئ، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال
الغريب، وقبح الطالع، ومخلفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة
إلى الإحالة، كقوله:
ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم
وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى الذمىك هو
عقمت بمولد نسلها حواء
والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبي.

نموذج من شعره:

قال يشكو الزمان:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
يا ساقبي أخمر في كؤوسكما
أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني
إذا أردت كميت الخمر صافية
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها
أنى بما أنا باك منه محسود

وقال بتفلسف:

نحن بنو الموت فما بالنا
تبخل أيدينا بأرواحنا
فهذه الأرواح من جوّه
لو فكر العاشق في منتهى
لم يُر قرن الشمس في شرقه
يموت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سلمه

وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب
رماني الدهر بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابتني سهام
وهان فما أبالي بالرزايا

وقال:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وتولوا بغصة كلهم من
وعناهم من أمره ما عنانا
ه وإن سر بعضهم أحيانا

هـ ولكن تكدر الإحسانا
ر حتى أعانه من أعانا
رغب المرء في القناة سنانا
نتعمدى فيه وأن نتفانى
كالحات ولا يلاقي الهوانا
لمعدنا أضلنا الشجعانا
فمن العجز أن تموت جبانا

ربما تحسن الصنيع ليالي
وكانا لم يرُضَ فينا بريب الده
كلما انبَت الزمان قناة
ومُرَاد النفوس أصغر من أن
غير أن الفتى يلاقي المنايا
ولو الحياة تبقى . لحي
وإذا لم يكن من الموت بُدُّ

وقال أيضاً:

م فحسن الوجوه حال تحول
يا فإن المُقام فيها قليل

زودينا من حسن وجهك ما دا
وصلينا نصلك في هذه الذ

٤٨ - أبو فراس الحمداني

٩٣٢ - ٩٦٨ م

٣٢٠ - ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة . ولد بمنبج ورُبي في حجر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان . فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أيُّ النفس سليم الطبع ، كريم الخلق ، جامعاً بين أدبي السيف والقلم . وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه ، فاصطنعه لنفسه ، واصطحبه في غزواته ، واستخلفه في أعماله ؛ فكان الدرّة الفريدة في تاج سيف الدولة ، يقود جيوشه في الحرب ، ويرأس كتابه في السلم . وكان النصر حليفه في كل وقائعه ، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره اللسان ، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب ، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه ، فسجنوه بخرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية . وتهذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه ، مُمثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه المعجوز وابنته

٤٨ - انظر ترجمته في : بئمة الدهر : ٤٨/١ - ١٠٣ ، وتهذيب ابن عساكر : ٤٣٩/٣ - ٤٤٢ ، وزبدة الحلب : ١٥٦/١ - ١٥٧ ووفيات الأعيان : ١٥٨/١ - ١٥٩ وسامى الدهان ، مقدمة الديوان : ١٧/١ - ٢٥ ، ومعجم المؤلفين : ١٧٥/٣ - ١٧٦ ، ومراجع تراجم الأدباء العرب : ٢٢٧/١ - ٢٣٢ .

الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وجرارة الشوق حتى تنوَّظ في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

«ولما خرج قمر البيان من سِراره، وأطلق أسد الحرب من إساره»، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه. فتوفي سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لذن العود غض الإهاب.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أياً سخياً معجباً بشعره، وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفاً عن الشراب والمجون، فبرىء شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه. وهو القائل:

لئن خلق الأنام لجسوكأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يُخلق بنوحمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

شعره:

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، إلا أن عليه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وكان صاحب بن عباد يقول: «بُدي الشعر بملك وختم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، وروميته أجل وأدل على فضله، فإن مثله لا يزكوبه أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أنم جلالاً وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبرير ويتجلفى جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجتري على مجاراته، إنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيئاً له وإجلالاً لا إغفالاً) وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي.

نموذج من شعره:

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعيرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تربي روحاً لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بالي

أَيَحْمِلُ مُحْزُونَ الْفُؤَادِ قِوَادِمُ
أَيُضْحِكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةٌ
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِالْدمْعِ مَقْلَةٌ

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه:

بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِيهِ
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ
تَغَابَيْتَ عَنْ قَوْمٍ فَظَنُّوا غِبَاوَةً
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلِ
تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ
وَلَا تُشَدُّ لِي سُرُجٌ عَلَى مَتْنٍ سَابِحِ
سَتَذْكُرُ أَيَّامِي نَمِيرٌ وَعَامِرٌ
أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمْ

ومنها:

وَمَا زِلْتُ أَرْضَى بِالتَّغْلِيلِ مَحَبَّةً
وَأَطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوَدِّ أَرْضَهُ
كَذَاكَ الْوُدَادُ الْمُحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ
وَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى الْهَجْرَ وَالشَّمْلَ جَامِعِ
فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيْصَرِ
أَمِنْ بَعْدَ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تَرِيدُهُ
فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاةَ مَرِيرَةً
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
إِذَا صَحَّ الْوَدُّ مِنْكَ فَالْكَلِّ هِينٌ

عَلَى غُصْنٍ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالِي!
وَيَسْكُتُ مُحْزُونَ وَيَنْدُبُ سَالِي
وَلَكِنْ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِي

وَمَنْ أَيْنَ لِلْحَرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ؟
ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ ثِيَابُ
بِمُفَرَّقٍ أَغْبَانًا حَصَى وَتَرَابُ
نَحْكُمُ فِي آسَادِهِمْ كَلَابُ
لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا ضَرَبْتُ لِي بِالْغُرَاءِ قَبَابُ
وَكَعْبٌ عَلَى عِلَاتِهَا وَكَلَابُ
وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ

لَدَيْهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
وَذَكَرِي مِنْي فِي غَيْرِهَا وَطِلَابُ
ثَوَابُ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَقِيَةٌ وَخِطَابُ
وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زَخْرَةٌ وَعُجَابُ
أَثَابُ بِمُرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ؟
وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ تَرَابُ

٤٩ - أبو العلاء المعري

٩٧٣ - ١٠٥٧ م

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخِي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن ولد هذا

٤٩ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣٣/١، ومعجم الأدباء: ١٨١/١، وفهرست ابن خليفة:

الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين . فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجذري فذهب بيسرى عينيه وابتضت اليمنى ؛ فنشأ ضريباً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوباً معصفاً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقيه علوم اللسان العربي فتعلمها . وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه بفهم ، فانشى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد . وفي سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام ، فزار مكتبة طرابلس ، وعاج على اللاذقية ، وكان بها دير للربان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد . وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا لقائه ظمأ إلى أدبه . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً . ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه . وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بنعي أمه ، وكان أبوه قد توفي قبلها ، فوجد عليها وجداً شديداً ، ونالت منه هذه النازلة . وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره ، فاضطربت حياته ، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسمى نفسه رهن المحبس : العمى والمنزل . وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه ، قانعاً من الطعام والحلوى بالعدس والتين ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام ، راضياً من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردي . وحرم على نفسه الزواج ضناً ينسله على لؤم الناس وبؤس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبي علي (م) وما جنيت على أحد

ص ٣٤٣ ، لسان الميزان : ٢٠٣/١ ، وإنباه اللرواة : ٤٦/١ ، وتمة اليتيمة : ص ٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ٣٧٩/١ ، وابن الوردي : ٣٥٧/١ ، والأعلام للزركلي : ١٥٧/١ .

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسي الولادة وحشي الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخيًا وفيًا، قاعمًا لشهواته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد روي عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم. فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكًا، فتارة يثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات فأما شعره في الشببية فكثير المبالغة، واضح التقليد بين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجارى شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر.

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة. والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شببيته. فقد كان كثير المبالغة،

مفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يُعني القاريء وتطويل يمله؛ فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته:

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود لملتن لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وأنتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع، ثم عبث الوليد. وهو شرح ديوان البحري وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الأيكة والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب، ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره:

قال ينعي على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها:
 مُلُّ المَقَامِ فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
 ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وغدّوا مصالحها وهم أجراؤها
 وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة:
 تباركت أنهارُ البلاد سوائح بعذب وخضت بالملوجة زمزم!
 هو الحظ غيرُ اليدِ سافٍ بأنفه خزامي وأنف العود بالذل يخزم
 توهمت خيراً في الزمان وأهله وكان خيلاً لا يصح التوهم
 فما النور نوار ولا الفجر جدول ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له في الرثاء:

صاح! هذي قبورنا تملأ الرُح بَ فأيّن القبور من عهد عاد!
 خفف الوطء ما أظن أديم ال أرض إلا من هدة الأجساد
 وقبيح بنا وإن بُعد العهد مد هوانُ الأبناء والأجداد
 سر إن أستطعت في الهواء رويداً لا أحتيلاً على رُفات العباد
 ربُّ لحد قد صار لحداً مزاراً ضاحكاً من نزاحم الأضداد
 فأسأل الفرقدين عن أحسا من قبيل وأنسا من البلاد
 كم أقاما على زوال تهار وأنارا لمُدلج في سواد

تعبُ كلها الحياة فما أع
إن حزناً في ساعة الموت أضعا
حجب إلا من راغب في ازدياد
فُ سرور في ساعة الميلاد

وقال ينعي على المتزهدين المرائين من أهل الدين :

رُويدك قد غُررت وأنت حر
يُحرّم فيكم الصهباء صُبحاً
يقول لكم غدوت بلا كساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهي
بصاحب حيلة يعظ النساء
ويشربها على عَمْدِ مساء
وفي لذاتها رهن الكساء
فمن جهتين لا جهة أساء

وقال :

يحسن مرأى لبني آدم
ما فيهم بر ولا ناسك
أفضل من أفضلهم صخرة
وكلهم في الذوق لا يعذب
إلا إلى نفع له يجذب
لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال :

خف ذنباً كما تخاف سرياً
والصُّلال التي تخاف رداها
صال ليث الشرى بظفر وناب
شرها في الرؤوس والأذناناب

وقال :

عجبي للطبيب يلحد في الخا
رُبُّ روح كطائر القفص المسد
لق من بعد درسه التشريحا
حجون ترجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قريش من شرك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس . وكان المُلْك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية ؛ والبلاد تنتظر من يلمها من شتات ، ويحييها من مَوَات ، ويجمعها من فرقة ؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر . فاستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعونة اليمنية . ونشر عَلم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسوَّدة في دمشق . وتعاقب على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام ، حتى أصابهم داء الأمم ففرقوا وتمزقوا ، وأنحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف ، كبني جهور في قرطبة ، وابن عباد في أشبيلية ، وابن الأفتس في بطليوس .

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق ، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالى ، ويعتزون بعصية الجنس ، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين ، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم . ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم ، صنَّع

بني العباس في أبناء الفرس . فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية ، ونضج العقلية العربية ، وأستعار النهضة الأدبية ، وأزدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتها من العرب ، لأن أوروبا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة ، وترسف في أغلال الأمية ، فأقتبس الأسبان ثقافة العرب فأعتقدوا دينهم ، وتكلموا لغتهم ، وتعلموا أديبهم . وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أنسوها ، وحتى جأ بالشكوى من هذه الحال كاهن قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى أضطروهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية .

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه ، ويستمدون من زعمائه وعلمائه ، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين ؛ فشيّدوا المدارس الجامعة ، وأنشأوا المكاتب العامة ، ونشطوا حركة التأليف ، وأذكوا نهضة الأدب ورفعوا مجد الفنون ، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء . بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمايزت بانياتها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم ، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد ، وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال : « إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى » . وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب . ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه . فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى دبّ في خلافة بني مروان ديبب البلى والهرم ، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فأضطلعوا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم ، ونازعوهم سلطانهم ، وراوهم الفرنج متكاتفين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة ، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بقرار أبي عبد الله محمد بن علي من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة .

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلّم به إماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم .

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفضله ونحلله ، وإنما هي لمحة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه ، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه . فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة ، والجواء المتغيرة ، والمناظر

المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبات، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه وتنوّقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، وذبحوه تدييج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمة في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقى الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب وأضمحل أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرّفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمزاح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتمائيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأدوية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداء الموشح وتنوع القافية؛ وذلك لا اعتقادهم أنه هو الأصل الذي يرجع إليه، والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنع في اللفظ، وتعمل في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق، فطافوا على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيه الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضرورياً شتى من الشعر، كالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها.

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم ولكن فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فأنشقت عصاهم، وأهصمت عراهم، ونضبت قرائحهم وأمحلت عقولهم، وذهبوا كأمس الدائر، سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني:

مَطَّلَ اللَّيْلُ بِوَعْدِ الْفَلَقِ وَتَشَكَّى النِّجْمُ طَوْلَ الْأَرْقِ
ضربت ريح الصُّبا مسك الدجى فاستفاد الروض طيب العبق

والاح الفجرُ خدُ خَجِلا
جاوز الليل إلى أنجمه
وأستفاض الصبح فيها فيضة
فأنجلي ذاك السنا عن حلك
ياأبي بعد الكرى طيفُ سرى
زارني والليل ناعٍ سدَّفه
ودموع الطل تمر بها الصُّبا
فتأبى في إزار ثابت
وتجلي وجهه عن شعره
نهب الصبح دجى ليلته
سلبت عيناه حذني سيفه

جال من رشح الندى في عرق
فتساقطن سقوط الورق
أيقن النجم لها بالفرق
وأنمحي ذاك الدجى عن شفق
طارقاً عن سكن لم يُطرق
وهو مطلوب بباقي الرمت
وجفون الروض غرقى الحدق
وتثني في وشاح قلىق
فتجلي فلق عن غسق
فحبا الخد ببعض الشفق
وتجلي خد بالرونق

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر:

وراهبة أغلقت دبرها
هدانا إليها شذى قهوة
طرحت بميزانها درهمي
تفرس في شمس طيها
فتى دارس الخمر حتى درى
يعدُّ لما شئت من قهوة
وعدنا إلى هالك أطلعت
يرى ملك اللهو فيها الهموم
وقد سكنت حركات الأسى
فهذي تعانق لي عودها
وراقصة لقطت رجلها
وقضب من الشمع مصفرة
كان لها عمداً صفقت

فكنا مع الليل زوارها
تذيع لأنفك أسرارها
فأجرت من الدن دينارها
مجيئاً الفراسة فأختارها
عصير الخمر وأعصارها
سنيها ويعرف خمارها
على قضب البان أقمارها
تشور فيقتل ثوارها
قيان تحرك أوتارها
وتلك تقبل مزمارها
حساب يد نقرت طارها
تريك من النار نوارها
وقد وزن العدل أقطارها

إلى أن قال:

ذكرت صقلية والأسى
ومنزلة للتصابي خلت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكا

يهيج للنفس تذكارها
وكان بنو الظرف غمادها
فلإني أحدث أخبارها
حسبت دموعي أنهارها

وقال ابن هانيء يصف اكولا :

يا ليت شعري ، إذا أومى إلى فمه
كانها - وخبيث الزاد يضرمها -
تبارك الله ما أمضى أسنّته
كان بيت سلاح فيه مختزناً
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوي في يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
وغادر البط من مثني وواحدة
يخفض الرز من قرن إلى قدم
كأنما كل ركن من طبائعه
كأنما في الحشا من حمل معدته
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرننا
نصحتكم ، فخذوا من شذقه وزراً

أحلقه لهوات أم ميادين؟
جهنم ، قذفت فيها الشياطين
كأنما كل فك منه طاحون
مما أعدته للرسل الفراعين
أين الخناجر أم أين السكاكين
ذو النون في الماء لما عضه النون
كأنما افترستهن السراحين
كأنما اختطفتهن الشواهين
وللبلاعيم تطريب وتلحين
نار ، وفي كل عضو منه كانون!
قرنفل وجراريش وكمون
وجاذبتنا أعنتها البراذين
أولاً ، فأنتم سويق فيه مطحون

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في
أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغमत :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
تري بناتك في الأطمار جائعة
يطأن في الطين والأقدام حافية
أفطرت في العيد لا عادت إساءته
قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً
من بات بعدك في ملك يسر به

فساءك العيد في أغمات مأسورا
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
كانها لم تطأ مسكاً وكافورا
فكان فطرك للأكباد تفتيرا
فردك الدهر منهياً ومأمورا
فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلبي من قصيدة يصف وداعه لزوجته وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا
تناشدني عهد المودة والهوى
عيمي بمروج الجواب ، ولفظه
تبوا ممنوع القلوب ومهدت
وطار جناح البين بي وهفت بها
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي
أسلط حر الهاجرات إذا سطا
وأستشق النكباء وهي لوافح

بصبري منه أنه وزفير
وفي المهد مبغوم النداء صغير
بموقع أهواء النفوس خبير
له أذرع محفوفة ونحور
جوانح من دعر الفراق تطير
علي ورقراق الشراب يemor
على حر وجهي والأصيل هجير
وأستوطىء الرمضاء وهي تفور

وللدموت في عين الجبان تلون
لبان لها أني من البين جازع
وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

يجرح الدهر ويأسو
على الأمال ياس
لُ ويردبك احتراس
والمقادير قياس
ولكم أكدي التماس!
عز ناس ذل ناس
ف سَراة وخساس
مُتعة ذاك اللباس
واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في (م) غسق الخطب اقتباس
إن عهدي لك آس
ما أمتطت كفك كاس
إنما العيش اختلاس
لوا عن العهد وخاسوا؟
فأنتهاب وأنتهاس
لي، وللذئب أعتساس
من الصخر أنبجاس
سأ فللغيث احتباس
ب فيوطأ ويُداس

وللموت في عين الجبان تلون
لبان لها أني من البين جازع
وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

ما على ظني باس
ربما أشرف بالمر
ولقد ينجيك إغفا
والمحاذير سهام
ولكم أجدي قعود
وكذ الحكم: إذا ما
وبنو الأيام أخيا
نلبس الدنيا، ولكن
ياأبا حفص وما سا
من سنا رأيك لي في (م) غسق الخطب اقتباس
لا يكن عهدك وزدا
وأدر ذكرى كئاساً
وأغتنم صفو الليالي
ما ترى في معشر حا
أذوب هامت بلحمي
كلهم يسأل عن حا
إن قسا الدهر فللما
ولئن أمسيت محبو
ويفت المسك في التر

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:

خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي همما
ما ترى شوقي قد وقدا
وهما دمعي وأطردا
وأغتندي قلبي عليك سدي!
آه من ماء ومن قيس بين طرفي والحشا جُمعا!

بأبي ريم إذا سفرا
أطعت أزراره قمراً
فأحذروه كلما نظرا
فبالحاظ الجفون قسى أنا منها بعض من صرعا
وقال بعضهم:

ما للمملوّة من سكره لا يفيق
يا له سكرانا!
من غير خمر. ما للكثير الممشوق
يندب الأوطانا
هل تستعاد، أيامنا بالخليج
وليالينا
أو يستفاد، من النسيم الأريج
مسك دارينا
وإد يكاد، حسن المكان البهيج
أن يحيينا
ونهر أظله دوح عليه أنيق
مورق فينان
والمساء يحرق وعائم وغريق
من جنى الريحان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي:
هل در ظبي الحمى أن قد حمى
فهو في حر وخفق مثل ما
قلب صب حله عن مكيس
لعبت الصبا بالقبس

يا بدوراً أطلعت يوم النوى
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى
أجتني اللذات مكلوم الجوى
كلما أشكوه وجداً بسما
إذ يقيم القطر فيه مائما
غراً في نهج الفرر
منكم الحسن ومن عيني النظر
والتذاذي من حبيبي بالفكر
كالرّبي بالعارض المنبجس
وهي من بهجتها في عرس

غالبٌ لي غالبٌ بالتُّؤدة بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نُضْذَه أقحواناً عُصرت منه رقيق
أخذت عيناة منه العريضة وفؤادي سكره ما إن يُفريق
فاحم الجمّة معسول اللّمي أكحل اللحظ شهّي اللّفس
وجهه يتلو الضحى مبتسماً وهو من إغراضه في عبس

شعراء الأندلس

٥٠ - ابن عبد ربه

٨٦٠ - ٩٤٠ م

٢٤٦ - ٣٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وأمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: «وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة، وأنفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالتفضيل إلا أنه غلب عليه الشعر» ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج وتوفي سنة ٣٢٨ هجرية.

شعره:

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل. وهو أشبه بشعر ابن زيدون في النجم بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشاركة وأصح تقليداً لأشعارهم. وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرج في منصرفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو بن العاص، فأفاضوا في الحديث ملياً، ثم قال المتنبي: ألا تشدني لمليح الأندلس؟

٥٠ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ٩٤-٩٦ والمطرب: ص ١٥١-١٥٦ ومطمح الأنفس: ص ٥١-٥٣، وبغية الملتبس: ص ١٣٧-١٤٠ وتاريخ علماء الأندلس، ص ٤٩-٥٠ وإرشاد الأريب: ٦٧/٢-٧٢، ووفيات الأعيان: ٣٩/١-٤١، والوافي بالوفيات: ١٠/٨-١٤، ومعجم المؤلفين: ١١٥/٢-١١٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٠٦/١-١٠٩.

يعني ابن عبد ربه . فأنشده الوليد شيئاً من شعره ، فصفق له وأستعاده ثم قال «يا ابن عبد ربه لقد تأتيت العراق حبوا» وكفى شهادة المتنبي دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه . وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه . وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى . وقال في مقدمته : وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها . وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على أنقطاعه . حظاً من المنظوم والمنثور .

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات ، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية . من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره ، ولكنها إلى الشعر التعليمي Didactique أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة ، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد . ولما تناهت به السن وأرغشه الكبر ، أقلع عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو ، بقطعة من بحرها وروىها في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر ، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً ، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد .

العقد الفريد :

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب ، جامع لتشيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى . وقد أستوعب خلاصة ما دُون من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم . ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشئ كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح . وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه ، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه ؛ وسمى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ .

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة ، اللهم إلا إلى نفسه ! حتى إن صاحب بن عبلا لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه . فلما تصفحه قال : «هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا . لا حاجة لنا به ، ثم رده» . والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات .

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
يا من تقطع خصره من رقة
وقال في موقف الوداع:

ودعّتنني بزورة وأعتناق
وبدت لي فأشرق الصبح منها
يا سقيم الجفون من غير سقم
إن يوم الفراق أفزع يوم
وقال في وصف رمح وسيف:

بكل رذِيٍّ كأن سنانه
تقاصرت الأجال في طول مننه
وذى شُطب تقضي المنايا لحكمه
يسلّل أرواح الكماة أنسلاله
وأخر شعر قاله قوله:

بليت وأبلتني الليالي بكَرّها
ومالي لا أبلى لسبعين ججّة
ولست أبالي من تباريح علتي
وصرفان للأيام معثوران
وعشر أتت من بعدها ستان
إذا كان عقلي باقياً ولساني

٥١ - ابن هانيء الأندلسي

٩٣٨ - ٩٧٤ م

٣٢٦ - ٣٦٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الأندلسي بأشبيلية في زهرة العهد الأموي وفي

٥١ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ٨٩ - ٩٠، والمطرب: ١٩٢ - ١٩٥، وتكملة الصلة: ٣٦٨/١، ومطعم الأنفس: ص ٧٤، والخريدة، ٤: مصر ١، القاهرة ١٩٥١، ٢٤٨ - ٢٨١، وإرشاد

أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هانيء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. وأستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم، حتى اتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، فقطف ابن هانيء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقيض الشرقيين يمقتون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدرون عن البحث في الدين، فتألب أهل أشبيلية عليه، وكادوا يصلون بالأذى إليه. وأتهموا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ نائرة القوم وينسونه. فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقى القائد جوهرأ فأتج مصر للمعز فمدحه. وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين الله العبيدي فأصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانيء وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان في طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقام عنده يقصف ويلهو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. ف قيل إن نداماه من أهل ضيافته عربدو عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فمات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدّر لنا ذلك».

أخلاقه:

كان ابن هانيء ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصادق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته، ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميئته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعره:

ابن هانيء على رأي الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة

= الأريب: ١٢٦/٧ - ١٣٣، وابن خلكان: ٥/٢ - ٧، ونفح الطيب، ٤٤٤/٢ - ٤٥٠، ومعجم المؤلفين: ٨٨/١٢ - ٨٩، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٣١/١ - ١٣٤.

التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوارج النفس. وقد اطلع على شعر المتنبي وهو معاصر فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وأثم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثناياه مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجابة نادرة، ولذلك سموه متنبى الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشاركة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكان هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصبيته للمتنبي شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانئ: «ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في أفاظه» ومن يدري؟ فلو أن الله نسا في أجل ابن هانئ فلم تأخذه المنون عبطة لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيد أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إنا وفي آمال أنفسنا	طول وفي أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا	لو كانت الأبواب تعتبر
مما دهانا أن حاصرنا	أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا	فأكلهن العين والنظر
لو كان للأبواب ممتحن	ما عُد منها السمع والبصر
أي الحياة الذ عيشتها	من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر الله السننا	لما تكلم فوقنا القدر

ومنها:

وإذا صحبت العيش أوله	صفوا، فهين بعده الكدر
وإذا انتهيت إلى مدى أمل	دركا، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابس	عيش جني ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد	ولكل نهلة وارد صدر
وحدود تعمير المعمر أن	يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة	وتنال منه الهام والقصر

والمرء كالظل المديد ضُحى

ويقول في ختامها:

غرض ترامي في الخطوب، فذا
فجزعت حتى ليس بي جزع

وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كُحل السهاد
أو خذوا مني ما أعطيتكم
هل تجيرون محباً من هوَى؟
أُسَلُّوا منكم من هجركم
إنما كانت خطوب قيضت
فعلى الأيام من بعدكم
لا مَزَارُ منكم يدنو سوى
قل تنويل خيال منكم
لم يزدنا القرب إلا هجرة
وإذا شاء زمان رابنا

والفني يحسره فينحسر

قوس، وذا سهم، وذا وتر
وحذرت، حتى ليس بي حذر

وأنفضوا عن مضجعي شوك القتاد
لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
أو تفكون أسيراً من صفاد؟
قلما يسلو عن الماء الصوادي!
فعدتنا عنكم إحدى العوادي
ما على الظلماء من لبس الحداد
بأن أرى أعلام هضب أو نجاد
يَطْبِي بين جفون ومهاد
فرضينا بالثنائي والعباد
برقيب أو حسود أو مُعادي

ومن قصيدة له يمدح جوهراً ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمعُ
غداة كأن الأفق سُدَّ بمثله
فلم أدر إذا سلّمت كيف أشيعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة
فلا عسكر من قبل عسكر جوهري

وقد راعني يوم من الحشر أروعُ
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
ولم أدر شيعت كيف أودعُ
وإني بمن قاد الجيوش لمولعُ
تخب المطايا فيه عشراً وتوضعُ

وقال في المدح:

أبنى العوالي السمهرية والسيو
من منكم الملك المطاع كأنه
القائد الخيل العتاق شوازيأ
شعث النواصي حشرة أذانها
تنبو منابكهن عن عفر الثرى
جيش تقدمه الليوث وفوقه
ويقوده الليث الغضنفر معلماً
في فتية صدا الدرع عيهرهم

ف المشرفية والعديد الأكثر
تحت السوابغ تبّع في جَمِير
خُزراً إلى لحظ السنان الأخضر
قُب الأباطل، داميات الأنسر
فيطان في خد العزيز الأصعر
كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
في كل شئ البدتين غضنفر
وخلوقهم علق النجيع الأحمر

لا يأكل السرحان شلّو طيعنهم
قوم بيت على الحشايا غيرهم
وتظل تسبح في الدماء قباهم
فحياضهم من كل مهجة خالع
حي من الأعراب إلا أنهم
وقوله في وصف الخيل:

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها
عُرفت بساعة سبقها، لا أنها
وأجل علم البرق عنها أنها
هضب، ولا اليد الحزون حزون
عَلقت بها يوم الرهان عيون
مرت بجانحته وهي ظنون

٥٢ - ابن زيدون

١٠٠٤ - ١٠٧٠ م

٣٩٤ - ٤٦٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤. وكان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورُزق في الإنشاء قريحة طيبة وطبعاً سليماً. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن ورّر لأبي الحزم بن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألّفى إليه مقاليد الأمور فدبرها وساسها بحذق وكياسة. وكثيراً ما سفر بين مولاة وملوك الأندلس فأحسن السفارة وفضّ المشكل. ثم دبت بينهما عقارب السعاية، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمة. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلن لها ذلك القلب الجماد، ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إلى بعد أبيه فاستصحبه وقربه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم ورّر لابنه المعتمد وقضى في أشبيلية بقية عمره.

٥٢ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ١٣٠ - ١٣١، وقلائد العقبان: ص ٧٩، والمغرب في حلي المغرب: ٦٣/١ - ٦٩، وكنوز الأجداد: ٢٥١ - ٢٦٠، وتتممة المختصر: ٥٦٣/١ - ٥٦٤، وبغية الملتبس: ص ١٨٦ - ١٨٧، والخريدة: ٤٨/٢ - ٧١، والوافي بالوفيات: ٨٧/٧ - ٩٤، ونفح الطيب: ٦٢٧/١.

فأنت ترى من هذا المجمع أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة. فقد آتتلي وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة، سافرة، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعاية وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه، فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم الحول والطول، فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، وضمنها كثيراً من المَلح في الأدب والتاريخ.

شعره:

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس، لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعاثه من طبيعة بلاده. فلا يجر جريان ابن هانيء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود ما خُصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفا الديباجة. وقد تظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم في الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جناته. وإنك لتجد أثر هذا الإطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشاييه والملح.

نثره:

لابن زيدون نثر أنيق الوشي، دقيق النسيج، قليل التكلف والسجع، كثير الإزدواج والإطناب، شديدة الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنويع بحروف الجر، وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملح، والتمثل بالشعر في غضون النثر. ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى

ابن عبدوس عن لسان ولادة، وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعني
العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه:

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتُم بجفائكم
تعدوني كالعنبر الورد إنما
فؤادي فما بال المدائح تعبق
تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
حالت لبعدكم أيامنا فغدت
لُسُق عهدكم عهد السرور فما
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا
غيط العدى من تساقينا الهوى فدعوا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا
وقد تكون وما يُخشى تفرقنا
لا تحسبوا نأيكم عنا بغيرنا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به
ويا نسيم الصبأ بلغ تحيتنا
يا روضة طالما أجت لواحظنا
ويا حياة تملينا بزهرتها
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة
كأننا لم نبث والوصل ثالثنا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا
يا جنة الخلد أبد لنا بسلسلها
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً

وقال يودعه:

ودع الصبر محب ودعك
دائع من سره ما استودعك

يقرع السنُّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسني رجم الله زماناً أطلعك!
إن يطل بعدك ليلي فلکم بت أشكو قصر الليل معك
وقال أيضاً:

أما رجا قلبي فأنت جميعه ياليتني أصبحت بعض رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك

نموذج من نشره:

قال من رسالته الجدية:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتماداي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله ماضي حد العزم، وأرى زند الأمل، ثابت عهد النعمة سلبتني أعزك الله لباس نعمائك، وعطلتني من حلى أيناسك، وأظمأتني إلى ورد إسعافك، ونفضت بي كيف حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي لك. فلا غرو قد يغص الماء شاربته، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحين قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهدون غير شماتة الحساد
وإني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا لابد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي الصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مثقفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن بك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم
ومنها: . . . وأعود فأقول: ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؛ والتطاؤل الذي لم يستغفره تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟.

إن لا يكن ذنب فمدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائع، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم، والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه العاثر في

ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت
تهافت الفراش على الشهاب فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب. وأنت راسلني
مستهدياً من صلتني ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف
أشكالك، مرسلأ خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاباً نفسك أنك ستنزل عنها
إلي، وتخاف بعدها علي:

ولست بأول ذي همّة دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ
ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاوة، مفرط الحمق والغباوة. بغيض
الهيئة، سخيّف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، متنّ الأنفاس، كلامك نمّنة وحديثك
غمّمة، وبيانك فهفة، وضحكك فهفة، ومشيتك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة،
وعلمك مخرقة.

مساو لو قُسمن على الغواني لَمّا أمهرن إلا بالطلاق
وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

٥٣ - ابن حمديس الصقلي

١٠٥٥ - ١١٣٣ م

٤٧٧ - ٥٣٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيته منذ حداثة بمعالجة
القريض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يُعرف قدره. حتى
استولى النرمنديون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام
الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى إسبانيا عام
٤٧١، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتد بن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبا به،
حتى قال ابن حمديس: «قنطت لخبيتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي فإني
لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي: أجب السلطان!
فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفئك، وقال لي افتح الطاق

٥٣ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣٠٢/١، والتكملة: ص ٦٣٧، ومطالع البدور: ٣٦/١، ودائرة
المعارف الإسلامية: ١٤٥/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٧٤/٣.

التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتها قال لي :

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدُّجَّة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها فقلت: فعل امرىء في جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية والزمني خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهديّة قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوجُ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجد، كثير الانقباض. شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم وخلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشّد وعلى الشّرب تدور
كالذي يأمر بالكرّ ولا يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إنما استتجناها من شعره، ولا ندري أهى فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره:

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المشرق. ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتفتح مشاعره لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيال والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبرة بينة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٣ وفي رومية سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من شعره:

قال في وصف نهر:

ومُطَرَّد الأجزاء يصقل متنه

جريح بأطراس الحصا كلما جرى

صبأ أعلنت للعين ما في ضميره

عليها شكا أوجاعه بخريره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رآسة

فكأنما غشى النضار جسومها

أسد كأن سكونها متحرك

وتذكرت فتكاتها فكأنما

وتخالها والشمس تجلو لونها

فكأنما سلّت سيوف جداول

وكأنما نسج النسيم لمائه

وبديعة الثمرات تعبر نحوها

شجرية ذهبية نزعّت إلى

قد سُرجت أغصانها فكأنما

وكأنما تأبى لوقع طيرها

من كل واقعة نرى منقارها

خرس تعدّ من الفصاح فإن شدت

وكأنما في كل غصن فضة

وتربك في الصهريج موقع قطرها

ضحكت محاسنه إليك كأنما

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري

كلما تبت ساعة عدت أخرى

ثقلت خطوتي وفودي تعري

دبّ موت السكون في حركاتي

وأنا حيث سرت أكل رزقي

كلما مرّ منه وقت بربح

يارفيقاً بعبده ومحيطاً

مل بقلبي إلى صلاح فسادي

بان عذري فكيف يقبل عذري

لضروب من سوء فعلي وهجري

غيب الليل فيه عن نور فجري

وخبأ في رماده حرّ جمري

غير أن الزمان بأكل عمري

من حياتي وجدت في الربح خسري

علمه باختلاف سري وجهري

منه واجبر برأفة منه كسري

وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً
تغذي بأخلاقي صغيراً ولم تكن
ويارُبُّ نبت تعتريه مرارة
علمت بتجريبي أموراً جهلتها
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة
ركبت النوى في رحل كل نجيبه
ولما رأيت الناس يُرهب شرهم

وقال في الغزل:

عذبت رقة قلبي
وسُمت جسمي سقماً
من لي بصبر جميل
فيا تشوق بعدى!
ووجنة غمستها
لقد جنبحت لسلمي
فالبدلال الذي زا
فكي من الأسر قلباً
ونعميني بعتبي

ظلماً بقسوة قلبك
وما شفيت بطبك
على رياضة صعبك؟
إلى تنسم قربك!
في الورد صنعة ربك
كما جنبحت لحربك
د في ملاحه عُجبك
عليه طابعُ حبك
فقد شقيت بعتبك

٥٤ - ابن خفاجة الأندلسي

١٠٥٨ - ١١٣٨ م

٤٥٠ - ٥٣٣ هـ

نشأته وحياته:

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي وُلد بمدينة شَقَر أو جزيرة شَقَر كما يسميها العرب والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإِسار فلم يَسْم إلى

٥٤ - انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/١٤، وبغية الملتبس: ص ٢٠٢، وصفة جزيرة الأندلس: ص ١٠٣، ومذكرات العناني: ص ٦٤، وانظر الأعلام للزركلي: ١/٥٧.

معالي الأمور، ولم يتول عملاً من الأعمال العامة، ولم يتعرض لاستماعة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد على أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنبها. وتنفس به العمر على تلك الحال حتى أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة ٥٣٣.

شعره:

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتقى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلاب الآراء النضيحة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل، ولهذا الشاعر نثر متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تزهي وقد خلع الحيا عليها جلّى حمراً وأردية خضراً
يذوب لها ريق الغمام فضة ويجمد في أعطافها ذهباً نضراً

وقال يصف نهراً ينساب في أحد المروج قد تعرج مجراه وتعددت مناظره:
لله نهر سال في بطحاء! أشهى وروداً من لَمَى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه، مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مفرعاً من فضة برودة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه منحدرأ متلوياً كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلس:

يا أهل أندلس! لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار!
ماجنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت أختار

وقال أيضاً:

إن للجنة بالأندلس
فسناً صحبتها من شنب
فإذا ما هبت الريح صبا

وقال يصف طيفاً أَلَم به في ليلة طويلة:
ورداء ليل بات فيه مُعانقي
فجمعت بين رُضايه وشرابه
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة
والليل مُشَمَط الذوائب كبرة
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه
تندي بفيه أقحوانة أجرع
وتميس في أثوابه ريحانة
نفّاحة الأنفاس إلا أنها
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها
والفجر ينظر من وراء عمامة
فرغبت عن نور الصباح لنوره

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهمته:
لاعب تلك الريح ذاك اللهبُ
وبات في مسرى الصبا يتبعه
ساهرته أحسبه مُنتشياً
لوجاءه منتقد لما دري
تلثم منه الريح خدّاً خجلاً
في موقد رقرق الصبح به
منقسم بين رماد أزرق
كأنما خرت سماء فوقه

وقال يصف شاباً جميلاً يسبح:

وصقيل إفرند الشباب، بطرفه
يمشي الهوينى نخوة ولربما
شتى المحاسن، للوضاء ربطة
وبمعطفه للشيبه منهل

مجتلى عين ورياً نفس
ودجا ليلتها من لعس
صحت: واشوقي الأندلس!

طيف أَلَم لظبية الوعساء
وشربت من ريق ومن صهباء
شفقاً هناك لوجنة حمراء
خرف يدب على عصا الجوزاء
ويجر من طرب فضول رداء
قد غازلتها الشمس غب سماء
كرعت على ظمأ بجدول ماء
حذر النوى خفاقة الأفياء
فيه بقطر الدمع من أنواء
عن مقلة كحلت بها زرقاء
أغرى بها بينفسج الظلماء

فعاد عين الجد ذاك اللعب
فهولها مضطرم مضطرب
يهز عطفه هناك الطرب
ألهب متقد أم ذهب
حيث الشرار أعين ترتقب
ماء عليه من نجوم حبيب
وبين جمر خلفه ملتهب
وانكدرت ليلاً عليه شهب

سقم، وللعضب الحسام ذباب
أطرتة طوراً نشوة وشباب
أبدأ عليه، وللحياء نقاب
قد شف عنه من القميص سراب

عبر الخليج سباحة فكأنما أموى فشق به السماء شهاب
تطفو لغمرته هناك حبابة ويموج من ردف ألف عباب

٥٥ - لسان الدين ابن الخطيب

١٣١٣ - ١٣٧٤ م

٧١٣ - ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته :

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب : ولد بقرناطة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة ، وتخرج على علمائها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس . ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان قرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥) فاستكتبه ، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضحخم أمره . وما زال في هذا المنصب وتلك الحظوة حتى توفي أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الخامس فأقر لسان الدين في الوزارة . ولكن عقارب الوشاية دبّت بين الرجلين فتكرّر له السلطان ، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه ملوكها . ثم توالى عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه ، فاعتقلوه بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحاده لاشتغاله بالفلسفة . فتسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً .

منزله في الكتابة :

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع ، سائر في صناعته مع الطبع ، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس . وبما ساق الرسالة الضافية كلها على روي واحد . والنثر في الأندلس مبنى الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله . وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفهم السجع ، وعملهم التنميق ، وتوخيمهم الإطالة فهم شعراء بالطبع ، وكتاب بالصنعة ، على غير ما نرى في أهل الشرق .

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة . وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأندلس ، كما انتهت إلى ابن خلدون معاصره في إفريقية . ولأبني الخطيب القدم

٥٥ - انظر ترجمته في : جذوة المقتبس : ص ١٨٤ ، والاستقصاء : ١٣٢/٢ ، والدرر الكامنة : ٤٦٩/٣ ، ودائرة المعارف الإسلامية : ١٥٠/١ ، وابن خلدون : ٣٤١/٧ ، وآداب اللغة العربية : ٢١٦/٣ ، والفهرس التمهيدي : ص ٤١٩ ، وانظر الأعلام للزركلي : ٢٣٥/٦ .

الراسخة في التاريخ ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً ، أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ
غرناطة ، وهو معجم تاريخي لرجال غرناطة في ثلاثة مجلدات .

نموذج من كلامه :

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل :

جارك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلماً في الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو في ما نرسم
زُمرأ بين فرادي وُثي مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم
وروي النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلماً يزدهي منه بأبهى ملبس

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

أي شيء لا مرى قد خلصا فيكون الروض قد كُنْ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً يرما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الأس لبيباً فهماً يسرق السمع بأذني فرس

يا أهيل الحي من وادي الفضا وبقلبي سَكُنْ أنتم به
ضاق من وجدي بكم رجب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تُعْنِقُوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرمأ يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرمأ أفترضون عفاء الحبس

وبقلبي منكم مقتررب
قمر أطلع منه المغرب
قد تساوى محسن أو مذنب
ساحر المقلة معسول اللمى
سد السهم وسمى ورمى
إن يكن جار وخاب الأمل
فهو للنفس حبيب أول
حكم اللفظ نها فاحتكما
منصف المظلوم ممن ظلما
ما لقلبي كلما هبت صبا
كان في اللوح له مكتتباً
جلب الهم له والوصبا
لاعج في أضلعي قد أضرمما
لم يدع في مهجتي إلا ذما

بأحاديث المنى، وهو بعيد
شقوة المغرى به وهو سعيد
في هواه بين وعد ووعد
جال في النفس مجال النفس
ففؤادي نهبة المفترس
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
ليس في الحب لمحبوب ذنوب
لم يراقب في ضعف الأنفس
ومجازي البر منها والمسي
عاده عيد من الشوق جديد
قوله: إن عذابي لشديد
فهو للأشجان في جهد جهيد
فهو نار في هشيم اليبس
كبقاء الصبح بعد الغلس

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:
أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج. وأما الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى
والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر،
على إبر الدبر، بل الضرب الهبر، ومطاوله اليوم الشهر، حتى حكم القهر. وهل للعين أن
تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي
والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا
كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول، أعيت مراوضة الفراق على الراق، وكادت
لوعة الاشتياق، أن تقضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندماً تارة واستمبح الدمع أحياناً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد
الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها، وغلب الثوار على كثير من
أملاكها. وكان العلويون الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم، فاقتطعوا منها
شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفته الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٣٤٦ هـ ثم أرسل خليفته الرابع المعز لدين الله قائده وكتابه جوهراً الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ هـ أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر لله. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٨ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، ومعيناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتون بهديهم، ويسترشدون بوحيتهم، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع، ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشيد المدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أروبة، والعزیز بالله وابنه الحاكم في إفريقية. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقراءها حتى بلغ ما في «خزانة الكتب» التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلم في مصر، فقد كان يندو في داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها «دار الحكمة»، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأباح دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويغنى بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجعلوا لها ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكتابين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وابن برّي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارس

إلى الجدل والمراء حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى.

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فقصت برجال الأدب والفنون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصانع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفاء المفوفة «مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة، وكان نموذجاً صادقاً لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن. وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب. ولم يقم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد». وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استئنان واستباق، فنبح في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جرو على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية. وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة، وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة. ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك. فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده. وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص ١٦٣ ص ٢٢٩ فارجع إليه.

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي المتوفى سنة ٢٧٥: وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق. روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع.

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة ٣٩٤ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه.

وأبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، رحل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنة ٥٦٧.

وهبة الله بن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين
والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته
إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف
بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطه قلاذتهم ومحل
رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شغراء الشرق. وله الموشحة
المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منمطف الجدول

ثم جمال الدين بن مطروح ولد بأسبوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح
الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر
وحضر ورصاً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين بن النبيه، وإليك ترجمته.

٥٦ - كمال الدين بن النبيه

٠٠٠ - ١٢٢٢ م

٠٠٠ - ٦١٩ هـ

نشأته وحياته:

نشأة هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في
الروض الأفح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين
يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى
صاحب الجزيرة وخلاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها
سنة ٦١٩ هـ.

شعره:

ابن النبيه شاعر غمرُ البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، وحسن الوشي مطبوع
على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشد في طلبها، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها
ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلف بالبديع

٥٦ - انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٧١/٢، والأعلام للزركلي: ٣٣١/٤، والنجوم الزاهرة: ٢٤٣/٦،
والعبر: ٨٤/٥، وحسن المحاضرة: ٥٦٦/١.

هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به .
ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه
ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ورحق خمرة سيبه للمعتفي
يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف؟
يا غيم! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الجهم المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها في
عصره . وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر
العباسي ؛ والغزل والوصف، ولا يجيء بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه . فأما
مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح والنصر والبأس والجود . وأما غزله فمن
النوع الحسي الحسي الشهواني الذي لا يتعدى جمال الشكل، من ليل الشعر، وصبح
الوجه، وسحر الجفون، وسهام العيون ولؤلؤ الثغر، وياقوت الشفة الخ . أما الإحساس
القلبي بالحب والإدراك النفسي للجمال فشيء لا تظفر به فيه . والراجح في الظن أنه كان
يقوله على أنه باب من أبواب الشعر، لا على أنه فيض من الشعور، ونور من الإلهام . أما
وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها .

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مغرق في المجاز والتشبيه
والبديع . مجيد للمطالع، محسن للتخلص . وله ديوان طبع في بيروت وفي مصر .

نموذج من شعره :

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي :

باكرُ صبحك، أهني العيش باكره فقد ترنم فوق الأبك طائره
والليل تجري الدراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزهرة
وكوكب الصبح نجاب، على يده مُخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبُّ فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق فابيض خداه وأسودت غدائره
مهفهف القد يندي جسمه ترفاً مخصر الخصر عبل الردف وافر
سود سوافه . لغس مراشفه، نعس نواظره، خرّس أساوره
تعلمت بانه الوادي شمائله وزوت سحر عينيه جاذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتما وأنت ناه لهذا الدهر أمره

فالعسر كالكأس تستحلي أوائله لكنه ربما مُجّت أواخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعة
من لم يذق ظلم الحبيب كظنه
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصر
هل في فؤادك رحمة لمتيم
ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
حلواً فقد جهل المحبة وادعى
بر الجميل فقد عفى وتضعضعا
ضمت جوانحه فؤاد موجعاً؟

ومن غزله أيضاً في بعض قصائده:

أجفانه شَرَك القلوب كأنما
يا قوتة متبسم عن لؤلؤ
ساق صحيفة خده ما سُودت
جمد الذي يمينه في خده
طاب الربيع كأنما عجن الصبا
وتفضضت أزهاره وتذهبت
هاروت أودعها فنون فنونه
خجلت عقود الدر من مكنونه
عبثاً بلام عذراه وبنونه
وحرى الذي في خده يمينه
كافور مُزنته بعنبر طيبه
فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل!
يزيد جمال وجهك كل يوم
وما عرف السقام طريق جسمي
يميل بطرفه التركي عني
إذا نشرت ذوائبه عليه
أيام ملك القلوب فتكت فيها
قليل الوصل ينفعها فإن لم
أدر كأس المدام على الندامي
بمنظرك البديع تدل تيهاً
فمن جفنيك أسياف تُسل
ولي جسد يذوب ويضمحل
ولكن دَلْ من أهوى يدل
صدقتم. إن ضيق العين بخل
تري ماء يرف عليه ظل
وفتكك في الرعية لا يحل
يُصْبِها وأبل منه فطل
فمن خديك لي راح ونقل
ولي ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهورة التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد
والله لا يدعو إلى داره
والموت نقاد، على كفه
لا تصلح الأرواح إلا إذا
فالسابل السابق منها الجواد
إلا من استصلح من ذي العباد
جواهر يختار منها الجياد
سرى إلى الأجسام هذا الفساد

٥٧ - ابن الفارض

١١٨١ - ١٢٣٥ م

٥٧٦ - ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض . أصل آبائه من حماة ووُلد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ ، وتفقه في الدين ، وتوسع في اللغة والأدب ، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية ، فاقتفى آثارهم وعرف أسرارهم . وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زماناً ثم رجع إلى مصر ف قضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ .

صفاته :

كان ابن الفارض على تقشفه وتصوفه جميل الهيئة ، حسن البزة ، ظريف المحضر ، محمود العشيرة ، وقوراً ، كثير الورع ، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء . وإذا حضر مجلساً عقدت هيئته ألسنة أهله فلا يتكلمون . فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل ، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق أملى شعره ! .

شعره :

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصرٌ تنازعَ النفوس فيه عاملان مختلفان : عامل التصوف والتقوى ، لدوام الحروب وتوالي الكروب من المجاعات والموتان ؛ وعامل الفسوق والمجون ، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات ، وانتشار المخدرات . واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين . فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان . وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية ، وربي تربية صوفية ، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره ، ينظم إشاراتهم ، ويصف مقاماتهم ، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل ، مريداً بذلك الذات الإلهية عن اصطلاحهم . فكان بذلك موجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي Symbolisme وهو أكثر الشعراء تعميلاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق ، وأسبراً

٥٧ - انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ٤٥٤/٣ - ٤٥٦ ، وميزان الاعتدال : ٢٦٦/٢ ، والبداية والنهاية : ١٤٣/١٣ ، والنجوم الزاهرة : ٢٨٨/٦ - ٢٩٠ ، وشذرات الذهب : ١٤٩/٥ - ١٥٣ ، وانظر الأعلام للزركلي : ٥٥/٥ - ٥٦ .

معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضي المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذاك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في اغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣).

ومن أشهر شعره تائيته الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت. وقد استوعبت أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتني فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها حديثه عهد من أهيل مودتي

أما سائر شعره فجلي واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

لم أخل من حسد عليك فلا تضع سهري بتشيع الخيال المرجف
وأسأل نجوم الليل هل زاري الكرى جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

أعذ ذكر من أهوى ولو بسلام فإن أحاديث الحبيب مداми
كان عذولي بالوصال مبشري وإن كنت لم أطمع برد سلامي
طريح جوى صب جريح جوارح قتل جفون بالدوام دوامي
ضحج عليل فاطلبوني من المنى ففيها كما شاء التحول مقامي

وقال في الخمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس، يديرها هلال، وكم يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحايتها ولولا سناها ما تصورها الروم
يقولون لي: صفها فانت بوصفها خير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواء، ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما شربت التي في تركها عندي الإثم

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سُكراً فاته الحزم
على نفسه فلينبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

٥٨ - بهاء الدين زهير

١١٨٦ - ١٢٥٨ م

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته :

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى وُلد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب. فلما بلغ أشده واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة بينما خذله قواده، وتألبت عليه أجناده، وانضوا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه، ودعاء الوفاء ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجند بمولاه، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمشي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره :

كان بهاء الدين دميث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذباً يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولة ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيض قريحته، ووحى طبيعته، وصورة بيته. لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه، وتلمح عليه جمال جوّه وتآلقه. وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظاً سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى

٥٨ - انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ٢٠١، ووفيات الأعيان: ٣٣٢/٢ - ٣٣٨، والعبر: ٢٣٠/٥، البداية والنهاية: ٢١١/١٣ - ٢١٢، والنجوم الزاهرة: ٦٢/٧ - ٦٣، وشذرات الذهب: ٢٧٦/٥ - ٢٧٧، وانظر معجم المؤلفين: ١٨٧/٤، والأعلام للزركلي: ٥٢/٣.

أحرار المعاني . وشعره مجموع مطبوع متداول . وقد ترجمه المستشرق الإنجليزي بَلَمَر إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه .

نموذج من شعره :

قال يخاطب المُتَزَمِّت من صروف الدهر :

لا تعتب الدهر في خطب رماك به
حاسب زمانك في حالي تصرفه
والله قد جعل الأيام دائرة
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت
ما كنت أول مفدوح بحادثة
فرب مال نما من بعد مرزاة

إن استرد ففدماً طالما وهبا
تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا
فلا ترى راحة تبقى ولا تعباً
لا تأسفنُ لشيء بعدها ذهباً
كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجباً!
أما ترى الشمع القطف ملتهباً؟

وله في الغزل :

خليليّ أما هذه فديارهم
خليليّ هذا موقف يبعث البكا
فإن كنتما لا تسعداني على الأسي
فيا ويح قلبي بالغرام أطعته!
واني وإياه كما قال قائل :

وأما غرامي فهو ماتريان
فماذا الذي بالدمع تنتظران؟
قفا ودّعاني ساعة ودّعاني
فمالي أراه في السلو عصاني؟
رفيقك قيسي وأنت يمانني

ومن قوله في الغزل أيضاً :

إن شكى القلب هجركم
لو رأيتم محلّكم
قصّروا حدة الجفا

مهّد الحب عذركم
من فؤادي لسركم
طوّل الله عمركم

ومن قوله في المزاح :

لك يا صديقي بغلة
تمشي فتحسبها العيو
وتخال مدبرة إذا
مقدار خطوتها الطويد
تهتز وهي مكانها
أشبهتها بل أشبهت
تحكي صفاتك في الثقا

ليست تساوي خردلة
ن على الطريق مشكّله
ما أقبلت مستعجلة
ة حين تسرع أنملة
فكانما هي زلزلة
ك كأن بينكما صله
لة والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وُضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبت الفطن من غفوتها. فلقد عني خلفاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، وأستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنبد يسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السند هند في الفلك، وكتاب أقليدس في الرياض. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قواها الرشيد بروح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر وكان يحل العلماء على تباين نحلهم، فكان أطباؤه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه وقد ترجم في زمنه منه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل والجبر والنبات والحيوان.

وما أفضت الخلافة إلى المأمون - وهو في العرب كبريكلس في اليونان؟ وأغسطس في الرومان - استعر أوار هذه النهضة العلمية؟ فأتى ما بدأ به آباؤه وأتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حدب ونحلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خير التراجمة فترجم على

خير ما يمكن فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل أصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية وحذا الملوك في الشرق والعرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب وأخترعوا ما لا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلبت الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وأنقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، وظن الناس أن تحصيله سعي باطل، فأقتصروا على شرح الكتب وأختصارها ولم يعنوا إلا بالفاظها.

فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوروباعن طريق المغرب والشام، ففتح لها الغرب صدره، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

العلوم الأدبية

علم الأدب:

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سمو المكانة وفرط العناية لحدائمه عهد القوم بالبداوة، وتمدح رجالاتهم باللسن، وحاجتهم إلى فصيح اللغة وطرف الشعر في استجلاء غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، وأكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يُحفظ في الصدور وتضرب إلى مظانه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرب داء العجمة وأستشرى فساد اللحن، وأختص بالرحلة إليه والتلمس له طائفة من العلماء شهرها بالرواية، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥)، وخلف الأحمر (١٨٠)، وأبي عبيدة (٢٠٩)، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥)، والأصمعي (٢١٦). كانوا يرودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الحافظ هو أول من ضم شتيت الأدب وأستوعب أطرافه بكتابه البيان

والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعهم، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

الأدباء

٥٩ - الأصمعي

٧٤٠ - ٨٣١ م

١٢٣ - ٢١٦ هـ

حياته وعلمه:

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يقدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه الأعراب وساكنهم، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اجتمع له من الأخبار النوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال «إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فلبيل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه قال: «حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً؛ فقال قم إلى هذا الفرس وأمسك كل عضو منه وسمه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لي قم يا أصمعي وأفعل أنت ذلك. فقمت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشدت ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه؛ فقال خذه فأخذه وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه، وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذ قال إنه يحفظ أثني عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع أشتهاره بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر

٥٩ - انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٤٢٨/٥، والمعارف لابن قتيبة: ص ٥٤٣ - ٥٤٤، والجرح والتعديل: ٣٦٣/٥، ومراتب النحويين: ٤٦ - ٦٥، وطبقات النحويين للزبيدي: ص ١٦٧ - ١٧٤، وتاريخ بغداد: ٤١٠/١٠ - ٤٢٠، والأنساب للسمعاني: ٢٩٣/١، وإنباء الرواة: ١٩٧/٢ - ٢٠٥، وتهذيب الأسماء واللغات: ٢٧٣/٢، وانظر الأعلام للزركلي: ١٦٢/٤.

أيضاً، أخذ ذلك عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظرّفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فأحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورُئي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، فقيل له: «أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إليّ من ذاك مع فقده». وهكذا رضي من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٢١٦، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته:

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

٦٠ - أبو الفرج الأصبهاني

٨٩٧ - ٩٦٧ م

٢٨٤ - ٣٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد وأختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسير والبيطرة والطب فنبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فأستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوى بنفوذهم. وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين، بالأندلس سراً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي تقيّة للشيعة ومدارة؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر.

٦٠ - انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١٠٩/٣ - ١١٣، وذكر أخبار أصبهان: ٢٢/٢، والفهرست: هي ١٦٦ - ١٦٧، والمتنظم: ٤٠/٧ - ٤١، ومعجم الأدباء: ٩٤/١٣ - ١٣٦، الكامل في التاريخ: ٥٨١/٨، ومرآة الجنان: ٣٥٩/٢ - ٣٦٠، وتاريخ بغداد: ٣٩٨/١١ - ٤٠٠، وهدية العارفين: ٦٨١/١، ومفتاح السعادة: ١٨٤/١، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٧٨/٤.

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبى وزير معز الدولة ابن بويه. فأنقطع إليه ومدحه وناداه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد خولط قبل موته. أخلاقه وعلمه:

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشي البادرة، تقيي الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قدر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبى على تنطيه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنثور والمنظوم، ثقة فيما يحدث، ناقد لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، وراوي أميناً. وحسنه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغاني.

كتاب الأغاني:

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في باب مثله، وأن كل كتاب في الأدب كل عليه، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشد وزيدت للوائح، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائلها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وأعتذر إليه. وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما أقتناه أستغنى به عنها. وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥ هـ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فأكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة منقحة بمعونة سري من سراة المصريين ولم يتم وقد اختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتبه. نموذج من شعره:

قال يمدح الوزير المهلبى:

ولما انتجعنا لائذين بظله
ورَدْنَا عليه مُفْتَرِينَ فَرَأَيْنَا

وقال يخاطبه من قصيدة:

فداؤك نفسي، هذا الشتاء
ولم يبق من نشبي درهم
يؤثر فيها نسيم الهواء

أعان وما عني ومن وما منّا
ورَدْنَا حماه مجديين فأخصبنا

علينا بسلطانه قد هجم
ولا من ثيابي إلا رمم
وتخرقها خافيات الوهم

فأنت العماد ونحن العفاة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدون في الكتب، وقد أحكمت روابطه، وحُقت ضوابطه، وأشبع الكلام فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحق الحضرمي مُعلِّله، وهرون بن موسى ضابطه، وعيسى ابن عمر أول من ألف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشتغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاورها: أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقيه وتدوينه، ونافسوهم في تحصيله وتفصيله. واشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقربها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين أثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم. فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعفت أنصار الفئتين، فأنقطع النزاع، وأنحسم الجدل، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فسطوه وشرحوه وأقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول وأقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. علي أن هذا العلم مُني بطائفة من فلاسفة النحاة وسُعوا الجدل فيه، فقلّبوا وجوه الألفاظ، وأحيوا مَوْت اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاؤا بالتعديلات الباردة والتقديرية الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطيء عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وما نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من تُرجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناء لأنفسنا في هذا الكتاب.

النُّحَاة
٦١ - سِيَّوِيَّة
٧٦٥ - ٧٩٦ م
١٤٨ - ١٨٠ هـ

نشأته وحياته :

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيوييه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي ﷺ: «ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء»، فقال سيوييه: «ليس أبو الدرداء» فصاح به حماد: لحت يا سيوييه؛ إنما هذا استثناء» فقال: «لا جرم لأطلبن علماً لا يلحطني معه أحد» فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر، حتى حذق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مراعٍ لمستفيد، وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصروا في تسميته على «الكتاب» فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرر إذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له: «هل ركب البحر؟» تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيوييه فليستح» ولولا هذا الكتاب لخمّل ذكر صاحبه.

ولما آنس سيوييه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة، والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين ابن الرشيد فجمع بين الرجلين يحيى بن خالد. فتناظرا في مجلس أعدّ لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسيوييه قوله: ما تقول في قول العرب «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها» فقال سيوييه «فإذا هو هي، ولا يجوز النصب»

٦١ - انظر ترجمته في: طبقات النحويين: ص ٦٦ - ٧٤، والفهرست: ٥١/١ - ٥٢، وبغية الوعاة: ٢٢٩/٢ وأخبار النحويين البصريين: ص ١٥ - ١٦، ووفيات الأعيان: ٤٨٧/١ - ٤٨٨، ومראה الجنان: ٤٤٥/١، والبداية والنهاية: ١٧٦/١ - ١٧٧، ومفتاح السعادة: ١٢٨/١ - ١٣٠، ونفح الطيب: ٣٨٧/٢، والأعلام للزركلي: ٨١/٥.

ووجد في الأصل لهذا الكتاب: أن سيوييه قد توفي سنة ١٧٧ هـ وهو خطأ، وصوبناها من كتاب: سير أعلام النبلاء: ٣٥١/٨، وكذلك من كتاب: الأعلام للزركلي: ٨١/٥: أنه توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل سنة ١٨٨ هـ والاول أصح ١٠ هـ.

فقال الكسائي «بل العرب ترفع ذلك وتنصبه» فلما أشد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوّب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابي على أن يقول بمقالة الكسائي . فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفاً.

٦٢ - الكسائي

٧٣٥ - ٨٠٥ م

١١٩ - ١٨٩ هـ

نشأته وحياته :

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي . نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات ، وتميز بقراءة خاصة فعده من القراء السبعة ولم يكن له يد في الشعر، حتى قيل «ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر» وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوهاً من مَشْيٍ طویل : «لقد عبيت!» فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن! فقال كيف لحت؟ فقالوا له : «إن كنت أردت من التعب فقل أعيت . وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عبيت» فأنف من ذلك التجبيه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندهما . وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله : أنى لك هذا العلم؟ فقال الخليل : من بوادي الحجاز ونجد تهامة . فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى استكمل حظه من الرواية، وأستوفى قسطه من اللغة . ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه . ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين . وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه . ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد برئويه على مقربة من الري فبكاهما وقال : «دفنت الفقه والعربية بالري» .

مؤلفاته :

انتهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من

٦٢ - انظر ترجمته في : التاريخ الصغير : ٢/٢٤٧ ، ومراتب النحويين : ص ٧٤ ، ٧٥ ، وطبقات النحويين : ١٣٨ ، ١٤٢ ، والفهرست : ص ٢٩ ، وتاريخ أبي الفداء : ١٧/٢ ، ودول الإسلام : ١٢٠/١ ، وطبقات المفسرين : ٣٩٩/١ ، ومعرفة القراء : ١٠٠/١ - ١٠٧ ، وتاريخ بغداد : ٤٠٣/١١ ، وسير أعلام النبلاء : ١٣٠/٩ ، والأعلام للزركلي : ٢٨٣/٤ .

عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء،
ورسالة في لحن العامة.

٦٣ - الفراء

٧٦١ - ٨٢٢ م

١٤٤ - ٢٠٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فامتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فأكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب، وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته. فلما ولي المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديه الأدب، وأقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تُفرد له حجرة من الدار ووكل به جوارى وخداما، وسير الوراقين يكتبون ما يملي حتى صنف كتاب الحدود في سنتين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخرنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملي كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهيم بالخروج، ثم أصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له: «مَنْ أعزَّ الناس؟» فقال «ما أعرف أعزَّ من أمير المؤمنين» قال: «بلى، من إذا نهض تقاتل

٦٣ - انظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ص ٥١، ونزهة الألباء: ص ٩٨، والمختصر في أخبار البشر: ف/٣٠، وتذكرة الحفاظ: ٣٧٢/١، وبغية الوعاة: ٣٣٣/٢، ومفتاح السعادة: ١٧٨/١ - ١٨٠، ووفيات الأعيان: ١٧٦/٦ - ١٨٢، ومرآة الجنان: ٣٨/٢ - ٤١، والأعلام للزركلي: ١٤٥/٨ - ١٤٦.

عَلَى تقديم نعليه وَلِيَا عهد المسلمين» فقال: «يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكنني خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليهما، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليهما»، فقال له المأمون: «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رَفَعَ من قدرهما وَبَيَّن من جوهرهما، وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه».

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يملئها عَلَى تلاميذه دون كتاب لقوة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة ٢٠٧ هجرية.

٦٤ - ابن الحاجب

١١٧٤ - ١٢٤٩ م

٥٧٠ - ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقّه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعة أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية ثم عاد إلى الاسكندرية ف قضى بها نحبه سنة ٦٤٦ هـ.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤال والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة

٦٤ - انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ص ١٨٢، وطبقات القراء: ٥١٦/٢ - ٥١٧، العبر: ١٨٩/٥، الطالع السعيد: ص ١٨٨، وشذرات الذهب: ٢٣٤/٥، والديباج المذهب: ٨٦/٢ - ٨٩، ووفيات الأعيان: ٢٤٨/٣ - ٢٥٠، وغاية النهاية: ٥٠٨/١ - ٥٠٩، والأعلام للزركلي: ٢١١/٤.

وما بطأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ وأستعمالها، ففزعوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين خناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل بن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الشائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتواليه حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفيتين، وبدأ بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٢٧٩ لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله. ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فأستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهرى فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجمل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار.

ومما يحمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد، مبنياً ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨، فإنه بين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

٦٥ - الخليل ابن أحمد

٧١٨ - ٧٨٦ م

١٠٠ - ١٧٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد أحمد أو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو

٦٥ - انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ١٩٩/٣ - ٢٠٠، وطبقات ابن المعتز: ص ٩٦ - ٩٩، وطبقات النحويين: ص ٤٧ - ٥١، ومعجم الأدباء: ٧٢/١١ - ٧٧، وإنباء الرواة: ٣٤١/١ - ٣٤٧، والبلغة في =

والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعليه الرواة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. ثم أبدى فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لغيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيماً طول حياته على فاقة وتقشف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجاوفاً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبراً قفاراً وقال له: «كل»، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان» وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله. فقد روي أنه قال: أريد أن أعلم نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فأصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله:

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان على معرفة بالموسيقى. وضع أول كتاب فيها على غير إمام أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للنخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته:

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصده إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً. وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل. وكتاب الإيقاع.

= تاريخ أئمة اللغة: ص ٧٩، وتهذيب التهذيب: ١٦٣/٣ - ١٦٤، وخلاصة تذهيب الكمال: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٣١٤/٢.

٦٦ - ابن دُرَيْد

٨٣٨ - ٩٣٣ م

٢٢٣ - ٣٢١ هـ

نشأته وحياته :

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني ، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان ، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب . ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده ، وهما يومئذ على عمالة فارس ، وألف لهما كتاب الجمهرة في اللغة ، وامتدحهما بالمقصورة ، فقلداه الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه . ولما عزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٢٨٠ فاحتفى به الوزير علي بن الفرات وأفضل عليه . وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي فانقطع إلى العلم والأدب ، وعكف على التأليف ، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١ .

أخلاقه وعلمه :

كان ابن دُرَيْد مولعاً بآلات الطب . مدمناً للخمر ، مفيداً للمال ، مبيداً له في اللهو والهبات ، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنُ نبيذ . فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال : ليس عندي سواه . وقرأ قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) ثم اتفق أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : الحسنه بعشر أمثالها . أخرجنا دناً فجاءنا عشرة .

وقد نبغ ابن دريد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل بن أحمد . وبرع في الشعر حتى قيل فيه : إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وقد وضع على العرب أربعمئة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية . وتوخى فيها جمال الإنشاء ، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة . وهي مثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه

٦٦ - انظر ترجمته في : مروج الذهب : ٥١٨/٢ ، ومعجم الشعراء : ٤٢٥ ، وغاية النهاية : ١١٦/٢ ، ومعجم

الأدباء : ١٢٧/١٨ - ١٤٣ ، والوافي بالوفيات : ٣٣٩/٢ - ٣٤٣ ، وطبقات الشافعية : ١٣٨/٣ - ١٤٢ ،

وتاريخ بغداد : ١٩٥/٢ - ١٩٧ ، ووفيات الأعيان : ٣٢٣/٤ - ٣٢٩ ، والأعلام للزركلي : ٨٠/٦ .

(١) سورة : آل عمران ، الآية : ٩٢ .

من الأخبار والنوادر. ويُظن أنها كانت البلمهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصودته، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمّا ترى رأسي حاكى لونه
واشتعل المبيض في مسوده
ومنها:

والناس كالنبت فمنه رائق
ومنه ما تقتحم العين، فإن
والناس ألف منهم كواحد
وللفتى من ماله ما قدمت
وإنما المرء حديث بعده
واللوم للحر مقيم رادع
 وآفة العقل الهوى، فمن علا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه
إذا بلوت السيف محموداً فلا

طُرة صبح تحت أذيال الدجى
مثل اشتعال النار في جزل الغضا

غض نصير عوده مُر الجنى
ذقت جناه انساغ عذباً في اللها
وواحد كالآلف إن أمر عني
يداه قبل موته لا ما اقتنى
فكن حديثاً حسناً لمن وعى
والعبد لا يردعه إلا العصا
على هواه عقله فقد نجا
أصفيته الود لخلق مرتضى
تذمه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته:

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿طُلِعَها كأنه رءوس الشياطين﴾^(١) فأجاب بأنه كقول امرئ القيس:

أبقتلني والمشرقي مضاجعي
ومسنونة زرق كأياب أغوال

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاء الجاحظ فآلم ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر بن دريد وأبو هلال

(١) سورة: الصافات، الآية: ٦٥.

العسكري ؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم .
ولأنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ ،
وللإمام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ : ذلك اخترع مباحثه وقعد قواعده ، وهذا
مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلها علمين مستقلين .

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز . جمع منه سبعة عشر نوعاً ووقع
معاصره قدامة بن جعفر على عشرين توارده معه على سبعة منها . ثم اقتفاهما الناس
بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين
وأربعين ومائة نوع ! .

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوتها عند استضعاف العرب واستعجام
اللغة . والمشاركة أقوم عليها من المغاربة ، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها ولم يُعن
المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعدوا أبوابه .

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر . وكان يومئذ مقصوراً على
ما يقتضيه الدين من فروعه « كالمغازي » للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات
وقيلت فيها الأحاديث « والفتوح » لعلم ما فتح من البلاد صلحاً أو عنوة ، فينتظم أمر الخراج
والجزية . « والطبقات » للتعريف براوة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين . والعرب
أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ « والأنساب » لتمييز أشرف القرشيين وسادات
القبائل ، فتعلم مراتبهم ، وتقدر رواتبهم . « وأيام العرب » لفهم أغراض الشعر بمعرفة
أسبابه . وأشهر الكاتبيين في هذا النوع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، والواقدي
المتوفى سنة ٢٠٧ ، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ، والكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ ، والأصمعي
المتوفى سنة ٢١٦

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم ، وانقضت الحاجة إلى التاريخ
الخاص بانقضاء أسبابه ، خطوا في التاريخ خطوة واسعة ، واختطفوا فيه خطة جامعة . فكتب
عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على
السنين . فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف . وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعد من
المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي . صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة
٢٢٢ ، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ ، وابن النديم صاحب
الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١ . ثم
عني المؤرخون بتذيل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه . فتعاقب جماعة منهم على

الطبري بالتذييل والتكميل حتى مدوه إلى سنة ٦١٦. وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الأثير ففصل كتابه الكامل من الطبري وذيوله وأضفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ.

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء. وتلك الطريقة على إضجارها القارىء هي الأصيلة عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافاً لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلة الوسائل عندهم، وتأثير الحاكمين فيهم فجانبوا سبيل النقد محاباة للخلفاء ومهاواة للملوك، وكالوا الحوادث جزافاً دون تحقق من صوابها، ولا نظر في أسبابها وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه: كعلم المسكوكات، وعلم السجلات، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه، وتذرعاً إلى الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته، وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياء الفرق فتقوّلوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعُمي على الناس الحق. فشمّر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل وكان

أسبقهم إلى ذلك إسحق ابن راهويه المتوفي سنة ٢٣٨ فماز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعوا صحاح الأحاديث في كتابيهما ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح. وهي كتاب أبي عيسى الترمذي ٢٧٩، وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ٣٠٣، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجة ٢٧٣.

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكلُّ كتاب بعدها كلُّ عليها وراجع إليها.

المحدثون

٦٧ - البخاري

٨١٠ - ٨٧٠ م

١٩٤ - ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته :

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى ونشأ بها يتيماً. فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره. ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف. وفي سنة ٢١١ خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه. فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهاها حتى أرجعه الجد العائر إلى بلاده فأبتلي فيها بفتنة القول بخلق القرآن، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق، فأخرج من بخارى مطروداً، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند.

جمع كتابه «الجامع الصحيح» في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف. وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرار وجوها. وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من «صحيح مسلم».

٦٧ - انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: ٤/٢ - ٣٤، وطبقات الحنابلة: ١/٢٧١ - ٢٧٩، ووفيات الأعيان: ٥٧٦/١ - ٥٧٧، واللباب: ١/٢٣١، وشذرات الذهب: ٢/١٣٤ - ١٣٦، والوافي بالوفيات: ٢/١٦٧ - ١٦٩، وطبقات الشافعية: ٢/٢ - ١٩، ومرآة الجنان: ٢/١٦٧ - ١٦٩، والأعلام للزركلي: ٣٤/٦.

٦٨ - مسلم بن الحجاج

٨٢٠ - ٨٧٥ م

٢٠٦ - ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري . ولد سنة ٢٠٦ ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر . وقدم بغداد غير مرة ، وأخذ عن البخاري وصادقه ودافع عنه . وروى عن ابن حنبل وابن راهويه ، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث . وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة . . . ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور ، وعاش بها وادعا في ظل ثروته وريح تجارته حتى لقي ربه .

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم ، وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه . وكانت المدينة حينئذٍ عس الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث . فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله ، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع . ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص ، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً . وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس . وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية ، وقلة بضاعتهم من السنة ، وتأثير الجنسية الآرية فيهم ، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه . وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز ، وبغداد على المدينة ، والفرس على العرب ، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه ، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك . واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس . ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك ، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبيين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه ، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقيس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية ، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيده في بالسنة وتشدد في الفروع .

٦٨ - انظر ترجمته في : الفهرست لابن خير : ص ٢١٢ ، وتاريخ بغداد : ١٣ / ١٠٠ - ١٠٤ ، والوافي بالوفيات : ١١٩ / ٢ - ١٢٠ وطبقات الحنابلة : ٣٣٧ / ١ ، والتهذيب : ١٠ / ١٢٦ - ١٢٨ ، والنجوم الزاهرة : ٣٣ / ٣ ، وشذرات الذهب : ٢ / ١٤٤ - ١٤٥ ، ومراة الجنان : ٢ / ١٧٤ ، والأعلام للزركلي : ٢٢١ / ٧ ، ومعجم المؤلفين : ١٢ / ٢٣٢ .

وهذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهاء ٦٩ - أبو حنيفة النعمان

٦٩٩ - ٧٦٧ م

٨٠ - ١٥٠ هـ

نشأته وحياته :

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فرس كابل. كان أول أمره خزازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عن شافه الصحابة ونقل عنهم. واشتهر بالنبوغ فيها حتى أراد المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال: «أتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟» فقال له المنصور: كذبت! أنت تصلح. فقال له: قد حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟.

فلم يقتنع وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه. والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين.

صفته وأخلاقه :

كان أبو حنيفة رُبعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً. وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً.

علمه وأدبه :

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكثرة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً. وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: «إنه رجل لو كلمته في هذه

٦٩ - انظر ترجمته في: المقالات للأشعري: ١/١٣٨ - ١٣٩، والفهرست: ص ٢٠١، وطبقات الفقهاء: ص ٦٧ - ٦٨، وتاريخ بغداد: ١٣/٣٢٣ - ٤٥٤، والانتقاء: ص ١٢١ - ١٧٥، والوافي بالوفيات: ٢/٢١٥ - ٢١٩، واللباب: ١/٣٢٥، والجواهر: ١/٢٦ - ٣٢، والبداية والنهاية: ١٠/١٠٧، ومراة الجنان: ١/٣٠٩ - ٣١٢.

السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته، وهو أول من بَوَّبَ الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عَنِّهِ من فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

٧٠ - مالك بن أنس

٧١٢ - ٧٩٥ م

٩٥ - ١٧٩ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلق المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرده وضربه سبعين سوطاً فما ازداد إلا علاء وشرفاً. وما عثم المنصور أن اعتذر إليه وترضاه وقال له: «لم يبق في الناس أفقه مني ومنك». وقد شغلني الخلافة، فضع للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشذائد ابن عمرو وشواد ابن مسعود ووطئه للناس توطئة، فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظهرت عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبلة لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه :

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على ضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله :

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة

٧٠ - انظر ترجمته في: في المعارف: ص ٢٥٠، ٢٩٠، والديباج المذهب: ص ١٧ - ٣٠، والوفيات ٤٣٩/١، وتهذيب التهذيب: ٥/١٠، وصفة الصفوة: ٩٩/٢، وحلية الأولياء: ٣١٦/٦، والانتقاء ص ٩ - ٤٧، واللباب: ٨٦/٣، وذيل المذيل: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢٥٧/٥ - ٢٥٨.

قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وأنفسخ ذرعه في الفقه فأنتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: «قل رجل كنت أتعلم منه مامات حتى يجيئني ويستفتيني» وبذلك سار المثل. «لا يفتى ومالك في المدينة» له كتاب الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

٧١ - محمد الشافعي

٧٦٧ - ٨٢٠ م

١٥٠ - ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر، ونقل بعد عامين إلى مكة، فنشأ في بني هذيل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراى البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً. فقال مالك: «إن أحد يفلح فهذا الغلام»، وفي سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فالتف حوله علماؤها يأخذون عنه، وفيهم أحمد بن حنبل، ولقي محمد بن الحسن فبصره بالقياس. ثم دخل مصر عام ١٩٩ فاتخذها دار إقامته، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهب الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى أصطفاه الله لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه:

كان رضي الله عنه طويلاً نحيلًا، خفيف العارضين، حسن الصوت، والسمت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحجة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله:

كان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في الأنساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والدراسة في اللغة أن قرأ

٧١ - انظر ترجمته في: حلية الأولياء: ٦٣/٩ - ١٦١، الانتقاء: ص ٦٥ - ١٢١، والديباج: ٦٧ - ٢٣٠، والأعلام: ٢٦/٦، وطبقات الفقهاء: ٤٨ - ٥٠، وتاريخ بغداد: ٥٦/٢ - ٧٣، ووفيات الأعيان: ٥٦٥/١ - ٥٦٨، وطبقات الحنابلة: ٢٨٠/١ - ٢٨٤، واللباب: ٥/٢، والوفاء بالوفيات: ١٧١/٢ - ١٨١، والتهذيب: ٢٥/٩ - ٣١.

عليه الأصمعي أشعار الهذليين . وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة » .

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة . وكثر أشياعه في الأمصار فقساموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى . وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين ، وتعددت المناظرات ، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل والراجع أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه . وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات ، والرسالة في أصول الفقه ، ومسند الشافعي في الحديث .

٧٢ - أحمد بن حنبل

٧٦٣ - ٨٥٥ م

١٦٤ - ٢٤١ هـ

نشأته وحياته :

أبو عبد الله ، ابن حنبل الشيباني وُلد ببغداد ، ونشأ بها يتيماً . وطلب الحديث لست عشرة سنة ، وقد كثرت رواياته ، وعرفت ثقافته ، وتميز صحيحه ، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه ، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند . وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه ، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشيء من القياس ، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية . وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون . ودُعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى ، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده وأعتل جسمه . ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة . وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعة ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة . وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره .

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المعتزلة . وهم يذهبون إلى

٧٢ - انظر ترجمته في : حلية الأولياء : ١٦١/٩ - ٢٣٣ ، وتاريخ بغداد : ٤١٢/٤ - ٤٢٣ ، والتهذيب : ٢٠/١ - ٢١ ، وطبقات الحنابلة : ٤/١ - ٢٠ ، والبداية والنهاية : ٣٢٥/١٠ - ٣٤٣ ، والنجوم الزاهرة : ٣٠٤/٢ - ٣٠٦ ، وشذرات الذهب : ٩٦/٢ - ٩٨ ، ومرآة الجنان : ١٣٢/٢ - ١٣٤ ، والأعلام للزركلي : ٢٠٣/١ .

تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فاستفاض فيهم هذا المذهب. وأنصوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرّم نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنصى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها. فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلاً، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العامة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنجى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سرّاً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهواء الحكمة، وجهرّاً في عهد المتوكل وأخلافه محبي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائهم وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة «الماسون» في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣) وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنيين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وأنصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرمانى سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت، أشد فاستبد الملوك بهم مسايرة للشعب، وتحبياً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاية الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها

حتى فرت من وجوههم لائحة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليهِ أبو نصر الفارابي المتوفى سنة (٢٣٩) الملقب بالمعلم الثاني صاحب كتاب السياسة المدنية، ومخترع القانون في الموسيقى. ثم أبو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر باجه المتوفى سنة (٥٣٢) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨٧) صاحب رسالة حي بن يقظان ويحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم.

٧٣ - ابن سينا

٩٨١ - ١٠٣٧ م

٣٧٠ - ٤٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) وُلد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني. ثم أنتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبادئ العلوم. وورد بخارى إذ ذاك أبو عبيد الله الناتلي فأقرأه كتاب إيساغوجي، وخرَّجه في المنطق فبرز عليه فيه، وبصره بمواضع منه. ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسبحي، ودرس فروع وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه. فقصدته الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه. كل ذلك وسَّنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة. ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برَّح به، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه، فقرأ فيها أثمن الكتب وأجلها. ثم اتفق أن أحرق تلك المكتبة فتفرد أبو علي بما فيها. ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً.

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في

٧٣ - انظر ترجمته في: تاريخ الفلسفة في الإسلام: ص ١٦٤ - ١٨٨، والطبقات السنية: ص ٧٦١، وروضات الجنات ١٧٠/٣ - ١٨٥، وإيضاح المكنون: ٥٥٥/٢، والوافي بالوفيات: ٣٩١/١٢ - ٤١٢، والشقائق النعمانية: ٤٧٥/١ - ٤٧٨، إغاثة اللفهان: ٢٦٦/٢، والمجددون في الإسلام: ١٨٥ - ١٨٩، وتاريخ الحكماء للشهرستاني: ص ٤١٣ - ٤٢٦.

الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم أنقلب إلى همدان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فأكتفى بنفيه. ولم تهاده المصائب بعد ذلك فأتهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهم عزمه، وأستبداد الشهوة به أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمدان.

علمه ومصنفاته:

لابن سينا القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يُفْتَن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية وأعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

٧٤ - حجة الإسلام الغزالي

١٠٥٨ - ١١١٢ م

٤٥٠ - ٥٠٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فأختفى بقدمه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فأشتغل بها وهو يعلم. ثم أنقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان. فناصب الفلاسفة العداة وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهد، ونهج سبيل التصوف، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراکش ليلقى الأمير

٧٤ - انظر ترجمته في: تبين كذب المفتري: ص ٢٩١ - ٣٠٦، وطبقات ابن الصلاح: ٢/٢١ - ٢/٢٣، وإتحاف السادة المتقين ٦/١ - ٥٣، وهدية العارفين: ٧٩/٢ - ٨١، ومعجم المؤلفين: ٢٦٦/١١ - ٢٦٩، ومرآة الزمان: ٢٥/٨ - ٢٦، ووفيات الأعيان: ٢١٦/٤ - ٢١٩، والأنس الجليل: ٢٦٥/١، وروضات الجنات: ١٨٠ - ١٨٥، وطبقات الإسني: ٢/٢٤٢ - ٢٤٥.

يوسف بن تاشفين، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس وأشتغل بالتعليم والتأليف. ثم اضطُر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عثم أن يرجع إلى وطنه فأبنتى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته:

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: «لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب» وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

٧٥ - ابن رشد

١١٥٦ - ١١٩٩ م

٥٥١ - ٥٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ويسميه الفرنج averroés ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحثها وشارف غايتها. وفي سنة ٥٤٨ قَدُمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذ طبعاً له ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالف في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بالحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فأستدعاه إلى مراكش وأعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه:

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدد عهد الحكمة،

٧٥ - انظر ترجمته في: الديباج المذهب: ٢٤٨ - ٢٥٠، وشجرة النور الزكية: ١/١٢٩، والصلة: ٥٧٦/٢ - ٥٧٧، وبغية الملتبس: ص ٥٠، وأزهار الرياض: ٣/٥٩، والغنية: ص ١٢٢ - ١٢٥، وهدية العارفين: ٨٥/٢ ووفيات ابن قنفذ: ص ٢٧٠، وكشف الظنون: ص ٣٦١، ١٤١٢.

وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: «إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول». ومذهب ابن رشد وأشياؤه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدرج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فُتد هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، وكتاب «مناهج الأدلة في عقائد الملة»، وعُني بالرد على «تهافت الفلاسفة» للغزالي بكتاب سماه «تهافت التهافت» يقول في آخره: «لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك»، وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي

الْقَصَصُ فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليله ودمنة، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب، حُذِيّا العرب ونموذجاً لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا ليااليهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاهاً. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملاتهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالى المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنف المتغلبين من المغول، وإخلاد الشعب في مصر إلى التبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهرجين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى قبض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عترة، وبني هلال، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمّة، والظاهر بيبرس، وعلي الزبيق المصري، وفيروز شاه. وفي رأي أن هذه

القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحرب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لغتها المشوبة، وأساليبها المبتذلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات: وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميساً للجند، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة.

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي: فكلتاها ولد على إثر الملاحم، وكلتاها ابتداءً بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها غناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها الفني المعروف فظلت في حجر الطفولة. ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَةً في لفائف الميلاد. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة:

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستار للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنييه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنيه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجارياتها دنيازاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكامل نقصانه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوي القلب، وتشحد الخاطر، وتخصب المخيلة.

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثم عني به الفرنج عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم، وأفردوه بأبحاثهم. أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم: فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركبك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

الأمثال

كلىلة ودمنة :

أما الأمثال فمنشأها الشرق؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الطغاة إلا هذه النكايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصيح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، ولأيزوب الرومي، وبيديا الهندي. وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع مترجم كلىلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تفويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة: وضعه باللغة السنسكريتية بيد الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرناً ونيفاً على السنة البهائم والطيور، وعقده على اثني عشر باباً ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله عنها إلى العربية عبد الله بن المقفع، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنها بقيت أصلاً نضرت عنه الترجمات القديمة والحديثة. وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعاً بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (نترة) على ما رواه هرنال Hertal، وهرنال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبك وبرلين في مجلدين سنة ١٩٠٩ م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة نترة) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طيب أنوشروان بامرء. وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندي. وعن هذه الترجمة نقل

ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه. والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيئه. وفي بعض النسخ زيدَ على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطّة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع، وما نسبته إلى علماء الهند إلا أملاً في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمته كثير من شعراء العرب كابان اللاحقي وابن الهبارية، وعأوضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلّة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كليل ودمنة ثم ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليل ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيها التطويل والحشو وإنشاءها يضعف العمل والتكلف.

المقامات وكتابتها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحّة. ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضوع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً إلى أن قيل لما يقام من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوارد التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلد أكثر مما يفيد. ولم تُراعَ قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كابي زيد السروحي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري

في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفاجأ في كل سر. ثم يروي للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى بن هشام في مقامات البديع، والحارث بن همام في مقامات الحريري.

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثاً عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملأ أربعمئة مقامة في الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحارث بن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السرقسطية لابن الأشركوني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام. ومقامات الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى بن سعيد ابن ماري النصراني البطري الطيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوي فيها القعقاع بن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية. نسبها إلى أبي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم بن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.

الباب الرابع

العصر التركي بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة؟

انتكث قتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك، وتحارب الشيعة والسنة، وذهب جلال الخلافة من النفوس، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء، حتى قوض عرشها هلاكاً سنة ٦٥٦ هـ. وتضعضع أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازدرادها قطعة قطعة، حتى ابتلعوها لقمة سائغة سنة ٨٩٨ هـ. وزالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعتا في أيدي الأيوبيين، ثم صارتا إلى المماليك، وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين ٩٢٣ هـ. فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهباً مقسماً بين المغول والترك والفرس والجركس ثم الأسبان بعد قليل. وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أميون أيديهم على تراث العرب، فخرّبوا الديار وهتكوا الخدود، وفجعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد، وتقتيل العلماء. وناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد، والصليبيون بالشام؛ والفرنج بالأندلس! فلو أن الزمان عفى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بذعاً من القول ولا حدثاً في التاريخ ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لساناً للدين والعلم، ولغة للحكومة والأمة، في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة. ولولا نُعْرَةُ الترك وعصبية الفرس لكانت لغة المسلمين كافة.

والفضل في بقائها على فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم، وللأزهر الشريف، ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك؛ فقد كانوا لها رداءً، ولأبنائها حرزاً، ولعلمائها وزراً، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق؛ لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدّبوا بأدب العرب ونبغ فيهم الشاعر والعالم

والمؤرخ، كالمملك الأفضل علي بن صلاح الدين المتوفى سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨، والمملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة ٧٢٢. وكذلك قل في الممالك فقد نبغ فيهم أحد السلاطين في الشعر وهو قانصوه الغوري المتوفى سنة ٩٢٢، لأنهم اتخذوا مصر وطناً، والإسلام ديناً، والعربية لغة، وعضدوا العلماء وقربوا الأدباء، وشدوا أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ في ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة والعلوم في المجموعات والموسوعات، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص، وهذبوا التاريخ ووضعوا فلسفته، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضله، والمستمعين إلى أهله، كابن منظور صاحب لسان العرب، والفيروزآبادي صاحب القاموس، وابن خلدون منشىء المقدمة، والقلقشندي جامع صبح الأعشى.

والشباب الظريف وصفي الدين الحلبي، وابن الوردي، وابن معنوق، والصفدي، ولكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة الشكلى وقد كُتبت بينها الجداول العوثر، فأمحت من الهند وخراسان وفارس والعراق وبلاد الروم والأندلس، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد وثقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الذماء.

ولقد كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر العباسي، ولكنهم في الغالب لم يحسنوا التقليد، ولم يصيبوا الغرض؛ فتبدلوا في اللفظ، وتوغلوا في الصنعة، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى إذا حال ذلك دون تورية أو سجة أو جناس.

فلما أزال الله بني عثمان من الممالك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية، وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة، واللغة الرسمية التركية لا العربية ففشا في اللغة الدخيل، وزاحمتها العامية والتركية في الدواوين، وذهبت أساليبها من النظم والنثر، وتمكن الذل من النفوس فخدمت القرائح، ونضب معين العلم، واطمأنت الكتب في الخزائن فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضية في صفحاتها، وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعمو، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا، وطال عليهم الأمد فغشاهم النعاس، وخيم عليهم الظلام، فلم يستيقظوا إلا بمدافع نابليون على أبواب القاهرة!

أعلام هذه المفازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح، ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر، أو بارق في جو الشام. وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود اللغة، ورفعوا سقوط الأدب، وجمعا شمل العلم، ولولاهما لانتقطع ما بين الأدبين: القديم والحديث. وما كان

أرواح للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطني وجيرتي ! ولكن البحث محدود والقلم موجز. ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر أسمائهم مُعَقَّبَةً بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب، اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة المطمئنة بالإحسان والفضل.

فمن النابغين في الشعر والأدب التلعفري، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ واتصل بالملك الأشرف موسى، ثم هلك سنة ٦٧٥ هـ فريسة للقمار. والشاب الظريف، ولد بمصر وتوفي بها غص الإهاب سنة ٦٨٨ هـ والبوصيري صاحب البردة في مدح الرسول، ولد وتوفي بمصر سنة ٦٩٥ هـ، وابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدباء في عصره وصاحب خزانة الأدب، توفي سنة ٨٢٧ هـ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١ هـ، ثم صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ، وابن معنوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ وشعرهم مثقل بقيود الصنعة، محصور في دائرة التقليد، تغلب فيه مظاهر الضعف الخلقي كالجبين والملق والشكوى والإغراق والقححة. إلا أن في بعضه أثارة من الحسن وبقية من البيان. والنابعون في اللغة وعلومها ابن مالك صاحب الألفية المتوفى سنة ٦٧٣، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المغني في النحو المتوفى سنة ٧٦١ هـ والفيروزآبادي صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ. وهؤلاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا مواردها في الكتب والمعجمات. ونوابغ التاريخ والجغرافية، ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنبياء في طبقات الأطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ. وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة ٦٨١ هـ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، والمقريزي صاحب كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ، ثم ابن الطقطقي صاحب الفخري المتوفى سنة ٧٠١ هـ، وابن خلدون منشيء المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ، والمقري صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ، وطريقتهم في التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث، واستنباط العبر، والحكم بشيء من النقد، والخوض في بعض مسائل العلم والاجتماع. فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم.

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة: النويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبهصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ، وجلال الدين السيوطي صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ، وكمال الدين الدميري صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ. وهم أصحاب الفضل جميعاً في ضم شتيت العلم والأدب في أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة. فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالعقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر، وتخونتها أعراض

الهرم، حفظاً لكتابه وصوناً لدينه، فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما اندرس، ويرأب فيها ما انصدع، وينقذها من يد البلى والعفاء.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدأ كوكب تأوي إليه كواكبه

وما نحن أولاء نترجم بذوي الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك.

٧٦ - صفى الدين الجلى ٦٧٧ - ٧٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد صفى الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالجلّة في العراق وبها نشأ وتأدب. ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمى الملوك من آل أرتق (٦٦٣ - ٧١٢)؛ فحلوا عقدة الخوف عن قلبه، ونزل منهم في جناب مريع. فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به؛ وسماها (درر البحور في مدائح الملك المنصور) وهي المعروفة بالارتقيات.

وفي سنة ٧٢٧ هـ ورد مصر فمثل بين يدي الملك الناصر بن قلاوون ومدحه فملاً يديه بجوائزه. وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفي بها.

شعره:

لا خلاف في أن صفى الدين زعيم الشعراء في عصره. ولا تزال في شعره بلة من فصاحة اللفظ وبقية من رشاقة الأسلوب. امتاز في الصنعة ما شاء، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وغالى في المجون والأحماض، ودخل في أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه. واخترع في النظم أنواعاً، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس:

و لكن نجمي في المحبة قد هوى	و حق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى
وأضنى فؤادي بالقطيرة والنوى	ومن كنت أرجو وصله قتلي نوى
إن أصابني نصب	ليس في الهوى عجب
يستحقه (الطرب)	حامل الهوى تعب

٧٦ - انظر ترجمته في: الدرر الكامنة: ٣٦٩/٢، وفوات الوفيات: ٢٧٩/١، وآداب اللغة: ١٢٨/٣، والنجوم الزاهرة: ٢٣٨/١٠، ونزهة الجليس: ٢٠١/٢، وشعراء الحلة: ٢٧٠/٣ - ٢٩١، والذريعة: ٣٣٧/١، وانظر الأعلام للزركلي: ١٧/٤ - ١٨.

نموذج من شعره :

قال في الحماسة :

سل الرماح العوالي عن معالينا
وسائل العرب والأتراك ما فعلت
لما سعيننا فما رقت عزائمنا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد
بضممر ما ربطناها مسومة
وفتية إن نقل أصغروا سامعهم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
تدرعوا العقل جلباباً فإن حميت
إذا أدعوا جاءت الدنيا مصدقة
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرقاً
بيض صنائعنا، سود وقائعنا،
لا يظهر العجز منا دون نيل منى

وسائل البيض هل خاب الرجا فينا؟
في أرض قبر عُبيد الله أيدينا
عما نروم ولا خابنت مساعينا
دنا الأعداء كما كانوا يدينونا
إلا لنغزو بها من بات يغزونا
لقولنا أو دعوناهم أجابونا
يومنا وإن حكموا كانوا موازيننا
نار الوغى خلّتهم فيها مجانينا
وإن دعوا قالت الأيام آمينا
أن نبتدىء بالأذى من ليس يؤذينا
خضر مرابعنا، حمر مواضعنا
ولو رأينا المنايا في أمانينا

٧٧ - ابن منظور

١٢٣٢ - ١٣١١ م

٦٣٠ - ٧١٤ هـ

نشأته وحياته :

ولد جمال الدين محمد بن المكرم بالقاهرة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ في بيت من بيوت العلم، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن أبي الطفيل ومرتضى بن حاتم وابن المقبر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء. والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضي مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى ثم ولي قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتر عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه.

٧٧ - انظر ترجمته في: فوات الوفیات: ٢/٢٦٥، وبغية الوعاة: ص ١٠٦، وحسن المحاضرة: ١/٢١٩، والدرر الكامنة: ٤/٢٦٢، ونكت الهميان: ص ٢٧٥، ومفتاح السعادة: ١/١٠٦، وآداب اللغة: ٣/١٤١، وروضات الجنات: ص ٧١٢.

وكان ابن منظور صاحب جد وخلق وإرادة. وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك. وقد توفي بالقاهرة.
مؤلفاته:

لم يكن ابن منظور من أولي الاقتدار على الابتكار، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار. وقد قال الصفدي صلاح الدين: «ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصر جمال الدين بن المكرم». فمن مؤلفاته:
لسان العرب:

وهو ذلك المعجم الجامع الذي حوى بين دفتيه تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير. وقد رتب المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهيل الاستفادة منه. وتحرى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأييدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر.

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدي أن النسخة الأولى التي كتبها بخطه الجميل من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالي ناظر ديوان الإنشاء بمصر، وهي مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً. ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ. ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما، والاصطباح ومدحه، والهلال وظهوره، وانبلاج الفجر، ورقة النسيم وقت السحر، وتغريد الطيور على الشجر، والشمس والكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ... وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار كمختار الأغاني، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ، ومختصر اليتيمة للشعالي، ولطائف الذخيرة لابن بسام.

ولقد كان يتعاطى الشعر ويجيده، ومن ذلك قوله:

ضع كتابي إذا أتاك على الأر	ض وقلبه في يديك لمأما
فعلى ختمه وفي جانبيه	قبل قد وضعتهن تؤاما
كان قصدي بها مباشرة الأر	ض وكفيك بالتأامي إذا ما..

وقوله:

بالله إن جزت بوادي الأراك	وقبلت أغصانه الخضر فاك
فأبعث إلى المملوك من بعضه	فلأنني والله مالي (سواك)

٧٨ - أبو الفداء

١٢٧٣ - ١٣٣١ م

٦٧٢ - ٧٣٢ هـ

نشأته وحياته :

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة. وُلِدَ بدمشق على مهاد السراوة والفضل ورُبي في حجر الرخاء والنعمة، واستكمل حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة. وكان بطلاً مقداماً. خدم الملك الناصر ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده، فأقامه عليها سلطاناً مطلق الإرادة حرّ التصرف، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة، فمشى الأمراء والكبراء في خدمته. وكان أبو الفداء يحمل إليه في كل عام أفخر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر. وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء، ظهيراً للعلماء، ولوعاً بالتأليف، حتى استخار له الله ما عنده.

مؤلفاته :

لأبي الفداء كتابان في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين. فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة ٧٢٩، وقد لخصه من عشرين كتاباً ونبأاً وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين. وتحرى في نقل الحوادث الصديق والنقد. والآخر كتاب (تقويم البلدان) جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك، وضبط الأسماء، وحقق الأطوال والأعراض، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس. وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية.

٧٩ - ابن خلدون

١٣٣٢ - ١٤٠٦ م

٧٣٣ - ٨٠٨ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون؛ ينتهي نسبه إلى وائل من

٧٨ - انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١٥٨/٤، وآداب اللغة: ١٨٧/٣، والنجوم الزاهرة: ٢٩٢/٩، وطبقات السبكي: ٨٤/٦، والفهرس التمهيدي: ص ٢٥٣، وفوات الوفيات: ١٦/١، وروض المناظر في حوادث سنة: ٧٣٢، والدرر الكامنة: ٣٧١/١.

٧٩ - انظر ترجمته في: نيل الابتهاج: ص ١٧، وتعريف الخلف: ٢١٣/٢، ونفح الطيب: ٤١٤/٤.

أفيال كندة. هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في أشبيلية. ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث وُلد هذا العالم الكبير سنة ٧٣٣ هـ. ودرج في مهده السراوة والعلم، وتأدب على أبيه ثم على غيره؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم. وبرع في الفقه والعربية وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه، حتى أصبح فيه قريح دهره ونسيج وحده وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب، وتقلد الكتابة والحجابه والقضاء؛ إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزة نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده.

فلما كانت سنة ٧٦٤ وفد على الأندلس فاهتز له الغني بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته، وألزمه مجلسه وانفرد به دون وزيره. فحقد عليه هذا حقداً عرفه ابن خلدون، فغادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه. ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاه على تمنع منه قضاء المالكية، فأقام المعدلة، وحكم المنصفة وضر على أيدي القضاة. فثار به ثائره واخلقوا عليه الأكاذيب ورفعوا شكواهم إلى السلطان فلم يقم لكلامهم وزناً. ولكن ابن خلدون سئم هذه الحياة المرة، وضجر من تلك المكائد المستمرة. ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس، فنالت منه هذه المحنة، فاستعفى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالفيوم أقطعها السلطان إياها، وانصرف إلى التدريس والتأليف. ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الحظوظ، فما زال يولى ويعزل، وينصر ويخذل، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ.

أخلاقه:

قال فيه لسان الدين، ابن الخطيب: كان رجلاً فاضلاً، حسن الخلق، جم الفضائل، ظاهر الحياء، وقور المجلس، خاص الزي، عزوفاً عن الضيم، صعب المقادة، خاطباً للحظ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية؛ سديد البحث، كثير الحفظ، بارع الخط، مغرئ بالتجلة، حسن العشرة، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤها وأثارها. نشره وشعره:

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حدّه. فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى. وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته

وآداب زيدان: ٢١٠/٣، والضوء اللامع: ١٤٥/٤، ودائرة المعارف الإسلامية: ١٥٢/١، وانظر الإعلام للزركلي: ٣٣٠/٣، والعبر: ٣٧٩/٧.

لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول: «وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون أن يشاركني أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل فانفردت به يومئذ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة. ثم أخذت نفسي بالشعر فاثالت عليّ منه بحور، توسطت بين الإجادة والقصور». وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب.

كتابه في التاريخ:

نظر ابن خلدون في التاريخ فحرر مباحثه، وغلل حوادثه، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات. يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة والصراحة في القول، والسداد في الرأي، والإنصاف في الحكم.

على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة. لاشتماله على أبحاث مبتدعة متنوعة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالعه أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول: الأول في النشوء والارتقاء، والثاني في الاجتماع، والثالث في السياسة العملية، والرابع في الهندسة الحربية، والخامس في الاقتصاد السياسي، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية، فهي خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المتسق.

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليفة. وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل. على أن العلماء أخذوا عليه إجلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقه. وسبحان من تفرّد بالكمال!

٨٠ - السيدة عائشة الباعونية

٠٠٠ - ١٥١٦ م

٠٠٠ - ٩٢٢ هـ

نشأتها وحياتها:

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، ولدت بالصالحية

٨٠ - انظر ترجمتها في: الدر المنثور: ص ٢٩٣، وشذرات الذهب: ١١١/٨، والكواكب السائرة: ٢٨٧/١، وانظر الاعلام للزركلي: ٢٤١/٣.

بدمشق في بيت عريق في العلم والورع، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلت من حياضهم، وجنت من رياضهم. ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين إسماعيل الحواري، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري. ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير. ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين، في مدح الأمين، وهو شرح لقصيدتها التي نظمها في علم البديع على منوال ابن حجة، وكتاب فيض الفضل، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو مولد النبي ﷺ اشتمل على رقائق النثر والنظم.

منزلتها في الشعر والكتابة:

يشير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباعونية تبذُ الرجال في العلم والأدب، ولا يعيها أن تكلف بالسجع، وتتكلف البديع وتغري باللفظ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنع بيته. والشعر الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه. وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور بالصناعة اللفظية، وانصرفوا إلى المعاني الدينية، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق عصرها، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها.

نموذج من كلامها:

قالت في مقدمة شرح البديعية:

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع، شاهدة بسلامة الطباع، منقحة بحسن البيان، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان، سافرة عن وجوه البديع، سامية بمدح الحبيب الشفيع، مطلقة من قيود تسمية الأنواع، مشرقة الطوالع في أفق الإبداع، موسومة بين القصائد النبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة أهل الإشارات، بالفتح المبين، في مدح الأمين.

ومطلع هذه القصيدة:

أصبحت في زُمرة العشاق كالعلم
والجارُ جارٌ بعدل فيه متهم

في حسن مطلع أعمار بذى سلم
أقول والدمع جارٍ جارحٌ مقلي

ومنها في الجناس:

وجئت سَلْعاً فسل عن أهلها القدم
سويلع حيُّهم وانزل بحيُّهم

يا سعدُ إن أبصرت عيناك كاظمة
فثم أعمار ثم طالعين على

ومنها في الاستخدام:

واستوطنوا السر مني فهو موضعهم ولا أبوح به يوماً لغيرهم

ومنها في التفريق:

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونة يهمني وغيث نداه لا يزال همي

ومنها في حسن الختام:

مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي فيه وحسن امتداحي فيك مختمي

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق:

بني سلطاننا برقوق جسراً يأمر والأنام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة

ومن نظمها في وصف دمشق:

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ماتشتهي وماتختار
هي في الأرض جنة فتأمل كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرق من وجوهه الأقمار
وتناغيك بينها صادحات خرسى عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماد زلال وقصور مَشيدة وديار

الباب الخامس

العصر الحديث

الفصل الأول

نظرة عامة

ما زال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب: وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل، فأرفض عنها الوهن وسرت فيها الحياة. ففي مصر كان ملاذها وغيائها، وفي مصر كان بقاؤها وأنبعائها!

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً، وتحت سيطرة المماليك فعلاً. وكانت الأهواء المختلفة، والقوى المتضاربة، والأجناس المتباينة، تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشت فيهم الأمية. وأستولى عليهم الجهل وألحت عليهم الأوباء والسنون. وأستغلهم الظلم وأستعبدتهم الحكام. ووقفوا عن السير بأنفسهم، وتحرك الفلك، فغزاهم على هذه الحال الأليمة نابليون.

غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية. فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر، فأنشأوا مدرستين وجريدتين ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً، ومكتبة، ومطبعة، ومعامل كيميائية ومراصد فلكية، وسهلوا للناس النظر إليها، والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقبس الوضاء سطع في ذلك الغيب الذي احلوك في سماء مصر فبدده، وأستطاع الناس أن ينظروا؛ ولكن ماذا رأوا؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة، مجد في تذليل المادة، فبهتوا ودهشوا.

ولكن محمد علي رأس الأسرة الخديوية لم يدهش. بل علم أن ما في الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم. وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم، وكان في نفسه الطموح إلى الملك، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له. فأخذ في تعليم المصريين وقد عز فيهم القارىء، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً. وأستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف. كالدكتور كلوت بك مؤسس الطبعة، وجوماربك مدير البعثة المصرية. وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ليستفيدوا ويستزيدوا. فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا في الترجمة والتعليم. ثم توالى البعث بعد هؤلاء إلى أوروبا وكلهم من الأزهر الشريف. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط. وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة، وأقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم. وأنشئت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق، فكان ذلك كله وقوداً جزلاً للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا وأشتعل وأمتد لهيبه إلى الشام إلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام. وَخَذَى الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر، وأعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع وتأليفهم الكتب، وإصدارهم المجلات وتعليمهم التمثيل، وأعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان، فتكاثف القطران على إحياء اللغة والعلوم، فترجمت الكتب العلمية، ونشرت المؤلفات العربية، ودب في اللغة ديب الحياة؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء؛ لأن محمداً علياً كان مصروف الهم إلى ما يُعوزُه، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية، قانعاً من كتابه وعماله باللسان العامي، والأسلوب الاصطلاحي. فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مبهماً معجماً من التركية والعربية.

على أن اللغة المصرية لم تعد في ذلك العصر أنصاراً. فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار، وبطرس كرامة، والسيد علي الدرويش، ورفاعة بك الطهطاوي، من حفظوا كيانه وجددوا بيانها.

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً حتى ولي الأمر عباس ثم سعيد، فحبا أوارها، ووقف تيارها، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم.

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة ١٨٦٣ م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد

عليها. فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، وعاد إلى إرسال البعث إلى أوروبا، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يده للمؤلفين، ونشر ألوية المدنية والسكينة على ربوع البلاد، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة، وفيهم العلماء والأدباء؛ فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين، وكثرة المطابع، ووفرة المدارس، وانتشار الصحافة، وأقتباس التمثيل، وترجمة العلوم، والأنندية الأدبية، والمجامع العلمية، وتعلم اللغات الأجنبية؛ ونقل الحضارة الأوروبية، والحرية الشخصية، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح، وسعة المدارك، ونهوض اللغة، وحياة الأدب.

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م وكل شيء يتحفز للنهوض ويتوثب إلى الرقي، فكأنما ألقيت ماء على نار، أو أقمت سداً في تيار. كانت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، والمدارس وافرة العدد، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسIRON بالتعليم إلى وجهة أخرى. فأغفلوا البعث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

ولكن الأمة المصرية قد أستطاعت أن تقف على رجلها، وأن تمسح عينيها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم. فهبّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم. ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعث إلى أوروبا، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية. وشبت ثورة الاستقلال في وجه الاحتلال سنة ١٩١٩ م وردد العالم العربي صداها، فأيقظت ما بقي من شعور خامد، ودفعت النفوس الخائفة إلى طلب الحرية في الحكم، والرأي، والقول، والعقيدة حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة ١٩٢٣ م.

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة ١٩٣٦. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام ١٩٤٥ طلبت مصر من إنجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل. وعارضت إنجلترا في الأساس الأول فالتجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية. فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا، وتولى عرضها رئيس حكومتها، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي، قطع لسان الباطل بالحق، وفند دعاوى

الإنجليز بالحجج الدامغة؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصري بقيادة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فعصفت بالفساد والاستبداد، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغنى فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر، وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية.

وفي شهر فبراير عام ١٩٥٨ اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة. وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهوري وفي الرابع عشر من يوليو من سنة ١٩٥٨ ثار العراق على الملكية وأعلن الجمهورية، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون الغاية من هذه السبيل، ويترقبون الإصباح بعد الليل المظلم الطويل:

الفصل الثاني

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي ، ونزعة الاستقلال عند محمد علي ، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها - تلك الومضات هي الوسائل التي تذرع بها رأس الأسرة العلوية ووراثه على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر، وأهم تلك الوسائل :

١ - المدارس

لم يجد محمد علي فيما يُعَلَّم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة ، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة ، ووصل بينها وبين أوروبا يجلب العلماء منها ويبعث البعث إليها . فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة ١٨٣٩ سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى . ومن أقوى المدارس الخاصة أثراً في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم . فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة ١٨٣٦ في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتعريف الطلاب ومعالجة المرضى . استقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك ، وأختير طلبتها من المصريين وغيرهم ثم نقلت في سنة ١٨٣٨ إلى قصر ابن العيني بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة ؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة العربية ، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة .

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب ، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية . وجعل

إدارتها إلى المرحوم رفاعه بك الطهطاوي . حتى إذا خرُجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ برئاسة رفاعه بك أضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة .

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك في سنة ١٨٧١ م بأمر الخديو اسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة . وكان أساتذتها من نابغي شيوخ الأزهر، وتلاميذها من متقدمي طلابه . ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على السنة خريجياً وأقلام في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة . وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ وسميت كلية دار العلوم .

٢ - الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم بناه جوهر الصقلي بعدما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين . وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض، وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم أكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى جاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله، وهو يهودي قد أسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع . ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرأون بعد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون في سبيل الوعظ، ويميلون إلى شيء من البحث، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو، ويعقدون فيه مجلس المناظرة، حتى زالت دولة الفاطميين، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة ٥٦٧ وهو من أهل السنة فبايع العباسيين، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر . وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد . ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه . وجرد ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية، والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية . وزها الأزهر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر، فحفظ اللغة من الزوال، وعلومها من الاضمحلال . وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي، لا يخرج عالم إلا منه، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه . حتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم، باق على مذهبه الموروث . ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة نابليون في تنظيم عمله، وساعد محمد علي في تحقيق أمله، وموئل

اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية . ولكن مصر هبت من رقادها، ولم تجد الأزهر كما كان كفواً لقيادتها وإرشادها، فولت وجهها شطر الغرب تكرر من حياضه وتقطف من رياضه، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم، وانتشرت في مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداهما الأخرى. ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشترك في النهضة العامة. بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الإنباي سنة ٣٠٥ هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد ولاي ومشقة وفتوى شرعية ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه، فوضع الأساس، وحال الأزهريون بينه وبين البناء. ولكن السيل جارّف والتيار قوي فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله، فألقوا السلاح، وقبلوا الإصلاح، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسة وأخرى دنيوية. فأثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن.

ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائي، وأخرى للتعليم الثانوي، وجعل التعليم العالي فيه فروعاً، فكلية للشريعة، وكلية للغة العربية، وكلية لأصول الدين، وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر. ونمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والأندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأغراب الغذاء والمأوى.

٣ - الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدا من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً في بلادهم، فأجتمعت طائفة منهم سنة ١٩٠٦ على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم. وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير، فلبى المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل. وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رئاسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوي على عرش مصر. فاستقدم إليها طائفة من علماء أوروبا، وأختار لها صفوة من أدباء مصر، فألقوا على طلبتها من الأزهرين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة: وكان من بين

العلماء الأوروبيين المستشرقون جويدي ونلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح .

وفي سنة ١٩٢٥ تولتها وزارة المعارف فشادت لها الأبنية العظيمة ، وأقتبست لها الأنظمة الأوروبية الحديثة ، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الأسنان ، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب ، ثم سميت بجامعة القاهرة . ولما اشتدت الرغبة في التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الإسكندرية وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت بحامعة عين شمس . وفي أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط . ومما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتت ثمار العلم ، ونشرن أضواء الثقافة ووصلن الماضي بالحاضر ، وربطن الشرق بالغرب ، وقرن العلم بالعمل ، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة .

٤ - الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف «حنا جوتمبرج» الألماني سنة ١٤٤٠ ، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان . وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوروبا حتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية . وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة ١٥١٤ م وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوروبية . وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد ، ونزهة المشتاق للإدريسي . وقانون ابن سينا ، وتحرير أصول إقليدس وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن . ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الأستانة ١٤٩٠ م على يد عالم يهودي طبع بها مؤلفات دينية وعلمية ؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة ١٧٠٨ م . ومن أشهر المطابع العربية في الأستانة «مطبعة الجوائب» لأحمد فارس الشدياق ؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية . أما في البلاد العربية فكان سبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاء المسيحية ؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت في أوائل القرن السابع عشر . ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ م ، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة ، وطبع الكتب الأدبية والعلمية ، وإتقان فن الطباعة العربية ، ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة ١٧٩٨ م ، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها «المطبعة الأهلية» ثم ذهبت معه . وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة ١٨٢١ . وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري ، وصبت حروفها على جمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة . ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر ، وهي المستعملة الآن . وقد طبعت نحو

ثلثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات الأجنبية وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية. ومنذ يومئذ اقتضت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم. ثم انتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم، وساعدت على انتشار القراءة.

٥ - الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان. وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم: تهذب عقول العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم القاعدة، وتصلح الألسنة الفاسدة، وتقرب الأمم المتباعدة. وهي سجل الأخبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن. وأول جريدة عربية بالمعنى الفني المعروف هي الوقائع المصرية، أنشأها الأمير محمد علي سنة ١٨٢٨ بمعاونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوي، وكانت تصدر أولاً بالتركية والعربية، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك، والإمام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول. ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات في الأسبوع. ثم ظهر بعد ذلك في الشام جريدة مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥ م وهي سياسية يحررها رزق الله حسون الحلبي؛ وحديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ م لصاحبها خليل الخوري؛ والجوائب في الأستانة سنة ١٨٦٠ لأحمد فارس الشدياق؛ وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة ١٨٦١ م.

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي (اليعسوب) وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم. وفي سنة ١٨٦٦ ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود أفندي، كانت تصدر مرتين في الأسبوع بالقاهرة. وفي سنة ١٨٦٩ أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغها الخديو إسماعيل. وفي سنة ١٨٧٠ م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب. ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦ م وسياستها عثمانية فرنسية، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية، والوطن سنة ١٨٧٧ م وهي جريدة طائفية احتلالية. وعلى مناهجها سارت جريدة مصر؛ والمحروسة لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠. وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة ١٨٨٨ م وهي احتلالية. والمؤيد وهي إسلامية خديوية. واللواء وهي إسلامية وطنية. والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية. وتلك هي كبرى الصحف

اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة، وأكثرها أنقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر في مصر، والأديب والآداب في بيروت، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق وأكثر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجبت لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء.

والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل. ومما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقي التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوروبية، وخلاطهم للأمم الغربية.

٦ - التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي. وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية ودراساتهم للآداب الإفرنجية. وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ فقط مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠ م. ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء، وعضد العلماء، وساعد الفنانين. وتم حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور، ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوروبيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر، فأبنتى دار الأوبرا الخديوية وأستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عايدة) بالفرنسية. وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق، فمثلوا في الاسكندرية بضع روايات على مسرح زيزنيا سنة ١٨٧١ م ففشلوا، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط، فقدم القاهرة وأتصل بإسماعيل ففتح له الأوبرا وشهد أولى رواياته، وكانت رواية (الظلوم)، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم إلى وطنهم. وأقفلت الأوبرا في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان القرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي.

لم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأمراء والحكام، فلما بنى إسكندر فرح مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور. وكان التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدهماء، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة. وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديو عباس حلمي، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب. إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني. وظل

التمثيل بعد ذلك يرسم ويظفوا تبعاً للحوادث والظروف. على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقاً أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنعاش المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور.

٧ - المجمع الأدبية

أ - المجمع العلمي العربي بدمشق :

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجمع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم، كما كان اللبنانيون أسبقها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشئ المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١٩١٦ م بعد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد علي وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك «تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية، وتلقين أصول البحث والدرس لنهضة الدراسات». وقد عني هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الألفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية، وقوم ما أمكن لغة الدواوين، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله «ضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات في أوروبا». وأصدر مجلة لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حيناً من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجعاً واحداً ومؤتمر سنوي واحد.

ب - مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

وفي ١٤ من شعبان سنة ١٣١٥ هـ - ٣ ديسمبر ١٩٣٢ م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية يكون تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والغرض منه :

١ - «أن يحافظ على سلامة اللغة العربية وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب.

٢ - أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها.

٣ - أن ينظم دراسة علمية اللهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٤ - أن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة مما يعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية» وهو مؤلف من «أربعين عضواً عاملاً يختارون من غير تقد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية أو بأبحاثهم في فقه هذه اللغة أو لهجاتها» وخمسة وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان الغربية . ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضو مصرياً، وعضوان أوربيان فرنسي وإنجليزي، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق، يرأسهم الأستاذ أحمد لطفي السيد . والمجمع يتألف من هيتين . مؤتمر المجمع ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة . ومجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع وللمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها ستة عشر جزءاً، والمجمع يبذل جهوده اليوم في وضع المعجم اللغوي الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة . بعد أن وضع المعجم الوسيط نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقابلوه بالثناء وحسن التقدير .

ج - المجمع العلمي العراقي :

تألف في بغداد على غرار المجمع العربي بدمشق . ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات، ونشر المخطوطات .

الفصل الثالث

النثر

الكتابة

كان النافق في صدر هذا العصر من كتب السلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين في الكتابة: أحدهما مقامات الحريري، والآخر مقدمة ابن خلدون. فالأول يمثل الأسلوب الصناعي الأجوف الممّوه، والثاني يمثل الأسلوب الطبيعي العامر المحكم. وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لدقة صناعتها، وذبوع طريقتها، وقصور العقول عن البحث، وعجز القرائح عن التوليد ولكن النابغين من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة أثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية، لجريانها مع الطبع، وملاءمتها لروح العصر، ومشابهتها لأساليب الفرنجة، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين، وفتحي زغلول، ولطفي السيد، ومن جرى مجراهم. وأنفرد بالأسلوب البديعي رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح الله، وتوفيق البكري، وحفني ناصف، ومن حذا حذوهم وبدأت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في المحاكاة، وأوغلوا في الصنعة وتشددوا في القياس، وتصعبوا في استعمال اللغة، كما بدأت على أساليب أولئك مظاهر التطرف فتجوزوا في القواعد وتسامحوا في اللغة، واستخفوا بجمال الصياغة، وهبطوا إلى مستوى العامية. وفي ذلك العهد نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكيتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع، ولكن فيها الركاقة والتساهل والدخيل والعجمة؛ فكان من رد الفعل الذي لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعاً تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكمل النقص بما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسابرة التمدن الفكري الحديث. استبانت معالم هذه الطريقة في نثر المنفلوطي، كما استبانت في شعر البارودي، ثم نهجها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد. ثم نبغت طائفة من الكتاب

جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلغوا بالنثر الفني منزلة لم يبلغها في عصر من عصوره. فالأسلوب الذي كتب به المنفلوطي والبشري والرافعي والمازني، ويكتب به العقاد وطه حسين هو ثمرة التطور الحديث في الأدب والعلم والفن والحضارة. وهو وإن اختلف بين الكتاب في القوة والضعف، والعمق والضحل، والدقة والتجوز، والتركز والانتشار، يشترك في الصفات الجوهرية للغة وهي الصحة والنقاء والمرونة، وفي الخصائص الأصلية للبلاغة وفي الأصالة والوجازة والتلاؤم.

ولقد تعددت الأساليب في هذا العصر، فكان لكل طبقة أسلوب، كالأدباء والفقهاء والمحامين والصحفيين. وتنوعت الأغراض، فكتبوا في القانون والسياسة والاجتماع، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوروبية.

وعلى الجملة فالمذهب الكتابي المعاصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص البلاغة الأصلية، إلى تأثره بالمذاهب الأوروبية والعوامل الاجتماعية والمناحي الثقافية والمعاني الحضارية. والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء الكهول وطائفة من الأدباء الشباب، توفر حظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة واستنزفوا الشباب في تحصيل الأدب ومعاناته، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبأته. ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم من الثقافة الحديثة والاطلاع الواسع والبراعة العجيبة في التوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد، والتأليف بين الشرق المتخلف والغرب المتطرف، حتى ليقرأهم القارئ البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة؛ إنما هي أساليب مستقلة تتسم بال شخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين الذي جمد، وأسلوب المتطرفين الذي ماع.

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك من ضَعَفَ الكتاب قعد بهم وَهْنُ السليقة وقلة الاطلاع عن مجاراة البلغاء، فأخذوا يدعون إلى العامية باسم المذهب الجديد. ليس لهؤلاء «المتكاتبين» رأيٌ مُؤَوَّقٌ نجله، ولا مذهب مؤيد نناقشه، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أعجمي في لفظ عربي يتعثر بين اللحن والركاكة. فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها.

الفن القصصي والروائي

سبق القول في حظ العرب من هذا الفن، وقلنا إن قصورهم فيه كقصورهم في الشعر القصصي لأسباب واحدة ودواع متفقة. فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الأفرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها. وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مخالطة الأوروبيين والأخذ عنهم، كفرنسيس مراث الحلي

المتوفى سنة ١٨٧٢، وسليم البستاني المتوفى سنة ١٨٨٤ م وجرجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤. ثم عالجها الكتاب المصريون بعد ذلك علاج المحاكاة لما قرأوا من تلك القصص. وكان أول ما ظهر طائفة من القصص والأقاصيص المترجمة، بعضها كان أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتغيير كقصن البان لنجيب الحداد، والفضيلة لمصطفى المنفلوطي. والبؤساء لحافظ إبراهيم، وبعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرغريت للدكتور أحمد زكي، وابن الطبيعة لإبراهيم عبد القادر المازني، وآلام فرتر ورفائيل وأقاصيص من الأدب الفرنسي لصاحب هذا الكتاب. وقد كانت هذه القصص المنقولة على علاتها أساساً للنهضة القصصية الحديثة في الشرق العربي اجتذاها الشباب واستوحاها الكتاب، لأن المدرسة العربية في مصر وفي غير مصر ظلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصي والروائي على الطريقة المرسومة في المدرسة الأوروبية. فلما ارتقى الفن الكتابي في الأسلوب الذي علمته في الفصل السابق، وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها ظهرت طائفة من القصص الفنية القوية كزينب لمحمد حسين هيكل، والأيام لطفه حسين. وإبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وبداية ونهاية لنجيب محفوظ.

وأما المقامات فقد انقضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصناعة اللفظية من الأدب الحديث. وكان آخر من قلد الحريري فيها الشيخ ناصيف اليازجي، ونقولا الترك من الكتاب اللبنانيين. أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة، ولكنهم وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع، كما فعل محمد المويلحي في حديث عيسى بن هشام، وحافظ إبراهيم في ليالي سطوح، فقد احتفظا بالمنهج والأسلوب، وأسهبوا في الموضوع بالاستتباع والاستطراد حتى أصبح عملهما وسطاً بين المقامة والقصة.

تلك حال الفن القصصي. وأما الفن الروائي أو المسرحي، فظل غريباً عن الأدب العربي لا يألوه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربي عن طريق المشاهدة والنقل. فهبت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أوزاروا البلاد الأجنبية يزاولونه بالمحاكاة والاحتذاء دون أن يتجهزوا له بجهازه، ويستعينوا عليه بأداته، فالتوى عليهم وأعضل حتى كاد يسمهم بالعجز عنه. اللهم إلا ما كان من أمر شوقي فقد حاول أن يسد النقص الموروث في الشعر العربي فاستحدث الشعر التمثيلي وخطابه في طريق الكمال خطوة موفقة بنظمه روايات: علي بك الكبير، وكيلوترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعنترة، والست هدى. ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الغاية وعلى نهجه المعبد سار الشاعر عزيز أباظة في رواياته قيس ولبنى والعباسة، والناصر وشجرة الدر وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهيء للفن القصصي والروائي أسباب الوجود بمكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فعسى أن يسفر أملها عن وجه النجاح فتتم بداءة الخديو إسماعيل، في إيجاد هذا الفن الأدبي الجميل.

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة

في مصر والشام والعراق والمغرب

ممن نبغ من المصريين في هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه ورُوحه، الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف باسمه، درس في الأزهر دراسة كاملة، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبه في الديوان ثم أنقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ثم توفي سنة ١٨٢٥ م ثم الشيخ محمد المهدي شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان الخصوصي لنابوليون، ولد قبطياً ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه. ألف كتاب تحفة المستيقظ الأنس، في نزهة المستنيم الناعس، وهو أشبه بألف ليلة وليلة، وكانت وفاته سنة ١٨١٥ م. ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم نادر، ولد بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأخذ ذلك من فهمه وزاد في علمه. ثم تولى التدريس في الأزهر ورقي إلى أن صار شيخاً له، وتوفي سنة ١٨٣٣ م. ثم السيد علي الدرويش شاعر الأمير عباس الأول، نشأ في القاهرة وعاش موفور الكرامة بشعره. وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه: الإشعار بحميد الأشعار. وكانت سنة ١٨٥٣ م. ثم الشيخ شهاب الدين صاحب سفينة الملك، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبت في الأدب وألم بالحساب والهندسة والموسيقى، ثم اشتغل بالتحريب في الوقائع والتصحيح في مطبعة بولاق حتى توفي سنة ١٨٥٧ م. ثم رفاعة بك الطهطاوي أحد أركان النهضة العلمية، ومدير المدرسة التجهيزية، ومنشئ الوقائع المصرية، ولد بطهطا وتعلم في الأزهر، وأرسله محمد علي فيمن أرسل إلى فرنسا فأتم دراسته ثم عاد فعكف على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حمامه سنة ١٨٧٣ م. ثم الشاعر محمود صفوت الساعاتي نشأ في القاهرة وتوفي بها سنة ١٨٨٠ م. ثم الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري الشاعر المطبوع واللغوي الحجة والمؤلف النابه، ولد في أبيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل بإسماعيل فجعله إمامه ومفتيه. ثم أتاه اليقين سنة ١٨٨٨ م. ثم

العلامة الشيخ حسين المرصفي شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية في العلوم العربية. تخرج في الأزهر وعلم به ورزق ما يرزقه مكفوفو البصر من لطف الحس وذكاء الفؤاد. توفي سنة ١٨٨٩. ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكري ناظر المعارف في عهد إسماعيل، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية. توفي سنة ١٨٨٩ م. ثم المصلح الكبير علي مبارك باشا منظم المدارس المصرية، ومنشئ المكتبة الخديوية (دار الكتب)، ومؤلف الخطط التوفيقية، وقصة علم الدين. شارك في علوم كثيرة، وتقلب في مناصب خطيرة، منذ ولاية محمد علي إلى عهد توفيق. ثم توفي سنة ١٨٩٣ م. ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية، وله ترجمة خاصة ثم المترجم البار محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافونتين في كتابه العيون اليواقظ، ومترجم ترتوف وبول وفرجينى إلى العامية، ومؤلف السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية، توفي سنة ١٨٩٨ م. ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية، نبغت في الشعر العربي والتركي وخلفت في كل منهما ديواناً. ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال في الأدب ولدت بمصر سنة ١٨٤٠ م، وتوفيت بها سنة ١٩٠٢. ثم الاجتماعي الألمعي والكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعي، ومؤلف كتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة، وأثرهما في النهضة النسائية معروف. توفي سنة ١٩٠٨. ثم الخطيب المصّنع، والسياسي المجرب، والوطني الصادق، والصحافي البار، مصطفى باشا كامل، وله ترجمة خاصة ثم الفقيه المحقق، والمترجم البار، فتحي باشا زغلول، شارح القانون المدني، ومؤلف كتاب المحاماة، ومترجم كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية. توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الكاتب الرشيق السيد مصطفى لطفي المنفلوطي، وله ترجمة خاصة. ثم العبقري الفذ والمحامي المذره والأصولي البار، والخطيب المصقع، والكاتب النابغ والسياسي المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة. ثم اللغوي المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية، ومعجم اللغة العامية، والمؤلفات القيمة، والمقالات الممتعة في اللغة والتاريخ. توفي سنة ١٩٣٠ م. ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك المويلحي صاحب حديث عيسى بن هشام، توفي سنة ١٩٣٠ م. وله ترجمة خاصة ثم أمير الشعراء وخليفة المتنبي أحمد بك شوقي وله ترجمة خاصة. ثم شاعر النيل، وأديب الشعب، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة. ثم الأديب المطلع والمثقف النابغ أحمد زكي باشا صاحب الخزانة الزكية، ومحيي المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية، توفي سنة ١٩٢٤.

وممن نبغ من اللبنانيين والسوريين المعلم الشاعر بطرس كرامة الحمصي مآدح الأمير بشير الشهابي ومعلم ولده وموضع ثقته. جمع شعره في ثلاثة دواوين لم يطبع إلا واحد منها. توفي سنة ١٨٥١. ثم الفيلسوف الشاعر فرنسيس مراش الحلبي أقدم دعاة الحديث؛ وأول رسل التجديد، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفي ضريراً سنة ١٧٨٣ م. ثم الصحفي

المنشئ أديب إسحق، رئيس قلم الإنشاء في نظارة المعارف المصرية على عهد توفيق، ولد بدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقى جمال الدين، وكان له أثر ظاهر في النهضة الأدبية الحديثة، توفي سنة ١٨٨٥ م. ثم المصلح الاجتماعي والكاتب السياسي الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد) (وأم القرى)، جاب أكثر الممالك الإسلامية، ثم ألقى عصاه بمصر سنة ١٩٠٢ م. ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام في دار السلام، ولد ببيروت وتوفي فيها سنة ١٩٠٧ م. ثم الأديب الكبير، والصحفي البار، والمترجم القدير، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل، ووضع من الروايات التمثيلية، ثم توفي في ريعان شبابه سنة ١٨٩٩ م ثم العلامة المؤرخ الحجة اللغوي الثبت الشيخ طاهر الجزائري عالم دمشق وأديبها توفي سنة ١٩٢٥ م. ثم المؤرخ النابه، والصحفي النابغ، والقصصي المبدع، جرجي بك زيدان، منشئ الهلال، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة في التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصي التاريخي في الشرق. توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الفيلسوف المحقق، والصحفي المجدد، الدكتور يعقوب صروف منشئ المقتطف وأحد رسل العلم الحديث، توفي سنة ١٩٢٧ م.

وممن نبغ في العراق آل الألوسي، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين الألوسي صاحب التفسير الشهير المرسوم بروح المعاني في تسعة مجلدات. توفي ببغداد سنة ١٨٥٤ م. ثم حفيده السيد محمود شكري الألوسي أديب العراق ومؤلف كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب في ثلاثة مجلدات، توفي سنة ١٩٢٣ م. ثم الشاعر الرقيق عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٣ م. ثم الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٩٣٧ م، وله ترجمة خاصة. ثم العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرمللي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة ١٩٤٧ م.

وممن نبغ في المغرب الكاتب السياسي المصلح محمد بيرم مؤلف الرحالة الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار، في خمسة أجزاء. وفد إلى مصر فأنشأ بها جريدة «الأعلام» وأخذها مقامه حتى توفي سنة ١٨٨٩. ثم الوزير العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وهو من خير ما كتب في بابيه. سمت به كفايته إلى أن تقلد الوزارة في تونس، والصدارة العظمى في الآستانة، وتوفي سنة ١٨٩٠ م. ثم الفقيه السياسي المصلح السيد عبد الحميد بادريس الجزائري المتوفى سنة ١٩٤٠ م. ثم الشاعر الشاب الثائر الحر أبو القاسم الشابي التونسي سنة ١٩٢٤.

ثم بقيت طائفة من نابغي الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء، آثرنا أن نخصهم بشيء من التفصيل والتحليل.

الكتاب

٨١ - جمال الدين الأفغاني

١٨٣٨ - ١٨٩٧ م

١٢٥٣ - ١٣١٤ هـ

حياته وأعماله :

ولد السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان في بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية. ثم درج في بيئة تعزز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة. ثم تحول أبوه إلى كابل وهو في الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشرعية والعقلية وعلى منهاج محيط شامل. ثم حذق في مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأوردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث. ثم أخذ يطوف ما شاء الله أن يطوف في أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركيا وإنجلترا وروسيا فأزداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب. ثم كان رضي الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جريء الصدر لأنه حر، ندي الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشي، أبي الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات - كما قال - إلا سكينه القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول. ومن امتزاج هذه السمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وأمتد أمامه الأفق، وأنصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامي كله، والشرف الإنساني كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شره المستبد.

وقد آمن من هذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة والقتل شهادة!

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغاني على الهامش يظنون أنه قصر جهده في تحقيق

٨١ - انظر ترجمته في: تاريخ الصحافة العربية: ٢/ ٢٩٣ - ٢٩٩، ودائرة المعارف الإسلامية: ٩٥/٧ - ١٤١، وزعماء الإصلاح: ٥٩ - ١٢٠، وحاضر العالم الإسلامي: ٢/ ٢٨٩ - ٣٠٣، وانظر الأعلام للزركلي: ١٦٨/٦ - ١٦٩.

هذه الدعوة على الكتابة والخطابة. والواقع الذي لا شك فيه أنه فكر ثم قُدِّر ثم دبر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم.

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، ودار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرده الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغي السكينة عند تاجر صديق، فاستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكرام ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغاءهم الشديد إليه، قَصُرُوا هذه المدة وأمره بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال لرؤساء الهنود وهو راحل:

«وعزة الحق وسر العدل، ولو أن ملايينكم مُسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند. ولو أنقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع».

وفي الأستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجله، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عين عضواً في مجلس المعارف، فرأى في التعليم رأياً وخطب في الصناعة خطبة؛ أحفظاً عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة في نفسه، فأعترى على الرجل الأباطيل، وبس حواله التمايم، فلم يجد الأفغاني بداً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه. وأوفد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة. فعشا على ضوئها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأ منارة لهذه الشعلة، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فشعبة الحرية تنظر في ظلامه الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة. وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب، وراع أولي الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب، وما سمعوا من لفظ الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فاستدعاه الخديوي توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال: «إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى». ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته، وانقلب الأدب كله أصداءً لأحاديثه وأبواقاً لدعوته، حتى انتهى الأمر - بعد جهاد ثماني سنوات إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديو أن يخرج من مصر فأخرجه.

وأنقلت الشعلة إلى باريس، وسطعت في (العروة الوثقى)، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط، حتى دلت

على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة، فاستقدمه شاه العجم واستوزره، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه. واستزاره قيصر الروس واستخبره، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه. واستدعاه خاقان الترك واستشاره، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور فمرض بالسرطان في الأستانة وتوفى به في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من نثره:

كتب إلى عبد الله باشا فكري يعتب عليه وقد بلغه أن رجلاً ذمه أمام الخديو على مسمع منه، فسكت ولم يدافع عنه:

مولاي! إن نسبك إلى هودة في الحق وأنت - تقدست جبلتك - فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه، فقد بعث يقيني بالشك وإن توهمت فيك حيداناً على الرشد، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك ما زلت على السداد غير مفرط ولا مفرط فقد استبدلت علمي بالجهل. ولو قلت: إنك من الذين تأخذهم لا في الحق لومة لائم، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر، ولو ألب الباطل الكوارث المردية، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لكذبت نفسي وكذبني من يسمع مقالتي، لأن العالم والجاهل والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيته، ونقاوة سريرتك واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت، والحق معك أينما كنت، لا تفارق المكارم ولو اضطرت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً، ولا تنه في قضاء حق، ولا تني عن شهادة صدق - ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري، وعرفانك بسريرتي وسري، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أني ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضراً. وتركتني وأنياب النذل اللثيم (فلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقاني وإغراء من أعدائي أحزاب (فلان)! ما هكذا الظن بك، ولا المعروف من رشدك وسدادك؛ ولا يطاوعني لساني - وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل مقرأ بشرف مقامك في الكمالات - أن أقول: عفا الله عما سلف، إلا أن تصدع بالحق، وتقيم الصدق، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة، وإدحاضاً للباطل، وإخزاء للشر وأهله. وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل. ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم، وداعياً لكم - والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك.

٨٢ - الأستاذ الإمام محمد عبده

١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته :

وُلد محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر ونشأ نشأة الأوساط من القرويين، فاستظهر القرآن في كتاب القرية، وأرسل في طلب العلم إلى الجامع الأحمدى فالأزهر الشريف، ولكنه مُني في أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غير تفهيم فسثمها وفر. فلما ذاق حلاوة العلم صبر على مرارة التعليم، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن كثيراً من العلم. ولم يكن منهاج التعليم الأزهرى في ذلك العهد كفيلاً بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم، وثيق الحجة، ساهر البيان، غزير العلم، كريم الخلق، ثابت البصيرة؛ ولكن السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذي جمّله بهذه الصفات وكمّله بتلك العلوم. وردّ ذلك الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شرعته أذكاء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها. وكان الإمام أثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه، حتى قال فيه وهو مفارق مصر: «إني خلفت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده».

فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الأستاذ النظر في العلوم وأستقى الدين من مشاعره الصافية حتى أصبح إماماً في العلوم العقلية والنقلية واللسانية، فنال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ. ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن، وأسندت إليه بعد ذلك رئاسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية.

ثم أخذت مبادئ الأفغانى تزكو في القلوب وتهفو بالنفوس، حتى أفضت إلى الثورة العربية، وكان الأستاذ ممن شايع وباع وأفتى بخلع الخديو توفيق فحكم عليه بالنفي. فقصده سورية ولبث فيها ست سنين شرح في أثنائها كتابي نهج البلاغة ومقامات البديع. ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين، فأنشأ معاً جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم والأدب والإصلاح؛ فاهتزت لها القلوب الطيبة في العالم الإسلامي، ولكنها لم تدم طويلاً. وأستهوى الأستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الأخذ منها بنصيب، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسي فتعلمه في بضعة أشهر.

٨٢ - انظر ترجمته في : زعماء الإصلاح : ص ٢٨٠ ، ومذكرات عناني : ص ١٨٧ ، والفكر السامي : ٣٦/٤ ، ومشاهير الكرد : ١٥٧/٢ ، ومجلة الحج : ٣٢٢/٧ ، ومعجم المطبوعات : ١٦٧٧ ، والأعلام للزركلي : ٢٥٢/٦ - ٢٥٣ .

ثم شمله العفو الخديوي فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن، وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف، وعني بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر. فكان درسه مجمعاً لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم. وتولى منصب الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان في الإسكندرية ودفن بالقاهرة.

صفاته وأخلاقه:

كان الأستاذ ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد البصر، بليغ العبارة، فصيح اللسان، ذكي القلب، شديد العارضة، قوي الحافظة. وكان أشبه بابن خلدون في كبر نفسه، وصفاء عقله، وبعد نظره، وقوة جأشه وكرم خلقه، وصراحة قوله، حتى في خصوصية زيّه. وقد كابد مثله في رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة، شأن زعماء الإصلاح في كل أمة.

أثره في اللغة والأدب:

كانت اللغة في عهده فريسة العجمة رهينة البلى فجاهد في إنقاذها وإحيائها حق جهاده: كان وهو محرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في الصحف ويكتب في الدواوين، ويدمج الفصول في نقص الأساليب وخطأ التراكيب، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها، ويكتب غيرها في موضعها تعليماً للكتاب وتدريباً للناشئة. ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهرين، فقرأ كتابي عبد القاهر في البلاغة بأسلوب يملك الأسماع والقلوب، وفسر كتاب الله بلسان رسوله. فكان في درسه خطيباً جزل المنطق قوي المعارضة لا تدركه حجة ولا يرهقه حصر. فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه. وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية، وسن في الأزهر تدريس الأدب فأعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي، وأعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي.

أثره في العلم والدين:

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فطلع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل، وجدد رسوم الحق. ورأى العلم قد أخذ ينغص إلى الدين رأسه، فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الأفهام، وحسر عنها ظلال الإبهام. وسمع السنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك، فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة. وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورد على هانوتو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت على تلك الشبه المدفوعة.

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين

الذين يصطفاهم الله من خلقه لنصرة حقه، فيجددون جبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد.

أسلوبه:

للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض، تقرأه في الردود والمقالات: وقد ينحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصنعة؛ ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه، فتساوق أغراضه، وتتراصف فقره. فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب. أما الشعر فما علمناه يقرضه. ولكن الناس رويوا له أبياتاً قالها في سياق الموت وهي:

ولست أبالي أن يقال محمدٌ	أبلى أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه	أحاذر أن تقضي عليه العمائم
فيا رب إن قدرت رجعى قرية	إلى عالم الأرواح وأنقض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً	رشيداً يضيء النهج والليل قائم

نموذج من نثره:

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هنأ فيه بمنصب الإفتاء، وقد شكاً فيه الإمام ما كابده من عنت الشيوخ في سبيل الإصلاح:

أنصفني قومك إذ سُرُوا بنيلي الإفتاء، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله، وأضرهم بالدفاع عن حماه، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أمله، أو يبلع الكتاب أجله، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد. وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحت إليه عزيمتي، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي، خصوصاً إن كفى فيه القتال، ولم يكلف بشد رحال ولا بذل أموال.

أما قومي فأبعدهم عني أشدهم قرباً مني. وما أبعد الإنصاف منهم؟ يظنون بي الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعاً منهم في الأحكام، وذهاباً مع الأوهام، وولعاً بكثرة الكلام، وتلذذاً بلوك الملام. أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون، وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون شأنهم الصياح والعويل، والصخب والتهويل، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرف في شيء وإن هانا وأقول ولا في الخير.

وإنما مثلي فيهم أخ جهله إخوته، أو أب عفته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه

وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عَمَدِهِمْ عليه. يهدمون منافعهم بإيذائه، ولو شاؤوا لاستبقوا باستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب. على أني أحمد الله على الصبر، وسعة الصدر، إذا ضاق الأمر، وقوة العزم، وثبات الحلم. وإن كنت في خوف من حلول الأجل، قبل بلوغ الأمل، خصوصاً عندما أرى العمل في أرض ميتة وذابت عليها السماء مطراً، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً. أفزع لذكرى ذلك ويجزع، ويكاد قلبي يتقطع. ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فيثلج صدري وأمضي في جهادي الدائم. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً...

وليتني كنت أشكو إلى الله جهل العالمين وحمق المعلمين، في مثل هذه الجاهلية التي بعث النبي ﷺ لمحو أحكامها، وإزالة أيامها. تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً، ولكن كان فهم القوم حديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعي أجابوه. كان القرآن يصدع أفئدتهم فيلين من شدتهم ويفل من شرتهم، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة. وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه. ولو سمعوا لفهموا، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم، كلاهما قليل في بني آدم. أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم، وضعف العقل، واختلال نظام الإدراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة وغاية ما يطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تُقضى حاجاتهم إذا سألوا، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا. وإن استعداد السامع للفهم يستدرك المقال، ويسدد الفكر للنضال في الجدل، أما عيشك فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك ينبوع الكلام، ويطمس عين الفكر، ويزهق روح العقل.

٨٣ - الشيخ علي يوسف

١٨٦٣ - ١٩١٣ م

١٢٨٠ - ١٣٣١ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا السياسي النابه والصحفي النابغ في بلدة بلصفورة من أعمال مديرية جرجا

٨٣ - انظر ترجمته في: مرآة العصر: ص ٥٣٧، ومجلة الكتاب: ٢٣٢/٦ - ٢٤٩، وهدية ٧٧٧/١، وانظر الاعلام للزركلي: ٢٦٢/٤.

من أسرة زكية المغرس رقيقة الحال، ولم يكد يحول على مولده الحول حتى فجعه الموت في أبيه، فارتحلت به أمه إلى أخواله في بني عدي من أعمال منفلوط حيث درج وشب وحفظ القرآن وشدا شيئاً من مبادئ العلوم. وفي عام ١٢٩٩ هـ بعثوا به إلى الأزهر، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين ألم فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادئ الفلسفة، إلا إنه أحسن في نفسه السمو والطموح، ورأى في الأزهر الجمود والخمود، فصدف عن حياة الأزهرين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهرهم ويقول الشعر فيهم، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ علي وأعانه على تحريرها فكسبه ذلك ملكة الذوق الكتابي، وأسرار الفن الصحافي، فأخرج صحيفة سماها (الآداب) ظلت تصدر حتى سنة ١٣٠٧ هـ. ويومئذ أراد الله لهذه النفس الغلابة والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز الحدود وتتعجل القدر، فصحت عزيمة الشيخ علي أن يصدر هو والشيخ أحمد ماضي أحد رفقاءه في الأزهر جريدة يومية سياسية دعاها «المؤيد».

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ هـ أو في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ولا عدة لها من مال، ولا ناصر لها من حكومة، ولا عون لها من حزب، ولا مشجع لها من جمهور فلقي الرجل في سبيلها برحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسعفه الله حينئذ بصحبة المحامي المدره سعد أفندي زغلول. والكاتب الألمعي إبراهيم أفندي اللقاني وأضربهما، فأمدوه بالمال والكتابة؛ ولكن الخلاف دب ديبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصاً للشيخ علي إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً. فكاد يصبح الأمر قوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثانية في أحلك ساعات اليأس، فألقت إليه بصرة فيها المال كله. وسار المؤيد بعد ذلك في طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحدوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة، كسعد بك زغلول. والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، والسيد توفيق البكري، وفتحي بك زغلول، وإبراهيم بك المويلحي؛ وقاسم بك أمين، واسماعيل باشا أباطه، ومصطفى لطفي المنفلوطي. فانتشر في العالم الإسلامية انتشاراً لم تعرفه صحيفة قبله. وبلغ ما يطبع منه في اليوم، وعهده عهد أمية وجهالة، ثمانية آلاف نسخة وأبلى في الدفاع عن الإسلام والذيد عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والخديو والأمة، فجملوا اسمه بالألقاب، وزينوا صدره بالأوسمة، وعطروا ذكره بالثناء، ولكن تجار الفساد أزهجوا بينه وبين الأجانب فرموه بالتعصب، واستعدوا عليه القناصل، فكان يتغلب على هذه العراقيل والأباطيل بصدق عزمته وقوة حزمه.

ثم أصهر إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة، ولكنه انتهى على ما عوده الله بالفالج والظفر فاسترد الزوجة، واغتصب السجادة الوفائية.

وعُرف الشيخ علي بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من الخديو عباس محل الناصح الأمين. وآل أمر صحيفته إلى أن أصبحت من القصر سنانه المسلول ولسانه الناطق. وعاش هذا الرجل العصامي النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه ولِدِ مخالفيه موفور الكرامة مرفوع المكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ م.

أخلاقه وفضله :

كان للشيخ عليّ حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه. كان دمث الطبع، متواضع النفس، رحب الصدر، جم المروءة، شديد الوفاء، مرهف الذهن، سريع الفطنة، شديد الاتكاء على نفسه؛ وكان بعيد الحور، فرماه خصومه، بالمكر والدس، واسع الأناة في السياسة فرموه بالغلول والخيانة، وكان سباقاً إلى الفضل دعاءً إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وجعل التعليم في المدارس باللغة العربية، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله: «إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً منها إلى العلم».

أسلوبه وعلمه :

لم يجر الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية، فلم يتعمق في علم، ولم يتبسط في أدب. ولم يبرز في فن من فنون الحياة، ولا في لغة من لغات الناس؛ ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً! كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة، ولا تمويه صبغة، ولا يجمله وشي، وإنما يسحرك بلطف مدخله، وحسن ترسله، وسداد بحثه، ووثيق حجته، وقوة أسره، وكان من الكتاب الجدليين (Polémiste) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة العارضة وصدق النظر، ولكم وقف من الكتاب موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يقرعهم بالحق وقد عالج الشعر في صدر شبابه فلم تسترخص له قوافيه، ولم يعد شأواً الأزهريين فيه. وقد جمع ما نظمته في ديوان سماه نسمة السحر نشره سنة ١٣٠٣ هـ.

نموذج من نثره :

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية في مصر على عهده وهي التي ألقاها على مسرح الأوبرا في حفلة وداعه :

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار!

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين في دار التمثيل الكبرى (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في الكائنات، ويبرمون

وينقضون، ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون.

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع. وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذي كان آخر الخطباء في الحفلة كلاماً وأشدّهم إيلاً وأكثرهم آلاماً.

وقف ليمثل آخر سلطنة له في هذه الديار ولسان حاله يقول:

«ما في وقوفك ساعة من باس»

مثلها في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل، ومجد زائل، وأصدق ما ضرب له الأمثال: «لكل مقام مقال».

ومنها: أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائياً من اللورد لم ير الرءاؤون ولم يرو الرءاؤون مثله في مقام وداع كهذا المقام!

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاً يقدم عليه سواء في الكلام. ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه في احتفال كهذا. ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة في موقفة السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول. ودعنا من قول الكونت دي سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوروبيين بما تشعر من حسرات الاحتلال عليها، أو هو أراد إباحاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلاه من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللجيون دي تور بصبر نافذ.

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر.

فينما كانت الأمة المصرية واقفة موقف الأمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأبدي، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي؛ بينما هي ترجو من جنابه أن يتنزه هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها، ويضمّد الكلوم التي فتحها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات، وجامعتها كشكولاً بين الجامعات وبينما كان

بسمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف، وبينما كان كل هذا إذا ببركان «البيروقراطية» التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات.

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام، ويجاذب داعي الخصام، فجال في خاطره أنه مفارق قصرأ تجري من تحته الأنهار، وملكا خضع له فيه الليل والنهار، وتارك خصوصاً قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه، أو يتوهم هو أنه حالهم فأغضبوه.

وقف اللورد وله نفسان: نفس نزاعة إلى حب البقاء، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم، فسر وساء، وترخص وتشدد، وعدد وندد، ووعد وتوعد، وأرغى وأزبد، وحذر وأنذر، وحكم وقدر. ربما أخرج الحزين جوى الحزن ن إلى غير لائق بالسداد مثلما فاتت الصلاة سليماً ن فأنحى على رقاب الجياد

٨٤ - إبراهيم المويلحي

١٨٤٦ - ١٩٠٦ م

١٢٦٢ - ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة العيش واسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة، فتدرب منذ إيقاعه على شؤون التجارة وتمرس في فنونها، إلا أن طبعه القلق اللجوج، ونفسه المتوثبة الطموح، لم يطاوعاه على الرضا بالربح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات) فما ارتد إليه منه غير صفقة المغبون. فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت عليه نفحة من وجود اسماعيل فجعله قاضياً في محكمة الاستئناف. ولكنه اختلف هو ورئيسه اختلافاً لم ينته إلا باستقالته. فقلده الخديوي عملاً آخر فناله فيه ما ناله في التجارة والقضاء. وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع

٨٤ - انظر ترجمته في: تاريخ الصحافة العربية: ٢/٢٧٥، ومذكرات عناني: ص ١٩٥، وانظر الاعلام للزركلي: ٤٥/١.

الدستور الأول فكان المويلجي ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائماً عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشتراها لنفسه. ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مؤلِّب وصاحب العيون اليواظ، على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديوي إسماعيل خشي شرها فألغاهها. فلما كانت سنة ١٢٩٦ هـ وخرج الخديوي مخلوعاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل في طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في خلالها وهو في إيطاليا جريدتي «الاتحاد» و«الأنباء» فلم تتمتع بالحياة غير قليل. ثم رحل إلى الأستانة سنة ١٣٠٤ فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المابين) ورؤساء الحكومة. ثم ارتد إلى مصر وقد خط الشيب في رأسه، ونالت الأيام من جسمه، فأنشأ (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يدبجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهم النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة. فقضت حاجة في نفوس الأدباء، ونهجت لهم الطريق السوي في الإنشاء، ووطأت له هو أكناف الرؤساء والكبراء واستمر على إصدارها حتى طويت صحيفة حياته.

أسلوبه:

كانت الكتابة في عهد المويلجي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة وتكابد أعراض الوهن، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن سلطان البديع، ولا أن يبرأ من تكلف الحلية الظاهرة. إلا أن تصرفه في الأمور، وتقلبه في البلاد، واختلاطه بألوان الناس، واتصاله برجال البلاد، ومغامرته في السياسة، وتمرسه في الصحافة، فتقت قريحته، وذللت معانيه، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عنان البلاغة فصرفها حيث شاء ولا سيما في الرسائل، فقد تفنن في جميع ضروبها وأحسن في سائر مناحيها. والمويلجي على ما به من ضيق المضطرب في المعاني، وضعف السليقة في الابتكار، أشبه بالبارودي في الشعر: جدد ما درس من أساليب الكتابة؛ وبين ما طمس من معالم البيان، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة.

آثاره:

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من الصحف كنزها الأفكار والاتحاد والأنباء ومصباح الشرق، أو فيما أعان عليه منها كضيء الخافقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا. وله غير ذلك كتاب «الفرج بعد الشدة» في وزارة رياض باشا، وكتاب «ما هنالك» وصف فيه حال الأستانة ورجال المابين قبل الدستور العثماني.

٨٥ - حفني ناصف

١٨٥٦ - ١٩١٩ م

١٢٧٢ - ١٣٣٧ هـ

نشأته وحياته :

ولد محمد حفني ناصف بن الشيخ إسماعيل ناصف عام ١٢٧٢ للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحج يتيمًا فقيرًا، فكفله خاله وجدته لأبيه. ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن. ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فمكث فيه ثلاث عشرة سنة؛ ثم سلك نفسه في الداخلين (دار العلوم) فثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية. ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشرك طلبتها في دروسهم. فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتباً للنائب العمومي. ثم عين قاضياً سنة ١٨٩٢ م في المحاكم الأهلية. وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلًا لمحكمة طنطا الأهلية. وفي غضون ذلك انتدب لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت في كتاب خاص. ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفني بك، فأزهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة. وقضى هذه الفترة القصيرة في التنقيب والتنقيح حتى شارب الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين. ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة ١٩١٩ م ودفن في مقبرة الشافعي.

أخلاقه :

كان رحمه الله فكه الحديث، مليح النادرة، حاضر البديهة، سريع الجواب، كثير الدعابة، رضي الخلق، مشاركاً في كل علم وفن، جاريًا مع القديم والحديث.

نثره وشعره :

حفني بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة. أحيانا بأبحاثه ومؤلفاته، وقوامها بقصائده ومقالاته. وهو ضليع في فنون اللغة، خبير بقواعد اللسان، بصير بأسرار الكلام ونقده. وأسلوبه في الرسائل يجري على منهاج المتأخرين من كتاب العصر العباسي في الكلف بالسجع والقصد إلى البديع. وله أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف

٨٥ - انظر ترجمته في: سبل النجاح: ١٩٧/٢، وتقويم دار العلوم: ص ٢٤١، والشعر العربي المعاصر: ص ٥١ - ٥٥، ومجلة مجمع اللغة العربية: ٣/٣٥٨، وانظر الأعلام للزركلي: ٢/٢٦٥.

الصناعة فيسيل رقة وسلاسة. أما شعره فنمط من الأسلوب الثري المنظوم، تكثر فيه المُلح والمحسنات اللفظية ويظهر الضعف في تراكيبه أحياناً، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع.

مؤلفاته :

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة العربية كانت تدرس في المدارس المصرية وكتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذي أقيم في فيينا سنة ١٨٨٦ م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر، وكتاب (حياة اللغة العربية) وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية، وكتاب القطار السريع في علم البديع، ورسالة في البحث والمناظرة، وأخرى في المنطق، وكتاب الأمثال العامية، وبديع اللغة العامية. وأكثر كتبه غير مطبوع.

نموذج من شعره :

قال يخاطب أحد الرؤساء :

أحييت آمالي وكنت أمتها	من طول ما لاقيت من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأدود عن	أعراضهم بجوارحي ولساني
محضتهم ودي فلما أسروا	كانت بداية أمرهم نسياني
حسبي من الدنيا صديق ثابت	فرد فكنه ولا احتياج لثان

وقال أيضاً :

أتقضى معي إن حان حيني تجاربي	وما نلتها إلا بطول عناء؟
ويحزنني ألا أرى لي حيلة	لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورث المُثرون أبناءهم غنى	وجاهاً، فما أشقى بني الحكماء

ومن نثره رسالة عزى بها الشيخ علي يوسف في ولده :

خفف الله لوعتك، وأرقاً دمعتك، وجنبك الجزع، ووقاك الهلع، والهمك الصبر، وأجزل لك الأجر، ورزقك من البنين، في مستقبل السنين، ما تقرب به عينك، ويقوى به عناك. وأنت والحمد لله في قوة، وبقيّة من الفتوة، تمكّنك من الأبوة، لخير البنوة. على أن لك في عالم السياسة، وضروب الكياسة، في هذه البلاد، ألواناً من الأولاد، وآثاراً كبرى، تضمن لك الذكرى، وتجعل لك على مدى السنين، لسان صدق في الآخرين. والسلام عليك ورحمة الله.

٨٦ - باحثة البادية

١٨٨٣ - ١٩١٨ م

١٣٠٠ - ١٣٣٦ هـ

نشأتها وحياتها:

هي السيدة الفاضلة ملك ناصف بنت الشاعر الكاتب حفني بك ناصف.

وُلدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣ وتلقت مبادئ العلوم في مدارس أولية مختلفة. ثم دخلت المدرسة السنية في أكتوبر من سنة ١٨٩٣ م ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة. ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية. وفي سنة ١٩٠٧ م بنى بها عبد الستار الباسل وهو سريٌّ من سراة قبيلة الرماح بالفيوم، فتركت التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرّة حتى توفيت بالحمى الإسبانية في أكتوبر من سنة ١٩١٨ م وهي في زهرة العمر ونضرة الشبية.

مكانتها في العلم والأدب:

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة في الإصلاح. تعهدا والدها الكريم منذ طفولتها فغذاها بأدبه، ونفث فيها من روحه، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة من عمرها. ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها الرجال. عنت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لا تزال رجعية. ألقت في هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد، وكتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بامضاء «باحثة البادية» فصار لقباً غلب عليها.

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه «النسائيات» ونشرت منه جزأه الأول. ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولاً سمته «حقوق النساء» أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه.

٨٦ - انظر ترجمتها في: مجلة المقتطف: ٥٣/٤٩٧، وبلاغة النساء: ص ٣، وانظر الاعلام للزركلي: ٢٨٨/٧.

نموذج من كلامها:

من قولها في كتاب النسائيات:

ما أنقى الهواء، وأعذب الماء، وأصفى السماء في القرى! وما أكذب الحياة وأقرب
الوفاة في المدن! القرى جميلة لأنها على الفطرة. أما المدن فلا تعدم أثراً للتكلف والرياء.
أين دوي الكهرباء، من خرير الماء، والدخان المتعاقد فوق المداخن، من جولا ترى فيه إلا
تحليق الصقور وإلا رؤس النخل الباسقات! وأين وحل الشارع وعشيرها من أرض كسيت
ببساط النبات؟ وأين الرائحة المنبعثة من مقاذير المنازل وروث الدواب من شذى أزهار
الحقول؟ بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور، من نظر
تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء!

ومن قصائدها في حال المرأة قصيدة مطلعها:

أغملت أعلامي وحينما منطقي	في النصح والمأمول لم يتحقق
أيسوؤكم أن تسمعوا لبناتكم	صوتاً يهز صداه عطف المشرق؟
أيسركم أن تستمر بناتكم	رهن الأساور ورهن جهل مطبق؟
هل تطلبون من الفتاة سفورها؟	حسن، ولكن أين بينكم التقى؟
لا تتقي الفتيات كشف وجوهها	لكن فساد الطبع منكم تتقي
تخشى الفتاة حبائلاً منصوبة	غشيتموها في الكلام برونق
لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم	وبناتكم وتسابقوا للأليق
ودعوا النساء وشأنهن فإنما	يدري الخلاص من الشقاوة من شقي
ليس السفور مع العفاف بضائر	وبدوننه فرط التحجب لا بقي

٨٧ - مصطفى لطفي المنفلوطي

١٨٧٦ - ١٩٢٤ م

١٢٩٢ - ١٣٤٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م

٨٧ - انظر ترجمته في: النظرات: ص ٩ - ٣١، والكنز الثمين: ص ٢٦٨، ومشاهير شعراء العصر
٣٢٠/١ - ٣٤١، والثغر الباسم في مناقب أبي القاسم: ص ٢٩، ومعجم المطبوعات: ١٨٠٥،
وجامع التصانيف الحديثة: ١٣/٢، وانظر الأعلام للزركلي: ٢٣٩/٧ - ٢٤٠.

ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقي باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب. فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض وينشئ الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربته إلى الإمام صلته بسعد باشا زغلول، ومن زلفاه لدى هذين العظميين نفوذه لدى صاحب (المؤيد)، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده، وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغي في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجاح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محرراً عربياً لها. ولما تحاول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوَّله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله حتى إذا قام البرلمان، عيّنه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره.

أخلاقه :

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه؛ فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزي لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القدامة. كان صحيح الفهم في بطنه، سليم الفكر في جهده، دقيق الحس في سكونه، هبوب اللسان في تحفظه وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة، ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر صحيح العقيدة نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنه وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه :

كان المنفلوطي أديباً موهوباً، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة؛ لأن الصنعة لا تخلق أديباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة. وكان النثر الفني على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضي الفاضل، أو أثراً مائلاً لفن ابن خلدون؛ ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعاً أنشأه الطبع القوي على غير مثال.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً ما كان ينتظر ممن نشأه
كنشأته في جيل كجيله . وسر الذبوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب
اللباب، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب في أسلوب طلي
وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها أمران : ضعف
الأداة وضيق الثقافة . أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي
البصر بأدبها . لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما
ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم
الغرب . لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطي
في النثر كان كالبارودي في الشعر : كلاهما أحيا وجدد . ونهج وعبد، ونقل الأسلوب من
حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته :

له كتاب (النظرات) في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد
والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة
والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطي) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض
أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار، وبول وفرجينى
(الفضيلة) لبرنار دي سنان بيير، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه
البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة،
وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقودة .

نموذج من نشره :

الغني الفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس، فرأيتُه واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت
لحاله، وسألته ماله، فشكا إليّ ألم الجوع، ففتأته عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته
وذهبت إلى صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أنني رأيتُه واضعاً يده على بطنه،
وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به، فشكا إليّ البطنة، فقلت «يا
للعجب ! لو أعطيت ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد
منهما سقماً ولا ألماً . لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطفىء غلته ؛
ولكنه كان محباً لنفسه مغالياً بها فضم إلى مائدته ما أختلسه من صحفة الفقير، فعاقبه الله
على قسوته بالبطنة ؛ حتى لا يهنىء للظالم ظلمه، ولا يطيب له عيشه، وهكذا يصدق المثل
القائل : «بطنة الغني انتقام لجوع الفقير» .

ما ضنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف
عليهما فزواهما عنه واحتجهما دونه، فأصبح فقيراً معدماً شاكياً متظلماً، غرماؤه المياسير
الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ما أظلم الأقوياء من الإنسان، وما أقسى قلوبهم! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه
الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقرأ، ويجلس أمام مائدة
حافلة بصنوف الطعام، قديده وشوائه، حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهواته علمه أن
بين أقربائه وذوي رحمه من تتوالب أحشاؤه شوقاً إلى فتات تلك المائدة، ويسيل لعبه تلهفاً
على فضلاتها، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد
على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من
الذهب، وصناديقه من الجواهر، وغرفة من الأثاث والرياش، ليكسر قلبه وينغص عليه
عيشه، ويبغض إليه حياته؛ وكأنه يقول في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: «أنا
سعيد لأنني غني. وأنت شقي لأنك فقير».

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه مجسناً، لأنني لا أعتمد فضلاً
صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان. وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره
ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من
الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان. ورجل يحسن إلى نفسه، ولا يحسن إلى غيره، وهذا الشره
الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً، ورجل
لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه.

أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد
إليه سبيلاً. وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلبي حينما
سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به في بياض النهار فقال: «أفتش على إنسان».

٨٨ - عبد العزيز شاویش

١٨٧٦ - ١٩٢٩ م

١٢٩٢ - ١٣٤٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد عبد العزيز بن خليل شاویش في الإسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل

٨٨ - انظر ترجمته في: الاعلام للزركلي: ١٧/٤، وجريدة منبر الشرق: ٢/ صفر/ ١٣٦٣.

بالتجارة. ثم تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أحد الكتاتيب، ثم طلب علوم الدين والعربية في جامع الشيخ بالإسكندرية فشدّ شيئاً منها أهله إلى أن وفد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر. وكان أذكى الأزهريين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول في (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والمحاماة، وأنجح الوسائل إلى التجدد والرفاهية، فدخلها الشيخ عبد العزيز، وأشتهر بين لداته بالجد والاستقامة، والغيرة على الدين والكرامة ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية رداً من الدهر، ثم اختير في بعثة إلى إنجلترا ليتخصص في التربية والآداب، فتعلم اللغة الإنجليزية وأطلع منها على الآداب الأوروبية فآزاد علمه وأكمل بيانه وتنوعت ثقافته. ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف. وعاد ثانية إلى إنجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (اكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجة، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أثراً في تقديم منافسه عليه فاستقال من العمل في وزارة المعارف سنة ١٩٠٨ وانضوى إلى لواء الحزب الوطني. ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى باشا كامل رئيساً لتحرير (اللواء). ثم جرّت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسه في السياسة، متاعب كثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر في جريمة من جرائم الرأي. فلما خلوا سبيله رحل إلى أوروبا. وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسي مكاره الغربة من فراق الأهل والحاح الفقر وخذلان الصديق، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضطرباً آمال خائر القوى، فتجهمت له بعض الوجوه، وانقبضت عنه أكثر الأيدي، وحاول أن يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح، فأنصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الوظيفة الأولى في وزارة المعارف؛ فأضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين. ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة ١٩٢٩.

أخلاقه:

كان رحمه الله جميل السمات حسن الشارة متواضع النفس حلو الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندي الراحة، جريئاً في الدفاع عن دينه، شجاعاً في الذيادة عن وطنه، صريحاً في الإبانة عن رأيه. سباقاً إلى كريم المساعي، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة. وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أودى في كرامته أو وطنيته أو عقيدته.

أسلوبه :

كان أسلوبه خطابياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق . وكان يجري فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام علي في نهج البلاغة . وهو من الكتاب القلائل الذين اطلعوا على آداب الفرنجة وتأثروا بها . وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث . كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة ، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة .

مؤلفاته :

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤدبين) في التربية العلمية والعملية ؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) في الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه وكتاب (أسرار القرآن) فسر فيه بعض آي الذكر الحكيم ملائماً لروح العصر .

نموذج من نثره :

قال في فاتحة مقالاته في جريدة اللواء يوم استقال من وزارة المعارف :
«بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتليس . في أسواقها النافقة تشتري نفسيات النفوس ، بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرؤس . وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة في القول ، حياة الجهر بالرأي ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقتها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه . أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر ، منبرياً في ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر . موقناً بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين ، من الظفر والفتح المبين» .

ومن مقاله بعنوان «مدرسو اللغة العربية المصريون في بلاد الإنجليز» :
«نصح إليّ المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن أقتدي بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة ، فماذا جرى؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكاً بديني . رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي . أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم فأخذت أحاكيمهم في هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه . رأيتهم يحبون الصراحة ، ولا يخشون معتبة ، ولا يتهيبون متعبة ، ما دام الحق لهم فأخذت أحاكيمهم في تلك الفضائل التي نصح بها إليّ

عميدهم بنظارة المعارف العمومية! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل، ويحضون على الفضيلة، فعدت إلى بلادي، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم، ويقوم خطبائهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب في مدح من نجح في تقليدهم ومحاكاتهم في فضائلهم، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين!.

الأدباء

٨٩ - ناصيف اليازجي

١٨٠٠ - ١٨٧١ م

١٢١٤ - ١٢٨٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد ناصيف بن عبد الله اليازجي بكفرشما من قرى لبنان ونشأ في بيت فضل وعلم وأدب، وبدأ بتعلم الهجاء على أحد القساوسة، ومبادئ الطب على أبيه، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلبها ويحصلها، والكتب يومئذ نادرة وتجاريتها باثرة ومطلبها بعيد. فكان إذا وقع في يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه، حتى غزرت مادته، وكملت آتته، وبلغ حظه من المنشور والمنظوم، فأستكتبه الأمير بشير الشهابي وهو في أوج عزه فكتب له ولزمه اثني عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة ١٨٤٠، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت وأنقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء حتى مني في أعقاب عمره بفالج نصفي عطل شطره الأيسر. ثم فجع في بكر أولاده الشيخ حبيب، فضعضت هذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعيش بعده إلا يسيراً.

نثره وشعره:

ترسم الشيخ خطوات الحريري وأنتهج نهجه، فأولع بالبديع، وأفتن في الصناعة، وكلف بالغريب. وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية. وأعجب بالمتنبي في الشعر كما أعجب بالحريري في النثر،

(٨٩) انظر ترجمته في: أعيان البيان: ص ٦٠، وآداب اللغة: ٢٥٩/٤، ورواد النهضة الحديثة ص ٦٣ - ٧٧، والأعلام للزركلي: ٣٥١/٧. وانظر أيضاً معجم المطبوعات: ١٩٣٣ - ١٩٣٩.

ولكن تقليده لأبي الطيب كان أضعف، وتخلفه عن مجاراته كان أظهر. فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر الحريري وأضرابه، وبخاصة تلك القصائد التي تكلف فيها التاريخ الشعري، فقد غالى في ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً! أو ينظم القصيدة فيلتزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدة في تهنة إبراهيم باشا بفتح عكاء، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهملة كقوله:

حول در حل ورد هل له للحر ورد

على أن له قصائد تهب عليك من خلال أبياتها نفحات أبي الطيب فيجزل لفظها ويقوى أسلوبها وتفيض بالمعاني المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة.

علمه ومؤلفاته:

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة، وأطلاع واسع في الأدب، وإتقان عجيب لعلوم اللسان. فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين التي قلدها الحريري. وله (الجمانة) (وجوف الفرا) وهما أرجوزتان أولاهما في الصرف وأخراهما في النحو، و(فصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف، و(عقد الجمان) في علم البيان، و(نقطة الدائرة) في العروض والقوافي، و(قطب الصناعة) في المنطق. ثم دواوين شعره وهي (نفحة الريحان) و(فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء) و(ثالث القمرين). وأكثر كتبه مؤلف على نمط مدرسي ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية.

نموذج من كلامه:

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية:

بناء العلى بين القنا والبوارق	على صهوات الخيل تحت البوارق
ولله سر في العباد وإنما	قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا كما	تقلب فينا لاحقاً إثر سابق
ولولا اختيار الدولة ابن سريرها	لما اعتمدته في المعاني الدقائق
كريم تولى الأمر يصلح أمره	كفتق تولته أنامل راتق
أقام السرايا ينفر الموج خيلها	بكل لواء فوق لبنان خافق
يحدث أهل الغرب في كل ليلة	بما فعلت غاراته في المشارق
فيعجب من أفعاله كل عاقل	ويشني على أفضاله كل ناطق
تضيق بحار الشعر عنه وتستحي	يبحر لها في بحر كفيه غارق

٩٠ - أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ - ١٨٨٧ م

١٢١٨ - ١٣٠٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا الكاتب اللغوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية. ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادئ القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وفيراً ظهر أثره بعد في خطبه وكتبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفيه ترك مذهب والديه وأعتقد المذهب الإنجيلي فأضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً في محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكيان ورعايتهم، ف قضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكيان سنة ١٨٣٤ إلى مالطة ليصحح ما تخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحرر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم أنصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فأتصل به الشدياق ومدحه فنفق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: «ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها» ثم اعتنق الإسلام وهو في تونس وسمى نفسه أحمد. وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي، وفضله يظهر وذكره يذيع حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الأستانة وأنشأ جريدة «الجوائب» وأودع فيها من فنون الثر وعيون الشعر وضروب السياسة ما رواه لسان الحمد، وتناقلته بُردُ الشرق والغرب. وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة. فسعى إليه المجد والثراء، وخطب وده الأمراء والعلماء، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة. ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره، فما زالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث السودانية. ثم ورد الشدياق مصر وقد تنفس به العمر وخذد وجهه الكبير، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته، وأكرموا مثواه وإقامته، ثم ارتد إلى الأستانة فوافته بها منيته.

نثره وشعره:

كان الشدياق متضلعا من فنون الأدب، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون

(٩٠) انظر ترجمته في: أعيان البيان: ص ١١١، وآداب شيخو: ٧٩/٢، وآداب اللغة: ٢٦١/٤، وأعلام اللبنانيين: ص ٧٥، وتاريخ الصحافة العربية: ٩٦/١، ودائرة المعارف الإسلامية: ٤٩٠/١، وانظر الأعلام للزركلي: ١٩٣/١.

ووعظ وأدب وسياسة. حافظاً لمفردات اللسان، بصيراً بمذاهب البيان، يجيد النظم والنثر. وكان أسلوبه منسجم التراكيب، متسلوق المعاني، موفور الازدواج، شديد الإطناب، كثير الاستطراد، ظاهر المبالغة. أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره. فهو في النثر مجدد وفي النظم مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد.

مؤلفاته:

له غير الفصول التي نشرتها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة اطلاعه وطول باعه. وأشهرها:

كتاب (سر الليال في القلب والإبدال) وهو كتاب لغوي تحليلي يشتمل على سرد الأفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة. وقد طبع بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفارياب) والفارياب كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه. أنشأ هذا الكتاب الضخم أثناء سياحته في أوروبا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابده في صدر حياته، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه. ثم أورد الألفاظ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والحلي والجواهر، وذلك أجل ما في الكتاب. وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله، ولا يليق بفضله.

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التي أخذها على قاموس الفيروزآبادي. ثم (كشف المخبا عن أوروبا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوروبية. و(الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة: أراضيها وأهلها وحاضرها وماضيها.

نموذج من كلامه:

من الناس من يبالغ في مدح وطنه، ويحن إليه حنينه إلى سكنه، فيصف مروجه ورياضه، وبروجه وحياضه، ووهاده وجباله، وتلاع وتلاله، وربوعه ودياره، ونباته وأشجاره، ويقول وثماره، ودوحه وأطيّاره، وطيب هوائه، ولذة مائه، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسناً، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمناً، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره، وأن كل بلد مستمد من خيره، ومحتاج إلى ميره ثم يزفر زفير الهائم الحيران، ويصرخ صراخ الولهان: ألا إن حب الوطن من الإيمان. لقد جبت السهول والحزون، وركبت الذلول والأمون، وطوفت في الأمصار، وجولت الأقطار؛ وضربت في مناكب الأرض مستقصياً، وأختبرت أحوال من عليها مستفتياً؛ فلم أجد عيشاً هنيئاً إلا في بلادي. هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء، فقال فيها فلان أبياتاً، وقال فيها فلان قصيدة غراء، وأسمع ما قيل

في جداولها ونواعيرها، وبلابلها وعصافيرها، وخمائلها وأزاهيرها، وصروحها وقصورها، ومصانعها ودورها، وظبائها ومراتعها، وزكاتها ومواقعها، وفي أريج آفاقها، وبهيج أشفاقها، ونضرة حدائقها، وبهجة شقائقها، فإذا قلت له: كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عوناً وخذناً! قال: وَيْلِي إنه شرّ جار، وهو على البلاد عار وشنار. فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تؤلفه وتصافيه! قال: ويلى إنه شر من أخيه. فكيف أهل الحارة طراً؟ قال: ويلى إنهم كانوا كلهم عَلَيَّ شراً، ولم أجد منهم إلا ضراً. فكيف أهل المدن والأمصار! قال: وَيلى إنهم أولو غبن وغش وتغريب وإخفار، ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار. هذه حالة سكان البلاد، الحاضر منهم والباد، فلا تكثرن من السؤال، ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال. فإن شئت قلت له: ولكن كيف اشتملت بلادكم على تلك المحاسن، وأهلها على هذه المساويء الشوائب؟ قال: إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين، فحرثوها وزرعوها، وعمروها وأمرعوها، ثم فسد الزمان فجاءت خلفاتهم فاسدة، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة. ولكن ما معنى الزمان؟ وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الإنسان، والتواريخ على ذلك شاهدة، ونصوصها عليه متساندة متعاضة. ثم فكيف فسدت الناس وأنت بقيت من بينهم صالحاً، ترى كل من سواك صالحاً، ولو كنت من الصالحين، لما رأيت في غيرك خلقاً يشين. وإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالاً. ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا كذلك قال الشاعر الحكيم: فما أنت في طعنك على جنسك إلا مليم. وإن أمراً يحسب جميع أهل بلاده دونه، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه.

٩١ - بطرس البستاني

١٨١٩ - ١٨٨٣ م

١٢٣٤ - ١٣٠٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد العالم الضليع واللغوي المحقق بطرس بن بولس البستاني الماروني بقرية من قرى لبنان تسمى الديبة على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم أثنائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، وتفقه في الفلسفة واللاهوت

(٩١) انظر ترجمته في: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة: ص ٥٣١، وآداب زيدان: ٢٩٧/٤، وأعيان البيان: ص ٢٠٥، وأعلام اللبنانيين: ص ١٠٥، وانظر الأعلام للزركلي: ٥٨/٢.

والفقه، وتبحر في التاريخ والجغرافية والحساب؛ ووقع في نفسه أن يخدم الكنيسة، ولكن بدا له فأحجم وأنصرف إلى التعليم. ثم وفد إلى بيروت وأتصل بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الإنجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة، ثم دخل في نحلتههم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة. ثم أنشأ في سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والأستانة واليونان والعراق. ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف، ففرغ في عام ١٨٦٩ من تأليف معجمه المحيط. وفي سنة ١٨٨٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم؛ ثم عززها بعد بصحيفة الجنة وجريدة الجنية. وشرع بعد ذلك في وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يُعجز الفرد وينوء بالجماعة في قبيل كقبيلة وجيل كجيله. ولكن حذقه لأشهر اللغات، وأعتصامه بالصبر والثبات، ذللاً له العقاب وسهلاً عليه الصعاب، فأصدر منها ستة مجلدات. ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل في السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركناً من أركان نهضته وعلماً من أعلام هداه.

علمه وفضله:

نبغ البستاني في عصر فشت فيه الجهالة وغشى الناس الظلام فحمل المصباح وأنار الطريق، ونصب نفسه للهداية والدعاية فألف الكتب، وأصدر الصحف، وأنشأ المدارس، وملا حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال، وفي ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتيّة وإرادة قوية. فمن تلك الآثار الخالدة: محيط المحيط وهو معجم لغوي على النمط الحديث أستوعب فيه قاموس الفيروزآبادي وصحاح الجوهري ورتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثي المجرد، وجمع فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة. وقد أستخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط. ومنها دائرة المعارف، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضى نحبه في التاسع، فأتمه بنوه الباقر بمعونة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الألياذة، ثم وقف عملهم عند ذلك. فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بني عمومته الجزأين العاشر والحادي عشر، ثم حال نقص الأداة دون التمام.

وللبستاني غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب في علم الحساب، ومفتاح المصباح في الصرف والنحو، وعدد عديد من المقالات والرسائل.

٩٢ - إبراهيم اليازجي

١٨٤٧ - ١٩٠٦ م

١٢٦٢ - ١٣٢٣ هـ

نشأته وحياته :

وُلد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام ١٨٤٧ م في بيت معمور بالفضل، مشهور بالأدب، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية. ثم عكف علي كتب اللغة والأدب، فأتقن علوم اللسان، وعرف مطارح الإساءة والإحسان، وحفظ كثيراً من جيد المنثور والمنظوم. ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية. حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا إليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى في هذا العمل تسع سنين كان في أثناءها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد، وينشر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت. ثم هاجر إلى القاهرة في عام ١٨٩٤ م، وأنشأ مجلة البيان سنة ١٨٩٧ مع الدكتور بشارة زلزل. ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة ١٩٠٦.

أدبه وعلمه :

كان الشيخ إبراهيم عليمًا بأسرار العربية، عارفاً بمفرداتها وفرائدها، حافظاً لنوادرها وشواردها، واقفاً على صحيحها وفاسدها. فكان يتعقب الكتاب والشعراء في مجلتيه البيان والضياء، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب، وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق، لتحري لفظة، أو تصحيح رواية، أو تنقيح نص: وبفضل هذا التعقب شعر الأدباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجعة. واستفاد المعلمون مما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب، فأشاعوا تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ. ورأى اليازجي محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلاً فأختار لهم طائفة من التعابير البليغة الماثورة في كتاب سماه (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) كما جمع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على السنة

(٩٢) انظر ترجمته في: أعلام اللبنانيين: ص ١٢١، وتاريخ الصحافة العربية: ٨٨/٢، ومعجم المطبوعات سنة ١٩٢٧، ونبذة تاريخية: ص ٥٥، والأعلام للزركلي: ٧٦/١ - ٧٧.

الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد). والشيخ إبراهيم بعد ذلك طويل الباع في الصناعتين، له شعر جزل محكم، ونثر مطبوع رائق.

نموذج من كلامه :

كتب يعزي بعض أصدقائه :

من علم أن القضاء واقع، وأن الأعمار رهائن المصارع، فلم يصحب دهره على غرة، ولم يفتر من الأقدار بفترة؛ لم تكبر عليه الرزية إذا اغتالت، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالت، فإن للدهر رقدة وهبة، وإن الليالي كمنة ووثبة. ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها، وعرف موارد الحياة ومصادرها، وإنما الموت طور من أطوار الوجود، وآخر أعمال الحياة في الوجود. ولا أزيدك علماً بالكون وشرائعه؛ والكائن وطبائعه، إنما هي ذكرى لمن فجأه الرزء فشغله، وحل بساحته القضاء فأذهله. وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المتاح، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح. وما أخلقني بأن أقول: إن رزءك هذا قد زادني شجناً على أشجاني، ونكأ ما تماثل من فرحة أحزاني. ولكني قد صيرني الدهر إلى حال، لا تعمل فيها حال، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال، فكأنما إياي عنى أبو الطيب حيث قال:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

٩٣ - حمزة فتح الله

١٨٤٩ - ١٩١٨ م

١٢٦٥ - ١٣٣٦ هـ

نشأته وحياته :

ولد الأستاذ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله بالاسكندرية عام ١٨٤٩ ونشأ بها نشأة الأوساط، فحفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثنائها جريدة الرائد التونسي. ثم عاد إلى الإسكندرية وأتصل بالخدوي توفيق، فأوحى إليه أن يحرق جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية ذيادة عن عرشه وتأييداً لسياسته، فما حال عليها الحول.

(٩٣) انظر ترجمته في: الوجيز في تاريخ الأدب العربي: ص ١٤٥، والكنز الثمين: ١/١٦٥، والأعلام للزركلي: ٢/٢٨٠.

وفي سنة ١٨٨٦ مثل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استوكهولم سنة ١٨٨٩. ثم رأى أن يزاوِل التعليم بعد الصحافة فعين عام ١٨٨٨ مدرساً بمدرسة الألسن فدار العلوم. ثم أنتقل إلى التفتيش فمكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٩١٢ م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة ١٩١٨ م وقد كف بصره.

أخلاقه وعلمه :

كان رحمه الله سليم الصدر، كريم الخلق، غيوراً على اللغة، ولوعاً بالأدب مُغرى بالبحث، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه، فرفعوا شأن اللغة، وأحيوا موات الأدب. ألف كتاب (المواهب الفتحة في علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم. ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح كتب الدراسة بالمعارف.

عالج النظم على طريقة المتقدمين، والنثر على طريقة المتأخرين، فكان وسطاً في الحالين، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين :

نموذج من كلامه :

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها في مؤتمر المستشرقين يقول في مطلعها :
 حَمْدُ السُّرى يا أخِي العود والناب أنساك وعشاء إغشاب وإخباب
 ومنها في الحكم :

ومن يُرد نيل مجد وهو في دعة
 والمرء في موطن كالدر في صدف
 والسيف مثل العصا إن كان مغتمداً
 وأزهد الناس في علم وصاحبه
 فقد بغى من صفاة ذرّ أحلاب
 والتبر في معدن والنبع في غاب
 وزامر الحي لا يحظى بإطراب
 أدنى الأجابة من أهل وأصحاب

وكتب إلى السيد عبد الحميد البكري معذراً :

مولاي : أما الشوق إلى رؤيتك فشديد، وسل فؤادك عن صديق حميم، وود صميم، وخلة لا يزيد بها تعاقب الملوين، وتآلق النيرين، إلّا ونوقاً في العرا، وإحكاماً في البناء، ونماء في الغراس، وتشبيهاً في الدعائم. ولا يظنن سيدي أن عدم ازدياري ساحته الشريفة، وأجتلائي طلعتة المنيفة، لتقاعس أو تقصير، فإن لي في ذلك معذرة أقتضت التأخير والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة. وبعد فرجائي من مقامكم السامي ألا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي فكم منية طوقتمونيها، ولكم فيها قول البداءة وعليّ دوام الشكران والسلام.

الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة. فلما دعا داعي الثورة العرابية ظهرت الخطابة السياسية على ألسنة زعمائها، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحق واللقاني. ثم مرّ عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا المجامع الأسبوعية للخطابة في الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة. ولكن الخطابة لم تجلّ عنها أعقاب العلة المزمنة إلا في عهد الزعيم الوطني الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٩٠٨ م، فقد كانت له أمضى سلاح في جهاده. وأقوى معين في إيقاظ بلاده. ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شبابنا ولا سيما المحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة. ولعل الشرق لم يشهد في عصر من عصوره خطيباً حافل القريحة، قوي العارضة، جهوري الصوت، قبل المغفور له سعد باشا زغلول. وأنا لتتوقع للخطابة في عهد نظامنا الدستوري رقيّاً سريعاً؛ فإن الحرية السياسية، والمنافسات الحزبية، والمناقشات البرلمانية، من أبلغ العوامل أثراً في رقي الخطابة. ولولاها ما كان ديمستين في اليونان، ولا شيشرون في الرومان، ولا عليّ في العرب.

٩٤ - عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦ م

١٢٦٠ - ١٣١٣ هـ

نشأته وحياته :

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم في الاسكندرية، ونشأ بها نشأة الأوساط فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في الكتّابة وهو يومئذ في المدرسة الأولى لأبناء الشعب. ولما أبلغ دخل معهد الاسكندرية في جامع الشيخ فادرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان. وطفى ميله الأدبي على ميوله الأخرى فحفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والنثر. ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله عن العكوف على الدرس. وأعجله طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فأنصرف عنه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة)؛ ثم فصل عن هذا العمل

(٩٤) انظر ترجمته في : أدب الشعب : ص ١١٣ ، وزعماء الإصلاح : ص ٢٠٢ ، ونزهة الألباب : ص ١٧٩ ، والكافي لشاروبيم : ٢٣٩/٤ و ٤٨٦ ، وانظر الاعلام للزركلي : ١٣٨/٤ .

فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارتها ولم يسلم رأس ماله فعاد إلى الاسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية. وأمدته الحكومة بالمكان والمال على ألا تكون مقصورة على المسلمين؛ ثم جعلها الخديو توفيق تحت رعايته. وكانت هذه الجمعية من المحاريب السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلاً ليسمعوا الخطب في مختلف الشؤون من أمثال عبد الله نديم، وأحمد سمير، وأديب إسحق، وإبراهيم اللقاني.

ثم ألف السيد عبد الله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثلها طلاب هذه المدرسة، كان مغزاها الأسى على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها. ثم أخذت آراء الأفغاني تهفو بالنفوس وتعصف بالرؤوس، فشغل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيث والتبكيث) وهي أسبوعية كانت تلبس الجد ثوب الهزل. ثم استبدل بها (الطائف) فكانت بوقاً من أبواق الثورة العرابية، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر. ولما خبت نارها وقبض مشعلوها اختفى عبد الله نديم عشر سنين قضاهما متنكراً في كل زي، متنقلاً في كل بلد، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديو على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء. فأقام في فلسطين حقبة من الزمن عاد بعدها إلى القاهرة مطلق السراح، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجباً أقض مضاجع الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد. فرحل إلى الأستانة ونفق عند السلطان فعين مفتشاً للمطبوعات في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه الله إليه.

أخلاقه ومواهبه:

كان السيد عبد الله نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان، فصيح العبارة، حاضر البديهة، سريع النكتة، شديد التهكم، عاضه الله من قلة العلم وضيق الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وسماحة القريحة في الكتابة وغزارة البحر في الخطابة ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فاتصلت أسبابه برجال الحكم، وطال اختلاطه بقيادة الشعب، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض. وتخلل طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسبر أهواءهم. وكان لذلك كله أثر بالغ في علمه بمخبات الضمائر، ومقتضيات الأحوال، وأخذ به أجنة الكلام يصرفه في أي معنى شاء، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغاني: «ما رأيت طول حياتي مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب».

نموذج من كلامه :

قال من رسالة له عمد فيها أن يقتبس الفاضلة الثانية من القرآن :
لا حول ولا قوة إلا بالله، اشتبه المراقب بالله، واستبدل الحلو بالمر، وقدم الرقيق
على الحر، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف، وأظهر كل لثيم كبره، إن في ذلك لعبرة.
سمعاً سمعاً، فالوشاة إن سعوا لا يعقلوا، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، فكيف تشترون
منهم القار في صفة العنبر، و ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾.
عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون.
وأنا يا عزيز العلياء، ووحيد الدنيا، قد بينت لك فعلهم، ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾
ولكنهم طمعوا في عميم طولك، ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

٩٥ - مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨ م

١٢٩٠ - ١٣٢٥ هـ

نشأته وحياته :

ولد زعيم النهضة المصرية وموقف الروح الوطنية، مصطفى كامل بالقاهرة
سنة ١٨٧٤ م في بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصحة الدين، ثم تلقى دروسه
الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنه لم
تتجاوز التاسعة عشرة. وكان في أثناء الطلب قد اشتهر بين الطلاب والكتاب بقوته في الكتابة
وقدرته على الخطابة، فنشر كثيراً من المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد،
وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرقت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس
الزعيمة، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويطرسون
خطاه. ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة، وإنما اتجه
إلى خدمة وطنه من طريق السياسة والصحافة، فسافر إلى أوروبا مراراً يدعو إلى مصر بالكتابة
في صحفها والخطابة في محافلها. وداخل رجال السياسة في فرنسا وإنجلترا يستمد منهم
التوجيه والعون، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جوليت آدم الفرنسية التي يقول لها في
بعض رسائله : «إنني لا أزال صغيراً، ولكن لي أملاً كبيراً. أريد أن أوقف في مصر الشبيخة

(٩٥) انظر ترجمته في : الأعلام الشرقية : ١/١٦٧، وتراجم مشاهير الشرق : ١/٣١٠، ورواد النهضة
الحديثة : ص ٢٠٦، ومعجم المطبوعات : ١٧٥٤، وانظر الأعلام للزركلي : ٧/٢٣٨ - ٢٣٩.

مصر الفتاة. هم يقولون إن وطني لا وجود له، وأنا أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه.

ثم أنشأ (اللواء) في ثلاث نسخ: بالعربية والإنجليزية والفرنسية، فدافع بها عن بلاده، وجاهد في سبيل حريتها حق جهاده، حتى أدرك، هو في طرأة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل. وكان في مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم، فعاش للمبدأ والفكرة، ومات للقدوة والعبرة. ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الناحل ألف (الحزب الوطني) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة؛ ولكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياماً فأحترمه رضي الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره.

مصطفى كامل الخطيب:

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة، رائق المنطق. ندي الصوت، عذب النبرة، أنيق اللهجة، لا يتلكأ ولا يلحن ولا يتلعثم. وكان كاتباً حلو اللفظ رقيق الأسلوب، قوي الروح، صادق الفكرة، نبيل الغرض، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة، استطاع أن يحيي الموات، ويجمع الشتات، وينعش خمود الشعب بالأمال المطمعة، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة.

نموذج من خطبه:

قال في خطبة له ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر من سنة ١٩٠١:

بلادي! بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي! لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر! يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك إني متهور في حبها! وهل يستطيع مصري ألا يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها، فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللاتقة بها.

ألا أيها اللاتمون! انظروها وتأملوها، وطوفوها، واقروا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً، وأسمى شأنًا، وأجمل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبها الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها، وسلم أزمته للأجنبي:

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً!

٩٦ - سعد زغلول

١٨٥٧ - ١٩٢٧ م

١٢٧٣ - ١٣٤٥ هـ

نشأته وحياته :

ولد سعد زغلول في (إبيانة) من أعمال مديرية الغربية وتلقى في كتاب القرية مبادئ الثقافة العامة وأولها حفظ القرآن الكريم ؛ ثم أرسله أبوه إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة والمنطق ثم صارت له في الجدل والمناظرة شهرة . واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني حين هبط مصر فلزمه وأخذ عنه وتأثر به . وكان سعد بفطرته مجبولاً على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل ومحاربة النقص . عين بعد أن ترك الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي فنزل الحق من عدله وعقله في حمى أمين . ثم أصفى لقضية الحق في الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن في (الضبطية) سبعة أشهر . ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة ، ولم يكن يشترط في مزاولتها حينئذ إلا أداة امتحان في المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر .

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف . ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوروبيين بالذهن الغواص والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق . وفي سنة ١٩٠٦ م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس في اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس في اللغة العربية ، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب وانتعشت الثقافة . ثم عين ناظراً (للحقانية) فجدد في إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلائم العصر وتسد الحاجة . ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها في (الجمعية التشريعية) فكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومنتجه الأفتدة .

ولما أعلنت الهدنة في الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبيين في (فرساي) تحركت مصر للمطالبة بحقوقها في تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول ، فنفته السلطة العسكرية الإنجليزية في نفر

(٩٦) انظر ترجمته في : المجلد في التاريخ المصري : ص ٤٢١ - ٤٢٦ ، ومראה العصر : ١٠٠/٢ ، والأعلام الشرقية : ١٣٩/١ ، وانظر الأعلام للزركلي : ٨٣/٣ .

من صحبه إلى جزيرة مالطة، فثار الشعب المصري ثورته المعروفة سنة ١٩١٩. وكان من آثارها أن أطلق المعتقلون وخلي بينهم وبين مؤتمر الصلح في باريس.

وفي سنة ١٩٢٠ دعت الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأي في المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد. ولكن المفاوضات لم تسفر عن تحقيق الأمانى القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة مقابلة الفاتح الظافر. وأستأنف الجهاد على الخطة التي رسمها فأقضى مضاجع الانجليز فنوره مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة، ثم نقل هو إلى جبل طارق. وأطلق سراحهم جميعاً بعد ذلك، فشخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حيناً ثم ارتد إلى مصر. وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ بتحفظاته الأربعة، فأعلن الملك فؤاد الأول استقلال البلاد وأصدر الدستور في سنة ١٩٢٣. وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى سعد رئاسة الوزارة في أوائل سنة ١٩٢٤ م، ثم اعتزلها من السنة نفسها وتولى رئاسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده.

منزله في الخطابة:

لم ير التاريخ المصري، بل الشرقي، قبل سعد خطيباً، بلبل اللسان، رفيع الصوت، حافل البديهة، دامغ الحجة، أنيق اللهجة، رائع البيان، حسن السميت، يزواج بين المنطق والشعر، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع، ويرواح بين الجد والهزل، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب، والفيلسوف بدقة الفكر، والموسيقي بجمال الإيقاع.

ذلك لأن سعداً كان رجل جلاد وجدل. تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاهه العمل، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبي اللسان والقلم، وتنفس به العمر في ميادين الحق. فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة، وثقفت بالتجربة، وتقوت بالمرانة، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذي يهضب بالكلام أربع ساعات متواليات، لا يتلكأ، ولا يتلجلج، ولا يتكثر باللغو، ولا يستعين بالتكرار، ولا يطرد نشاط السامع. وكان مع ذلك يخطب كما يكتب، ويكتب كما يخطب، متوخياً في الأمرين براعة التفكير، وبلاغة الأداء، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير، وصحة الأقيسة، وقوة الأدلة.

نموذج من شعره:

وجه رحمه الله هذا النداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر سنة ١٩٢١ م:

رحبت الأمة بعودة نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب، وأعجز وصف كل كاتب وخطيب، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة، وباعث من شعورهم الحي،

ترتعش أعصابهم حماسة، وتخفق قلوبهم بالوطنية الصادقة، للالتفاف حول من اتخذوهم رمز أمانيتهم، وعنوان مبادئهم. ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا من مظاهر الفرح الباهر - تلك الصفات التي تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها، وشعرت من قبلات الترحيب التي غمرونا بها بحرارة قلب يخفق في جسم شعب عظيم. وقد اشترك الأموات والأحياء في أن يملوا على المجموع وكل فرد واجبه نحو الوطن العزيز، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير في الطريق الذي سنّه الحق القويم. وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لما يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم، والتزام هذا الطريق المستقيم.

إننا نشكر البلاد جميعها، قريتها وبعيدها، على حلة الثقة التي زينتنا بها، ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة - وشاركنا في هذا القسم العظيم أصحابنا المخلصون في جهادهم - إننا لا ندخر شيئاً من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية، ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه.

إننا لم نعد إلا لنقوي بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا، ونشد أزرنا بآتحادهم المتين، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة، ونتأكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية التي دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التي وضعتها الأمة، وعاهدناها على احترامها، ومع الخطة التي رسمتها وتعهدها بمتابعتها. ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة، وعاملة على تحقيق غايتها السامية.

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله، ويقبل على شأنه، فالتلميذ إلى مدرسته، والفلاح إلى مزرعته، والصانع إلى مصنعه، والتاجر إلى متجره، والكاتب إلى مكتبه، والمرأة إلى إدارتها بيتها. وعلى الكل من غني وفقير أن يباشر عمله، مراقباً أعمالنا، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى، وأن يعتقد أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً، ويضم إلى قواه قوة.

إلى العمل جميعاً، لنرفع منار الوطن، ونعلي كلمته، ولتحى مصر!

الفصل الخامس

الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم . فظل الشعر - على ندرته - كما كان في العصر الماضي أسير التقليد والصنعة . ثم أدركته نفحة من الهبة العامة في عهد الخديو اسماعيل ، فتردد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائهم ، كالسيد علي أبي النصر والشيخ علي الليثي . وأخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية ، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية . وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض ، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين ، وحاكاه الناشئون من شعراء العصر ، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهليين والإسلاميين ، فأخصبت القرائح ، وأدركت السلائق ، وصحت الأذواق ، وجرى الشعر جزل اللفظ ، محكم النسيج ، متين القافية ، مشرق المعاني ، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوروبية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، ونشاط الحركة العلمية . وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص ، وتعليل الأشياء ، ومناجاة الطبيعة . وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال بمقدمة خارجة عن الموضوع في الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص ؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حي تتساعد أجزاؤه على غرض معين ؛ ونفروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون ، لتغير البيئة واختلاف التربية . وجرت ألسنتهم بالمعاني العامة ، كرثاء مجد مفقود ، وانقاد عيب موجود ، وطلب استقلال منشود . ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبطأ من تقدم النثر ، لأن الثقافة العلمية في مصر أسبق من الثقافة الأدبية ، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التي لا تعد في وسائل الكسب ولا في صميم الحياة .

ومما يملأ النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم مُنوا بالجمود والأذهان ثائرة ، وأصيبوا بالأصغاء وأسباب القول وافرة ؛ فالشعب مضطرم الشعور نائر الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحرية بدمه وماله ، وهم قاعدون تحت الجذر يتشاءبون ويتمطون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى ! اللهم إلا صدحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ ،

يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر، وتحيي مَوَات القلوب. فلما توفى الله في سنة ١٩٢٢ حافظاً وشوقي، وكان اسماهما علمين على الشعر في العهد الأخير، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما، فنشط في مصر القريض، وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة. ولاحت في لبنان المهاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي، ولاغتراب يوهن الجهد الجهيد. والزمن الذي يمحص الأشياء فينفي البهرج الزائف، ويثبت الحق الصريح، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود، من عالم الفناء أو من عالم الخلود.

الشعراء

٩٧ - محمود سامي البارودي

١٨٣٩ - ١٩٠٤ م

١٢٥٤ - ١٣٢١ هـ

نشأته وحياته:

هو ابن حسن بك حسني مدير دنقله وبربر على عهد محمد علي باشا. وُلد بالقاهرة وشُبل في نعمة أبيه. ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعُني بتأديبه بعض أهله. وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً. وكان وهو غض الحداثة مولعاً بحفظ الشعر وإنشاده. ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه. فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو. ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة وسافر إلى الأستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية، وتضلع من آدابها حتى عدّ من شعرائهما. واتصل هناك بالخدّيو إسماعيل عام ١٢٧٩ هـ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر، فتدرّج في الرتب الحربية حتى سما سنة ١٢٩٤ هـ إلى (لواء). ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا، فازداد قوة في أدبه، وخبرة في فنه. وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، فأبلى فيها بلاءً حسناً. فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فولّي مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية. وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العرابية. ورأس النظارة

(٩٧) انظر ترجمته في: تراجم مشاهير الشرق: ٣٣٣/٢، وشعراؤنا الضباط: ص ١٧، وأعلام الجيش والبحرية: ١٨١/١، وتاريخ دولة المماليك بمصر لوليم موير: ص ١٩٧، وانظر الأعلام للزركلي: ١٧١/٧.

بعد شريف باشا، فما لبث غير قليل حتى ثار نفع الثورة واستطار شرر الفتنة، وأكثر الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرّع جلبابها، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجيء.

وسكنت الثورة باحتلال الإنجليز وادي النيل وقُبضَ على مثيري الفتنة وحُكِمَ عليهم بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم في أثنائها اللغة الإنجليزية، ونظم بدائع شعره في العربية. ثم وسعته رحمة الخديو عباس الثاني فعفا عنه سنة ١٣٢٧ هـ ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يعش بعدها إلا خمس سنين قضاها في سكون الشيخوخة وإدعاً قانعاً بين مطالعة الكتب، ومحادثة الصحب، ومعالجة القريض. وقد كف بصره قبيل موته.

شعره:

إن كان لإمرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كل الفضل في إحيائه وتجديده. وكان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة؛ نظم مرتبك، وتكلف بادٍ، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم، فجلاه في خاطره وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقي المستشف. نقص البارودي شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضي والطغرائي وأمثالهم من الفحول، فارتسم شعرهم على لوح قلبه، وانتقش في صفحة ذهنه؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمة أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته.

ما كان البارودي مبتكر معان ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان راض فواف وصائغ قريض: قد كلف بالنعمة؛ وانصرف إلى الصنعة، فأثر المعنى الضئيل في اللفظ الجزل، على المعنى في اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع في الفخر والحماسة والوصف.

مؤلفاته:

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره لثلاثين شاعراً من شعراء العباسي في أغراض مختلفة. وقد نهج في اختياره طريقته في نظمه، فأثر حسن اللفظ والمعنى، وحسن اللفظ، على حسن المعنى وقح المبني، وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر.

نموذج من شعره:

قال في الحماسة والفخر:

ونقع كلج البحر خضت غماره ولا معقل إلا المناصل والجرد

صبرت له والموت يحمر تارة
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوي
صؤول وللأبطال همس من الوني
فما مهجة إلا ورمحي ضميرها

وقال يرثي زوجته :

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي
يادهر فيم فجمعتني بحليلة
إن كنت لم ترحم ضنאי لبُعدها
ومن البلية أن يُسام أخو الأسى
هيهات بعدك أن تقر جوانحي
ولهي عليك مُصاحب لمسيرتي
فإذا انتهيت فأنت أول ذكرتي

وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردوا عليّ الصبي من عصري الخالي
من يذر من بات مسروراً بلذته
يا غاضيين علينا هل إلى عِدَّة
غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم
فاليوم لارسني طوع القياد ولا
أبيت منفرداً في رأس شاهقة
وقال يخاطب مؤججي الثورة العرابية :

نصحت قومي : قلت الحرب مفجعة
فحالفوني وشبوها مكابرة
تأتي الأمور على ما ليس في خلد
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي

وقال من قصيدة بعد عودته من المنفى ،

هل بالحمى عن سرير الملك من يزغ
هذي الجزيرة فانظر هل ترى أحداً
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
فلا مجيب يرد القول عن نبا

وينغل طوراً في العجاج فيسود
وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
ضروب وقلب القرن في صدره يعدو
ولا لبّة إلا وسيفي لها عقد

تقوى على ردّ الحبيب الغادي
كانت خلاصة عدّتي وعتادي؟
أفلا رحمت من الأسى أولادي؟
رغبي التجلّد وهو غير جماد
أسفاً لبعدك أو يلين مهادي
والدمع فيك مُلازم لوسادي
وإذا أويت فأنت آخر زادي

هل يعود سواد اللّمة البالي !
أنى بنار الأسى من هجره صالي
بالوصل يوم أناغي فيه إقبالي؟
وساء صنع الليالي بعد إجمالي
قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
مثل القطامي فوق المربأ العالي

وربما تاج أمر غير مظنون
وكان أولى بقومي لو أطاعون
ويخطيء الظن في بعض الأحايين
وأصبح الشر أمراً غير مكنون
صدق الولاء وتحقيق الأظانين

ومروره بقصر الجزيرة فتذكر عهد إسماعيل :

هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
للملك منها لو فد العز مرتبع
ولا سميع إذا ناديت يستمع

ومنها:

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر في عواقبه ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع

٩٨ - إسماعيل صبري

١٨٥٤ - ١٩٢٣ م

١٢٧٠ - ١٣٤١ هـ

نشأته وحياته:

ولد هذا الشاعر الفنان ودرج على ضفاف النيل، وشب في عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والأدب، فأدخل المدارس النظامية الحديثة، وتنقل في مدارجها من (المبتديان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارب الثامنة عشرة من عمره، وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بدت في (روضة المدارس) وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي، وعبد الله فكري، وصالح مجدي؛ وكانت تصدر مرتين في الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم، فكان صبري يديم النظر فيها، ويحاول الاقتباس منها والافتداء بها، وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه؟ وقريحة سخية ترفده، وذوق سليم يرشده، فنظم بعض القصائد تهنئة للخديو نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً. ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حظه من العلوم في جامعة «إكس» فنال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوروبية، وتذوق الآداب الفرنسية، وصادفت مواهبه الغريزية هناك ريثاً من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصباً. فلما رجع إلى مصر انسلك في طريق القضاء فقطع مراحل وأحدة فواحدة حتى أشرف منه علي الغاية. فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الإسكندرية ثم نقل إلى وكالة الحقانية فشغلها حيناً من الدهر، ثم نفض يده جملة. خدمة الحكومة سنة ١٩٠٧ لبلوغه سن التقاعد. ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاماً موقعة على قيثاره شعره. وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء يفدون إليها للسمر فينشدون

(٩٨) انظر ترجمته في: مشاهير شعراء العصر: ١/١٨٥، والمنتخب من أدب الغرب: ١/٩٢، وكتاب في الأدب الحديث: ٢/٢٥٦، وانظر أيضاً في مقدمة «ديوان صبري» لأحمد الزين: ص ٢٧ - ٤٣، وانظر الأعلام للزركلي: ١/٣١٥.

أشعارهم فينقدها نقد الصيرف، ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل على هذه الحال إلى أن مُني بداء القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة ١٩٢٣ وهو في التاسعة والستين من عمره.

شعره:

عَهِدْنَا بالشعراء الوجدانيين ينبغون في زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والمشاعر مضطربة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبري وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخترق الأربعين. فلم تتدفق قريحته في صباه كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المراتة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقليداً لم يُحكم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قد رزقه أذناً موسيقية وذوقاً سليماً وطبيعة ناقدة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة، والمعاني المبتكرة، وسار وراء البحري ينشد الحب والموت، والجمال والصدقة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التي شُفّت عن روحة، وكشفت عن طبعه، وأحلت من أنداده محل الزعيم. كان صبري كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه وكان شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريد ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدته وهو نادر.

نموذج من شعره:

قال في الغزل ويقال إنه في الأنسة (مي):

أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
فيه للأنفس ري وشفاء
دون بعض، واعدلي بين الظماء
سفن الآمال يزجيها الرجاء
بين لجين: عناء وشقاء
تفتفيها شدة، هل من رجاء
بقبول من سجايك رخاء
تحت عرش الشمس بالحكم سواء
ضمنته من معدات الهناء
لتواري بلثام أو خباء

يالواء الحسن، أحزاب الهوى
فرقتهم في الهوى ثاراتهم
إن هذا الحسن كالماء الذي
لا تذودي بعضنا عن ورده
أنت يَم الحسن فيه ازدحمت
يقذف الشوق بها في مائج
شدة تمضي وتأتي شدة
ساعفي آمال أنضاء الهوى
وتجلي واجعلي قوم الهوى
أقبلي نستقبل الدنيا وما
واسفري، تلك حُلَى ما خلقت

واخطري بين الندامى يحلفوا
وانطقي، ينثر إذا حدثتنا
وابسمي، من كان هذا ثغره
لا تخافي شططاً من أنفـس
راضت النخوة من أخلاقنا
فلو امتدت أمانينا إلى
أنت . روحانية، لا تدعي
وانزعي عن جسمك الثوب بين
وأرى الدنيا جناحي ملك

وقال في ساعة الوداع:

أترى أنت خاذلي ساعة التـو
ويك! قل لي متى أراك بجانبـي
ساعة البين قطعة أنت قدت
لا تحيني، روعي الفداء لما حيـ

وقال:

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمناً

وقال:

تمسي تذكرنا الشباب وعهده
تثب القلوب إلى الرؤوس إذا بدت

وقال في الصداقة:

إذا خانني خل قديم وعقني
تعرض طيف الود بيني وبينه

وقال:

ياموت خذ ما أبقيت الـ
بينني وبينك خطوة

وقال بناجي الله:

يارب أين ترى تقام جهنم
لم يبق عفوك في السموات العلى

أن روضاً راح في النادي وجاء
ناثر الدر علينا مانشأ
يملاً الدنيا ابتساماً وازدهاء
تعثر الصبوة فيها بالحياء
وارتضى آدابنا صدق الولاء
ملك ماكدت ذاك الصفاء
أن هذا الشكل من طين وماء
للملا تكوين سكان السماء
خلف تمثال مصوغ من ضياء

ديع يا قلب في غد أم نصيري
راضياً عن مكانك المهجور
للمحبين من عذاب السعير
ك غدأ من صحيفة المقدور

ولا بشافعة في رد ما كانا
حمل الصبابة فافحق وحدك الآنـا

هيفاء مرهفة القوام فتذكر
وتطل من حدق العيون وتنظر

وفوقت يوماً في مقاتله سهمي
فكسر سهمي فانشئت ولم أرمـ

أيام والساعات مني
إن تخطها فرجت عني

لظالمين غدأ وللأشرار
والأرض شبراً خالياً للنار

يارب أهلني لفضلك واكفني
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
يا عالم الأسرار حسبي محنة
أخلق برحمتك التي تسع الورى
شطط العقول وفتنة الأفكار
غضب اللطيف ورحمة الجبار
علمي بأنك عالم الأسرار
ألا تضيق بأعظم الأوزار

٩٩ - أحمد شوقي

١٨٦٨ - ١٩٣٢ م

١٢٨٤ - ١٣٥٠ هـ

نشأته وحياته :

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي بالقاهرة ونشأ بها. أما أصله فقد سمع أباه يردده إلى الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا فأدخله في معيته، وظل يتقلب في المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية.

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ما ورث عن أبيه فكفلته في المهد جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل ولما بلغ الرابعة من عمره، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حي الحنفي، ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن باكراً ففُضِيَ بها عامين. ثم عدل إلى قسم الترجمة الذي أنشئ فيها ففُضِيَ به عامين آخرين نال بعدهما شهادتها النهائية. ثم ضمه الخديو توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين في (مونبيليه) وعامين في باريس. ثم عاد إلى منصبه في المعية الخديوية. وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رئاسة القلم الأفرنجي في عهد الخديو عباس الثاني. ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوي الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف. ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت إنجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر. ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقي البلاد، فاخترت برشلونه من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم. ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم، ومداخحه المروية في الخديو المنفي ما زلت توهم بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب. فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب، يذود عن

(٩٩) انظر ترجمته في: مرآة العصر: ١١٣/٣، وصفوة العصر: ص ٦٣٦، والمنهج الجديد: ص ٣٧، ومشاهير الكرد: ٨٤/١، ومعجم المطبوعات: ١١٥٨، والمنتخب من أدب العرب: ١٠٨/١، ومناهل الأدب العربي: ٣٧/٦، وأعلام الشرق والغرب: ص ٩٥-١٠٧، وانظر الأعلام للزركلي: ١٣٧/١.

حوضه، ويهتف بمجده، ويعرب عن شعوره، وينقل عن طبعه، ويتغنى بجهاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له في دار الأوبرا الملكية مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول. ولم يزل شوقي مهبط الوحي والإلهام، وموضوع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله في سنة ١٩٣٢، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب، حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه.

شوقي الشاعر:

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب.

كان شوقي ينقل شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح قوي، فيأتي به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق. وهو كالمتنبي في أنه تصرف بين الناس فلا يلبس أولياءهم، وخالط دهماءهم، حتى عرف كيف يصف طبائعهم، ويصور منازعهم. وهو مثله في إرسال البيت النادر، والمثل السائر، والحكمة العالية، مستخلصاً ذلك مما يسوق من المعاني المدح أو الوصف أو الرثاء، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه. وهو كذلك مثله في أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضاً يغرق فيه الذهن أحياناً، فلا يصل إلى قاع، ولا يرسى إلى ساحل. أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق. وأما ألفاظه فأنماط من القول تختلف مادة وصنعاً باختلاف المواقف، وأكثرها عليه رونق طبعه، وسمة ظرفه، وعذوبة روحه. وقد يعفى طبعه أحياناً فيرسل شعره كما يجيء فيأتي بما لا يتفق مع فضله.

وشوقي محافظ في دينه ولغته وفنه، يكثر التردد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب المنزلة، والأماكن المقدسة، ويؤثر النسج على منوال الفحول من شعراء بني العباس، والنظم في البحور الطويلة. وقلما ينظم في الأوزان المستحدثة أو ينوع القافية في القصيدة. على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائياً (lyrique) يستمدّه الشاعر من طبعه، وينقله عن قلبه، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصي (Eptique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث، كأرجوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادي النيل).

ثم عالج الشعر التمثيلي، فنظم رواياته المعروفة: مصرع كليوبترا، ومجنون ليلى،

وقمبیز، وعلي الكبير، وعنترة، والست هدى، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي الكامل. وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء. وله غيره في الشعر كتاب (عظماء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني.

ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب). وله من النثر المرسل قصص منها. لا ياس، وورقة الأس، ومذكرات بتشاءور، وأميرة الأندلس:

نموذج من شعره:

قال من قصيدة يصف فيها دمشق:

آمنت بالله واستثنيت جنته
قال الرفاق وقد هبت خمائلها
جرى وصفق يلقانا بها (بردى)
دخلتها وحواشيها زمردة
والحور في (دمر) أو حول (هامتها)
و (ربوة) الواد في جلاب راقصة
والطير تصدح من خلف العيون بها
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً
وقد صغى (بردى) للريح فابتدرت
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا

دمشق روح وجنات وريحان
الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
كما تلقاك دون الخلد رضوان
والشمس فوق لجين الماء عقيان
حور كواشف عن ساق وولدان
الساق كاسية والنحر عريان
وللعيون كما للطير الحان
أفوافه فهو أصباغ وألوان
لدى ستور حواشيهن أفنان
جفت من الماء أذيال وأردان

وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قصيدة طويلة:

اختلاف النهار والليل ينسى
وصفا لي ملاوة من شباب
عصفت كالصبا اللعوب ومرت
وسلا مصر: هل سلا القلب عنها
كلما مرت الليالي عليه
مستطار إذا البواخر رنت
أحرام على بلابله الدو

اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
صورت من تصورات ومس
سنة حلوة ولذة خلس
أو أسا جرحه الزمان المؤسي
رق والعهد في الليالي تقسي
أول الليل أو عوت بعد جرس
ح حلال للطير من كل جنس

ومنها:

كل دار أخق بالأهل إلا في خبيث من المذاهب رجس

ومنها:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسني

١٠٠ - محمد حافظ إبراهيم

١٨٧٠ - ١٩٣٢ م

١٢٨٦ - ١٣٥٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالي سنة ١٨٧٠ إذ كان أبوه إبراهيم فهمي من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها. ولما كان عمره سنتين توفي أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية. ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه؛ ففضى فيها بضع سنين متبطلاً يزجي فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتيم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، متجنباً علي القدر، لا ينشئ الشعر إلا في ذاك. ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وخرج منها ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية بقيادة كتشنر فبقي هناك زمناً كان لا ينفك فيه متبرماً متمرداً، يلح في العودة إلى مصر. فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المبهمة، لا يستريح لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، وفيء إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بجاهه ويعيش على رفته، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة، يسامر أهلها بعذب حديثه، وينادهمم برقيق شعره. وفي سنة ١٩١١ عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف يومئذ للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلاً

(١٠٠) انظر ترجمته في: مشاهير شعراء العصر: القسم الأول، شعراء مصر: ١٨١ - ٢٠٦، وصفوة العصر: ص ٦٤٣، والمنتخب من أدب العرب: ١/ ١٠٠، وآداب العصر: ص ٢٣٢، وشعراؤنا الضباط: ص ٥٣ - ٩٥، وأعلام من الشرق والغرب: ص ١٠٨ - ١١٢، ومعجم المطبوعات: ٧٣٦، وانظر الأعلام للزركلي: ٧٦/٦.

للدّار، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة ١٩٣٢ وتوفي صيف السنة نفسها.

حافظ الأديب:

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهملة عيش الكسل والتبطل، لا يميل إلى علم، ولا ينشط إلى عمل كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم بن الوليد، وأبي نواس، ممن عاشوا صنائع للملوك، وحمائل على الجوائز، ووسائل اللهو، كان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة. رأى الآمال تنهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع، في مدح عباس وتمجيد عبد الحميد. ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فكتوريا، وتتويج الملك إدوارد السابع، ووداع اللورد كرومر، عبر بها عن الرأي الأرستقراطي في ذلك الحين. ثم خلص للشعب. فلابس دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزح شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، ونظم آماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

عكف منذ شب على دواوين الشعر، وأجزاء (الأغاني) يتحلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها. حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده. ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى ينتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يمينه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض.

حافظ الشاعر:

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيتة الظاهرة. وهو في ذلك ثاني الخمسة الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لآماني شعبه، وتصويره لمساوى عصره. أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فردياته. وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته. كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس، وتستفيض في المجامع، وتردد في الصحف، فيجمعها في باله، ويديرها في خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه.

نموذج من شعره:

قال على لسان اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها.

وناديت قومي فأحتسبت حياتي
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
رجالاً وأكفاء وأدت بناتي
وما ضقت عن أي به وعظات
وتنسيق أسماء لمخترعات
فهل ساءلوا الغواص عن صدقاتي
ومنكم وإن عز الدواء أساتي
أخاف عليكم أن تحين وفاتي
وكم عز أقوام بعز لغات
فيا ليتكم تأتون بالكلمات

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
رموني بعقم في الشباب وليتني
ولدت ولما لم أجد لعرائسي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني
فلا تكلوني للزمان فإنني
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة
أتوا أهلهم بالمعجزات تفناً
ومن خمرياته:

بين هم وبين ظن وحس
س وهيء لنا مكاناً كأمس
دن وآمل من ذلك النور كآسي
من سناها، فذاك وقت التحسي
وتعجل وأسبل ستور الدمقس
لا نطبق الكلام إلا بهمس
من خدود الملاح في يوم عرس

أوشك الديك أن يصيح ونفسي
يا غلام! المدام والكاس والطا
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ
وأذن الصبح أن يلوح لعيني
وإدع ندمان خلوتي وائتناسي
وأسقنا يا غلام حتى ترانا
خمرة قيل إنهم عصروها
وقال من قصيدة (غادة اليابان):

صح مني العزم والدهر أبي
أخطأ التوفيق فيما طلبا
كانت العلياء فيه السببا
أثر الحسنى عقلت الأدبا
لا أرمي برقك إلا خلبا
خاذلاً ما بت أشكو النوبا
بغضها الأهل وحب الغربا
وتفدي بالنفوس الرتبا
تعشق اللهو وتهوى الطربا
أم بها صرف الليالي لعبا

لا تلم كفي إذا السيف نبا
رب ساع مبصر في سعيه
مرحباً بالخطب يبلوني إذا
عقني الدهر ولولا أنني
إيه يا دنيا اعبسي أو فأبسمي
أنا لولا أن لي من أمتي
أمة قد فت في ساعدها
تعشق الألقاب في غير العلا
وهي والأحداث تستهدفها
لا تبالي لعب القوم بها

١٠١ - جميل صدقي الزهاوي

١٨٦٣ - ١٩٣٦ م

١٢٧٩ - ١٣٥٤ هـ

نشأته وحياته :

ولد جميل صدقي الزهاوي في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ م ببغداد لأبوين كرديين كريمين، ثم نشأ في أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب. فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهاؤها. وكان أخوه - كما حدثني جميل - لا يتذوق الأدب، فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو، وتسامح أبيه، إلا أن يديم النظر في الأدب ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة. وكان العراق أيام الزهاوي تركي السلطان سني الحكومة، فالتعليم المدني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة. أما التعليم الديني فظل في صحون الجوامع، عربي اللسان، حر النزعة، طليق الفكرة، فتثقف الزهاوي بهذه الثقافة. تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد البوادي الملهمة. ثم نزع عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر. ثم ابتلي وهو في الخامسة والعشرين من عمره بداء في النخاع الشوكي لازمه بقية حياته. ورُمي بعد ذلك بالشلل في رجله فبرم وأكتأب وتشاءم! ثم مني في عصره بفساد السلطان وأستطالة الجهل، وأنحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة.

لم يخلد الزهاوي إلى التبطل كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر في خطير الأمور، فعين في بغداد عضواً في مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً بالجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الأستانة فحرك فيها لسان النقد وأفض بها مضاجع التجسس، فأنفض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (المكتب المكي) ثم مدرساً للأدب العربية في (دار الفنون) ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق. ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس المبعوثان) وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليلة عن

(١٠١) انظر ترجمته في: الأدب المصري: ٥/١، ومشاهير الكرد: ١٦٣/١، وملوك العرب للريحاني: ٣٨١/٢ - ٣٨٧، وانظر الاعلام للزركلي: ١٣٨/٢.

الشعر والقراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة. حتى غلب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فأتخذوا طريقهم على الهامش. اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي، ثم تخلص عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه، فكان لا ينفك شاكياً ذلك الحرمان متحاملاً على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العزل، حتى توفاه الله ببغداد في أواخر فبراير من عام ١٩٣٦.

الزهاوي العالم:

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفة، ووسيلته إلى ذلك ما تُرجم من المقالات في الكتب والمجلات، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة. ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) في الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله: إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هي دفعها إياها بسبب ما تشعه من الإلكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل.

الزهاوي الشاعر:

الزهاوي شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، والفطنة النافذة، وليس له الأذن التي تمسق، ولا القريحة التي تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزيدة بين الشواطئ المنهارة. وكان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف بأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه والته يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد، فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشبيهاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، ووزارة على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم:
يريد أناس فرقة الشعب جهدهم
ونحن الألى ما فرق الدين بيننا
فلا عطست باليمن تلك المعاطس
وإن كثرت بعض الألوان الدسائس

فَعشنا وعاشت من عصور كثيرة
ولا يعدم الإنسان طول حياته
ولكننا عشنا جميعين أعصراً
وإنا سنحيا والعمائم عندنا
سنحيا نعم في وحدة عربية
وتغرس في قلب الشبيبة جرأة
ساعداً فيما نحاول دولة
قول لشعري أيها الشعر صل وجل
أغاظك أن الجهل في الناس جاهر
يمارس شعري اليوم إصلاح أمة
ستحميك يا شعري فأنذر حكومة
حكومة عدل مهد الأرض حكمها
وليس لها في المغربيين معارض
ومن خطراته :

إن الصراحة تغني
أخو الحجا قبل أن يجـ
وعند من هو غر
كم جامع لكنوز
وقد تموت فتاة
لا تجبنن فليس الـ
إنا نعيش بعصر

لقد مشيت بليل
فما بعدت كثيراً
من لي بماء براد
طلبت شيئاً قليلاً
وكم صحبت خليلاً
كل الأحبة أعدا
لا خير لي من بلادي

جوامعنا في جنبهن الكنائس
صديقاً يواسي أو عدواً يعاكس
كلانا أخو صدق كلانا مؤانس
لها حرمة محمودة والقلانس
لها العلم نظام لها العدل سائس
على الصدق حياً أن تطيب الغرائس
معظمة ترعى علاها أشاوس
فأنت بميدان الفصاحة فارس
يقول وأن العلم في الأذن هامس
فلله شعري اليوم ماذا يمارس
تجل ربوع العلم وهي المدارس
فلا البر موتور ولا البحر خانس
وليس لها في المشرقين مشاكس

ما ليس تغني الرموز
مل الاداة يروز
يجوز ما لا يجوز
يفنى وتبقى الكنوز
ولا تموت عجوز
جبان شيئاً يجوز
فيه الجسور يفوز

داج بغير دليل
حتى ضللت سبيلي
به أبل غليلي
فلم أفر بالقليل
فكان غير خليل
ثي عند خطب جليل
وأسرتي وقبيلي

خاتمة

في الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمنه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره؛ ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح. وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمنه حصون الأمراء المتوحشين من الكتب، وما يعلمه بعض الرهبان المساكين من قشور العلم. وأنقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء، وهؤلاء الرهبان في دورهم يمحون الكتابة من روائع الكتب لينسخوا على صفحاتها الممحوة كتب الدين. حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العيون، فرأوا من وراء هذا الظلام الداخي بقعة من المغرب تسطح فيها شمس المشرق. فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من إسبانيا، وأن النور قبس من نور بغداد، استيقظ في نفوسهم طموح الكمال الإنساني، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب.

ففي سنة ١١٣٠ م أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف ريموند، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية، وعانهم على ذلك اليهود. فبعثت هذه الترجمة في أوروبا الخادمة شعوراً لطيفاً، وروحاً طيبة. وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور (لكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي، وأحصاها غيره أربعمائة. وكان أكثر ما ترجم في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس

الخ . . وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة ، وأحتفظ بعضها بقوته وقيمتها حتى القرن التاسع عشر .

قال المؤرخ الإنجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ : «إن مدارس العرب في إسبانيا كانت هي مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوروبيون يُهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة . وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب ، واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا . وممن ورد تلك المناهل الراهب (جربرت الفرنسي) ، فإنه بعد أن ثقف علوم اللاهوت في (أورياق) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادي الكبير حتى ورد أشبيلية ، فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين . ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر ، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة ٩٩٩ م بأسم سلفستر الثاني . كذلك تخرج على علماء قرطبة (شانجه) ملك ليون وأستوريا ، وأولع بعض علماء إيطاليا بالعربية ، وعدوها لغة الأدب العالي ، وأوصى قومه الراهب روجر بيبكون الإنجليزي بتعلم اللغة العربية وقال : «إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين ، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب» .

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق . وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية ، فأقبلت الأمم الأوروبية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في التعرف على الشرق وارتباد أقطاره ، وكشف آثاره ، وفتح كنوزه ، وإحياء أدبه ، وطبع كتبه ، وإبراز فنه ، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه ، يطلب به الوقوف على لغات الشرق وميتها وحيها ، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها . وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع وأنشأوا المكتبات وألفوا الجمعيات وأقاموا المؤتمرات وأصدروا المجلات ، وجمعوا المخطوطات ، ونشروا نفائس الكتب ، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة ، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ ، وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء ، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح ، والمنهاج المنطقي الحديث ، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب ، في تحضير المادة ، وتنظيم البحث ، وتوخي الدقة ، وتحري الصواب ، وتقصي الفروع .

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين فيتيه Veter المتوفى ١٦٦٧ ، وهو طبيب الدوق دورليان ، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن المكين ، وتيمورلنك لابن عربشاه ، وعلم المنطق ، والأمراض العقلية لابن سينا ، واللامية للطبراني . وهربلو Herblot المتوفى سنة ١٦٩٦ ،

كان أميناً لسر لويس الرابع عشر وأستاذاً للعربية في معهد فرنسا، ألف (المكتبة الشرقية) وهو معجم جامع لما في الشرق من فلسفة وأدب واجتماع. وسديو Sédillot. المتوفى ١٨٣٢ كان متخصصاً في علم الفلك عند العرب وقد نشر نبذة في الهندسة لابن الهيثم ١٨٣٤ و(علم الرياضيات وجامع المساويء والغايات) في الآداب الفلكية لأبي الحسن علي وكوسين دي برسفال deparcéval المتوفى ١٨٣٥ نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين، ونشر المعلقات السبع وأمثال لقمان. وطبع الجداول الفلكية من الريح الحاكي، ومقامات الحريري، وترجم الجزء الناقص من ترجمة جلان لألف ليلة وليلة. وسلفستر دسائي المتوفى سنة ١٨٣٨، برع في اللغتين العربية والفارسية وتخرج عليه فيهما طائفة من أعلام الاستشراق في الغرب. ألف في العربية كتاباً سماه (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) اختار فيه صفوة من المنظوم والمنثور، وكتب شرحاً وجيزاً على مقامات الحريري، ونشر كلية ودمنة وألفية ابن ملك ورحلة عبد اللطيف البغدادي. ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى المجامع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال الفرنسي. ومارسل: المتوفى سنة ١٨٥٤ كان مترجم الحملة الفرنسية في مصر، ألف كتاباً في وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربي، وله مقالات قيمة عن ابن ميمون، وابن سينا، والضامري، والقزويني. نشرها في المجلة الآسيوية، وكرمبر المتوفى سنة ١٨٥٧ أخذ العربية عن دسائي، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي ثم محرراً في المجلة الآسيوية. نقل إلى الفرنسية بعض كتاب السلوك للمقرئزي، ونشر مقدمة ابن خلدون في ستة أقسام فرنسية عربية ومنتخبات من أمثال الميداني، وكتاب الروضتين لابن شامة. وله أبحاث في المجلة الآسيوية عن النبطيين والعباسيين والفاطميين. وكتاب الأغاني، وذوق الشرقيين في الكتب، وحياة المسعودي وآثاره.

ومن أشهر المستشرقين الألمانين فريتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ تلقى العربية عن دسائي، وعين أستاذاً لها في كلية بونه. نقل ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي. وزبدة الطلب في تاريخ حلب لابن النديم، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه. وقد وضع معجماً عربياً لاتينياً في أربعة أجزاء. وجوستاف فلوجل المتوفى سنة ١٨٧٠ نشر كشف الظنون، والفهرست لابن النديم، ومؤنس الوحيد للثعالبي، وطبقات الحنفية لقطلوبغا، والقرآن. وفلبشرو المتوفى سنة ١٨٨٨، ألف في الآداب الشرقية كتباً كثيرة، ونشر تفسير البيضاوي والمفصل للزمخشري. وفردنان وستفيلد المتوفى سنة ١٨٩٠، نشر طبقات الحفاظ للذهبي، وسيرة ابن هشام، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم البلدان لياقوت. ونلدكي المتوفى سنة ١٩٣١ ألف في الألمانية تاريخ القرآن، وتاريخ عروة بن الورد، وبحثاً في الشعر الجاهلي، وبحثاً في المعلقات السبع وغير ذلك.

وممن اشتهر من الإنجليز أدوردين المتوفى سنة ١٨٧٤ عاش بمصدر صدر شبابه ثم وضع كتاباً في وصف مصر، وكتاباً آخر في عادات المصريين وشماثلهم ترجم أكثره في مجلة الرسالة وطبع مجموعاً في مطبعتها سنة ١٩٤٩، ومعجماً عربياً إنجليزياً، ثم ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية. ووليم موير المتوفى سنة ١٩٠٥ ومن مؤلفاته حياة النبي، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الخلافة؛ وهي من المراجع المعتمدة في الجامعات الإنجليزية والهندية.

وممن اشتهر من الإيطاليين دافيد سنتالانا المتوفى سنة ١٩٣١ ولد في تونس ودرس في روما، وكان له بالمذهب المالكي والشافعي علم واسع. عين في سنة ١٩١٠ أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية، فألقى بها محاضرات قيمة. ونلينو المتوفى سنة ١٩٣٨، وقد دعي في سنة ١٩٠٩ لإلقاء محاضرات في تاريخ أدب اللغة العربية فأفاد بخبرته وطريقته كثيراً من الناس. وقد عني بالمسائل الجغرافية والفلكية عند العرب. واغناطيوس جويدي المتوفى سنة ١٩٢٥ وقد انتدبته الجامعة المصرية كذلك سنة ١٩٠٨ للتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى.

وإذا أردت استقصاء هذا الموضوع فأقرأ كتاب (المستشرقين) للأستاذ نجيب العقيقي فقد ألم بتاريخ الاستشراق إماماً ينفع الغلة ويغني عن المزيد.

ذيل

في تفسير ما ورد في الكتاب من الألفاظ الغريبة والتركيب الغامضة

- ٧ كنف الله: حرزه ورحمته. عرك الخطوب: شدتها وأذاها. النحلة: المذهب والديانة. اللسن الفصاحة.
- ١٧ ١٨ النفر بالسكون: لجماعة يتقدمون في الأمر.
- ١١ القطر: المطر. يسمونها. يرعونها. أخلفت السماء: أطمعت في الغيث ولم تمطر. القرابة الواشجة: المشتبكة. الظعينة: الزوجة. البناء بالمرأة: التزوج منها.
- ١٢ أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً: والمقصود بأنها كلمة جاهلية أنها كانت في العصر الجاهلي قبل الإسلام. ولكن وجه رسول الله ﷺ هذا الكلام إلى وجهه الصحيح فقال عندما سئل كيف ننصره إذا كان ظالماً قال: «أن تمنعه من الظلم». الاستقراء: تتبع الحوادث بالملاحظة لتكون منها حكماً. الأنواء: جمع نوء وهو سقوط نجم في الغرب وطلوع نجم بحياه من ساعته في الشرق كل ثلاثة عشر يوماً، وكانوا يضيفون أفاعيل الطبيعة من المطر والرياح إلى الساقط منها فيقولون مطرنا بنوء كذا.
- ١٦ العرم: السدود تبنى في الوادي لحبس المياه خلفها وهي الخزانات. وسيل العرم
- سيل عظيم هدم عرماً كان أهل سبأ في اليمن قد بنوه فأغرقهم ومزقهم في البلاد. المنافرة: المحاكمة في الحسب والنسب. شن: اسم رجل، وطبقة: اسم امرأة اتفقا في الذكاء والدهاء فضرب بهما المثل. لأمر ما جدع قصير أنفه: يضرب لمن يظهر شيئاً ويضمّر خلافه: يداك أوكتا وفوك نفخ. أوكى السقاء: ربطه. وأصله أن رجلاً نفخ سقاء وربطه ليعبر عليه النهر سابحاً، فلما توسطه انحل السقاء وأوشك الرجل على الغرق، فاستغاث برجل على الشاطئ فقال له هذا المثل، يضرب لمن يجني على نفسه بإهماله. الجدد: الأرض الغليظة المستوية. العي: العجز عن الكلام.
- ١٩ اللحم: ما نسج عرضاً، والسدي: ما مد من خيوط الثوب طولاً. القدح المعلى: أكبر الأنصبة في الميسر. الذمار: ما يلزمك حمايته والدفاع عنه. ذات البين: العداوة والبغضاء على رأي والنسب والصدقة على رأي آخر. الأقيال: جمع قيل وهو الملك الصغير. يشد أزرها: يقويها ويؤيدها والأزر الظهر. المخاصر: العصبي. والصفاح: السيوف. والنشر:

المرتفع من الأرض . حسن الشارة . جميل الهيئة .

- ٢٠ صدف عن الدنيا : زهد فيها . داج : مظلم .
وساج : ساكن والأبراج اثنا عشر برجاً
تقابلها الشمس في طريقها طوال السنة ،
المدحاة المدحوة على خلاف القياس وهي
المبسوطة . البصائر : جمع بصيرة وهي
العلم والخبرة . ورد الماء : أتاه ليشرب ،
وصدر عنه : رجع ، ومعناه هنا الموت وعدم
الرجوع منه ، الغابر : المقيم . العيلة :
الفقر . أجدكما منصوب على نوع الباء ،
ومعناه أوجد منكما هذا ؟ أو منصوب على
المصدر ومعناه مالكما ؟ أجد منكما هكذا ؟
الكري : النوم .

٢١ الصدى : صوت والفقار . الخمر .
العولة : البكاء . الأشلاء : الأعضاء بعد
البلى والتفرق . والصهاء : الخمر . وأشتهر
في اللهو : أمعن فيه وأسترسل . النجمة :
طلب الكلا في موضعه . الارتباد : البحث
عن المكان المناسب للانتجاع . وعفو
الرأي : عاجله . وأكتظم بإدرتنا أغفر زلتنا ،
والبادرة ما يبدو منك عند الغضب .
الوقص : الكسر . والصفاء : الحجر ،
والقضم . كسر الشيء بأطراف الأسنان .
والهضم : الظلم .

٢٢ المقلص : الفرس المشرف الطويل
القوائم . والعائق الكاهل . والنجاد : حمالة
السيف . السابغة : الدرع . وعداء علندی :
فرس طويل شديد . والنهد : الفرس
الجميل الجسم المشرف . والشطب :
جمع شطبة : وهي طريقة السيف في متنه .
الجلة : جمع جليل وهي العظام من
الإبل . والنيب : جمع ناب وهي الناقة
المسنة . نجشأ : تكلف الجشاء وهو إخراج

صوت مع ربح من فمه عند الشبع
«نكرع» .

الحشف : أردأ التمر . راش السهم : الزق
عليه الريش . الريث : البطء . الحوبة :
الذنب . سدة بيته : خزانة والقائمون
عليه . الحرص : الدهر .

الخور : الضعف . التواكل : أن يتكل كل
على الآخر . أحداث الدهر : نوائبه .
الغرض : الهدف . تعاوره . تتداوله .

يزدهيهم : يستخفهم . عفو البديهة وفيض
الخاطر : ارتجالاً من غير روية . المناد :
المعوج . أصادي ، أداجي وأخاتل .

وعوثة الصحراء : صعوبتها وتوعرها .
السمة : العلامة . الحلبة : ميدان السباق .

القباطي هي الستور والأثواب والطنافس
التي اشتهرت مصر بصنعها قبل الإسلام
وبعده ، مفردها قبطية وقد وردت بهذا
اللفظ في قول زهير بن أبي سلمى :

ليأتينك مني منطلق قدع
باق كما دنس القبطية الودك

٢٨ الغيث هنا : البقل والمرعى
والوسمي : أول مطر الربيع . والرائد : من
يبعثه أهله في طلب المرعى . الأسحم
هنا : السحاب الأسود اللون . العجلزة :
الفرس الشديد العضل . أترز الجري
لحمها : أيسه وأضمره . الأكرع ، جمع
كراع : أطراف القوائم . الحال : الثوب
الناعم من ثياب اليمن . الصوار : القطيع
من بقر الوحش . الجمزى : نوع من
العدو . الأجلال ، جمع جل : وهو ما
يوضع فوق ظهر الفرس سائراً له .
القرهب : الطويل الضخم من الثيران .
القرأ : الظهر . الروق : القرن . الأخنس :
منخفض قصبة الأنف ، الذيال : طويل
الذيل . فعاديت منه : عادى بين الصيدين

تابع العدو في طلق واحد. فتخاء
الجناحين: ليتها في طول. اللقوة:
السريعة التي تخطف كل شيء. طاطاً
فرسه: وخز. وحركه للعدو. الشمال:
السريعة الخفيفة.

الأنيم وأورال: موضعان. الخزان: جمع
خزن بالضم والفتح: ذكر الأرناب.
حجرت: اختفت في أحجارها. أبيت
اللعن: كلمة يدعى بها للملوك، أي
حفظت مما تلحن به. تستك: تضيق.
الأقارع: بنو قريع بن عوف وكانوا قد وشوا
به إلى النعمان، تجادع - تشاتم: الجوامع
جمع جامعة، وهي الغل في اليد. الأمة:
الدين والاستقامة. لصف وثريرة: ماءان
على طريق مكة؛ والألال: جبل. السمام:
طائر أكبر من الخطاف سريع الطيران.
خصوصاً عيونها: ضيقات. رذايا: جمع
ردية، وهي المطروح المتروك من الإبل
الهالك في أثناء الطريق. الحني: جمع
حنية؛ وهي القوس. العر: داء جلدي
يصيب الإبل في مشافرها وقوائمها.
الضالع: الحائر المذبذبة. السيب:
العطاء. التصريد: الشرب دون الري.

كنع المسك بالشيء: تراكم ولزق. رث
الحبل: بلي، والمراد العهد. متع
الضحى: بلغ آخر غايته. العصبه بفتح
فسكون: الشجرة تعلق في شيء عال
فتكون كالخيمة عليه، وهو الشجر المتسلق
كاللباب مثلاً. مذود. اسم جبل.

الأناب: شجرة. العم: العظيم. المحرم:
المنوع قطع سوقه. كابة: موضع. لم
تخط: لم تعصب فروعه وتضرب بالعصي
فتكسر. لم يتعضد: لم يقطع. عارض:
اسم أخ للشاعر. رهط بني السوداء
أصحاب أخيه عبد الله. الأحاليف:

المتحالفون على نصرة بعضهم لبعض.
قبلاً: عياناً ومقابلة. غرية: حي من بني
حشم. القعدد: الجبان يقعد عن نصر
قومه. الصياصي جمع صيصاة: شوكة
يسوي بها الحائك نسجه. البو: ولد الناقة
أو البقرة يحشي جلده تبناً فتجد راحته فيه
فتدر اللبن له. البرم: من لا يدخل مع
القوم في الميسر ضناً بالجزور، وكانوا
يطعمون لحومها للفقراء. تناوحت الريح:
هبت من كل ناحية، وذلك زمن الشتاء.
العضاء: الشجر الشائك. الضريع: نبات
خيث لا تقربه الدواب. المعضد:
المقطع. كمش الأزارع قصيره، وذلك
كناية عن العفة والنجدة. طلاع أنجد:
كناية عن اقتحام الصعاب. السيد العمرد:
الذئب الشرس في عسلانه، يريد به فرسه.
الشطي: العظم اللازق بالساعد أو الساق.
العبل: الضخم. الشوى: الأطراف.
النسا: عصب يجري في الفخذ والساق.
والشئق: المقبض، المنقبض. المقلد:
العنق. المصدر: الأسد. الجيل فثمد:
موضعان. طحا به قلبه: ذهب به كل
مذهب. شط وليها: بعد وصالها.

المغمر من الرجال: المحقق الذي
يستجمله الناس. ما أنت أم ما ذكرها؟ ما
استفهامية للتعجب، وأم للإضراب بمعنى
بل أي ما شأنك، بل ما الداعي لذكرها
إياك وهي من ربيعة وأنت من تميم.
القليب. البشر: الجسرة: الناقة القوية:
الرادف: كل شيء يكون خلف الراكب.
الخييب: السير السريع. الوجيب: خفقان
القلب. النهدة: الفرس الحسن الجسم.
البواء: السواء والكفاء. شعصها: ضربها
ونخسها. العادية: القوم يعدون وكذلك
الخيل. سوم الجراد: انتشاره في طلب

المرعى . وزعتها : كفتها ومنعتها . سبا
الخمير : اشتراها . الأيسار : الذين يضربون
القداح في المقامرة . أقلبه : أبغضه .

٣٢ شالت نعمتنا : تفرقنا واختلفنا . الهامة :
فيما يزعم العرب طائر كالبوم يخرج من قبر
القتيل إذ لم يأخذ بثاره فلا يزال يصيح
ويقول اسقوني حتى يشار له . لاه ابن
عمك : أصله لله ابن عمك فحذفت اللام
الخافضة في لحن الكلام . الديان : القائم
بالأمر ، المسغبة : المجاعة . العزاء :
الضييق والشدة . زيد على مائة : زيادة
عليها . سفوان : اسم مكان . والكمأة
الفرسان جمع كمي . الحدثان :
الحوادث . المقاديم : جمع مقدم .
والمرار بالروع هنا الحرب .

٣٣ أبيض فياض : نقي من العيوب كريم
والمعتفون طالبو المعروف . ما تغب
فواضله : ما تنقطع عطايها . المقامات :
جمع مقامة وهي الجماعة في مجلس
واحد . والانتباب : القصد إلى الموضع .
المكثرون : الأغنياء . ومن يعثر بهم :
يقصدهم من الفقراء . لم يليموا : لم يقموا
في اللوم . ولم يألوا لم يقصروا . الخطي :
الرمح نسبة إلى الخط وهي جزيرة في
البحرين شهرت بعمل الرماح والوشيج
شجر الرماح ، ومعنى المثل لا يلد الكريم
إلا الكريم . لاح الشيء : لمحه وأبصره .
واليفاع . التلال . والمقرر : من أصابه
البرد . يصطليانها يستدفئان بها . والأسحم
الداجي : الليل الشديد السواد . وكف
مبيدة : متلفة . الهجان : البيض الكرام من
الإبل ، يستوي فيه المذكر والمؤنث
والجمع . الأوارك : جمع أركة ، وهي التي
رعت الأراك . المومة : المفازة . جحيشا :
فريداً . والمنخرق : السريع . الشد : العد .

حاص عينيه الكرى : خاطها على
الاستعارة . الشيحان : الغيور على حرمه .
الريثة : الطليعة . تاج : اسم مكان . وما
تمر وما تحلي : أي لا تنفع ولا تضر .

٣٤ أحساب نيتن مع البقل : أحساب غير أثيلة
أحدثها الغنى . والواصل . الطالب الراغب
من الله . تصفر منها الأنامل : كناية عن
الموت . الحصائل جمع حصيلة : وهي
ما كسبه المرء من حسنات وسيئات . يقسم
أمره : يديره . هبلته أمه : ثكلته وفقدته .
والوائل : الناجي . والموائل : المنجي .
تزعك الموازل : تكفك الحوادث .
الخابور : نهر بين رأس عين والفرات .
والكلس ما يبنى به من النورة وأخلاطها .
الخورنق والسدير : قصران عريان
جاهليان : والصبا : الريح الشرقية .
الدبور : الريح الغربية . وألوت به . ذهبت
به . الكلكل : الصدر . انجل : انكشف .
الإصباح : الصبح . وأمثل : أفضل . مغار
القتل : محكمه . ويذبل جبل في نجد .

٣٥ الوكنات : الأعشاش . والمنجرد : القصير
الشعر . والأوايد . الوحوش ومعنى قيد
الأوايد أنه يلحقها فيمنعها من الفرار فكأنه
قيدها . والهيكل : الضخم . والمكر : كثير
الكر . والمفر : شديد الفر . الأيطلان :
الخاصرتان . والإرخاء : الجري .
والسرحان : الذئب . والتقريب : العدو
والنتفل : الثعلب . الحدوج : جمع حدج
وهو مركب النساء كالمحفة . والخلايا :
السفن العظام . والنواصب : مسایل الماء
ومجاريه في الجبال . وود : اسم مكان .
عدولية : نسبة إلى عدول ، رجل كان
مشهوراً بصنع السفن . وابن يامن : رجل
ملاح كان يتخذ السفن الكبار . الحباب :
الموج . والحيزوم : الصدر والمفايل :

وذوو المشالة: أشراف القوم وكبارهم:
طاطاً من إشرافه: خفض تعاليه.

طلال الخفض: السعة والنعيم. درج
بالنعيم بينهما: سعى بها. كليني:
دعيني. وهم ناصب. متعب. وبطء
الكواكب: كناية عن طول الليل. أراح:
رد. وعازب: بعيد.

الأشائب: الأخلاط من الناس. البيض:
السيوف. الغلول: الثلوم. القراع:
المجالدة. الأحلام: العقول. غير
عواذب. غير ذاهلة ولا غائبة. رفاق
النعال: كناية عن الترف والحجرات جمع
حجرة: وهي معقد الأزاز. طيب الحجرة:
كناية عن العفة، ويوم السباسب عيد
الشعانيين، وكان من عادة العسانيين أن
يحيوا ملوكهم فيه برفع أغصان الريحان.
ضربة لازب. أي شيء ثابت لازم.
الجدة: المعنى، ورحب الأناسة: حلیم
وراجح الحصاة. وافر العقل.

اللفظ الحوشي: ما يتحاشاه الكاتب لغرابته
أو ثقله وهجر الحديث فاحشه وتعمل
الشعر تكلفه.

السجيل. المفتول فتلاً واحداً، والمبرم
المفتول على قوتين، وهما مستعاران
للضعيف والقوي. منشم اسم امرأة عطارة
اشترى منها قوم عطراً وتحالفوا على قتال
عدوهم: وجعلوا آية الحلف غمس الأيدي
في ذلك العطر وقتلوا حتى فنوا. فضرب
المثل في الشؤم بعطر منشم. التلاد:
المال الموروث. والأفال والمزمن
المشروط الأذن. خبط عشواء: تسير على
غير هدى كالناقة التي لا تبصر أمامها.
يفره: يحفظه.

ثقف الشعر: تعلمه وأتقنه. أبيضت عيناه:
كناية عن العمى. الفرق: الخوف.

لاعب الفيال وهي لعبة كان يلعبها صبيان
الأعراب، يخبثون الشيء في التراب ثم
يقسمونه بأيديهم ويقولون: أين هو؟
النطفة: الماء النقي لا كدورة فيه. والمزن
السحاب. والجودي: اسم جبل.
ودامس: مظلم. اللصاب جمع لصب،
وهي شقوق في الجبل. والقارس. البارد.
الكواكب ما طال من النبات، والنبات
العميم: المكتهل التام. والأصل جمع
أصيل آخر النهار. صعر خده: تاه وتكبر.
والعرانين: الأنوف. الميسم: أثر الوسم
وهو الكي. استقاد: أقتص. الشجاع:
الحية. صمم: عض ونيب.

ينضحون عنهم: يدافعون، عهد الثقافة:
عهد التلمذة والتدرج.

شام البرق: نظره. والقلل: الجبال والجلل
هنا: الحقير.

فصل بالجنود: رحل بها. تهرأ لحمه:
تقطع وسقط. وجفنة مشفجرة: قصعة
ملأى. وطعنة مسحنفرة: سريعة. مساجلة
الشعراء: أن يتناشد الشعراء بيتاً فبيتاً أو
شطراً فشطراً يبدأ الأول ويكمل الثاني.
المها: بقر الوحش. سقط اللوى: منقطع
الرميل. والدخول وحومل: موضعان في
بلاد العرب.

أزمعت: نويت. أجملني: ترفقي، أعشار
القلب: أجزاءه مقسمة إلى عشرة.
الخليقة: الطبع. وسلي ثيابك الخ كناية
عن المفارقة. كذلك حدى: حظي. جمل
وأعفر: موضعان بالشام. وهوران: كورة
من أعمال دمشق. والآل: السراب،
واللبانات: الحاجات المعنوية. وحمة
وشيزر: بلدان بالشام. والدرب: باب
السكة الواسع وكل مدخل إلى بلاد الروم.
درب الماء النابع الذي لا ينقطع. السراة

٤٥ المألكة: الرسالة. وتأتكل: تحترق من

الغضب. الأثلة: واحدة الأثل، شجر عظيم صلب وتحت الأثلة: كناية عن القذف والغيبة. وأطت الإبل: أنت وحتت. الوعل: تيس الجبل. قتل جمع فتول: وهو الكثير القتل. الأرمذ: من به رمد في عينه والسليم: الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلاً بئرثه. والمسهد، الساهر. الخلعة: الصداقة. ومهدد: اسم امرأة: تردد الدهر: تغير وتقلب. الكلاله: التعب؛ والضمير في لها يعود على ناقته. ٤٩ والسوجي: وجع الخف ورقته من كثرة السير.

٤٦ تراجي: تستريحين - والفواضل: العطايا. ما تغب ما تنقطع. أغربة العرب: سودانها. مسعر حرب: مضرهما ومشعلها. الضر: شد ضرع الناقة حتى لا يرضعها ابنها. ترين على القلوب: تشغيها. يتذاكرون: يحض بعضهم بعضاً على القتال.

٤٧ الأشطان: الحبال التي يرفع بها الماء من البشر. واللبان: الصدر. والأدهم الفرس الأسود. بثغرة نحره: أعلاه. أزور: مال. التحمحم: حنين الفرس ليرق له صاحبه. وبك: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب والكاف للخطاب. الشيطمة: الفرس الطويل والأجرد قصير الشعر. الحتف: الموت. أقني حياءك: الزميه. لا أبا لك: جملة يراد بها التنبيه لا التعنيف. تلاحظوا: نظر بعضهم بعضاً بمؤخر عينه من شدة الهول. معم مخول: كريم الأعمال والأخوال. ساهمة الوجود عابسة. ٥٢ والطوى: والجوع.

٤٨ الحباء: العطاء. أخذ وجهه: سار في طريقه. حاد البادرة: سريع الغضب.

خولة: اسم امرأة. هوجاء مرقال: ناقة شديدة السرعة. العتاق: الجوارح من الطير والنجائب من الخيل. الوظيف: مستدق الذراع والسلق من الخيل والإبل وغيرها. المورد المعبد: الطريق الموطوء المستوي. العثنون: شعرات طوال عند مذبج البعير. وصهاية: نسبة إلى صهاب وهو فحل مشهور. موجدة القرا: قوية الظهر. الوخد: سعة الخطو. مواراة اليد سهلة السير سريعتة.

٤٩ الأتلع: العنق الطويل. التلاع: مجاري المياه من رؤوس الجبال إلى الأودية. استرفد: طلب الرشد وهو المعونة. الحانوت: حانة الخمار. الطريف: المال المكسوب والمتلد: المال الموروث. البعير المعبد: المطلي بالقطران. بنو غبراء: كناية عن الفقراء. الطرف: القبة من الجلد. الدجن: لباس الغيم الأرض وأقطار السماء. البهكنة: المرأة الغضة. المحنب من الخيل: المنعطف العظام، وذلك مدح له. سيد الغضى: الذئب. يعتام الكرام: يصطفيهم، والعقيلة: كرام المال. الطول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه، والثنيان: طرفاه، الموت أعداد النفوس: أي بعددها، فلكل نفس موة.

طريقة قومه: كبيرهم ورئيسهم.

٥٠ غمر البديهة: فياض القريحة. انظرنا: أمهلنا. المخاريق: جمع مخراق وهو سيف من خشب يلعب به الصبيان والجهل: معناه الشدة والسفه. لين القناة: كناية عن الذل، الخسف: الظلم والهوان. ارتجلها عفو الساعة: أنشدها ارتجالاً. ينصح عن قومه: يدافع عنهم. ليقيد منها: ليقترن منها. استل من قلبه السخيمة: أخرج الضغن منه.

في يده: ندم. أوهاق المنية: حبالها.
نابى القافية: قلقها. اليافع: الغلام إذا
نزع وع وشارف البلوغ. وتعل: تسقى المرة
بعد المرة. وتنهل: تشرب أول الشرب.
المطروق: المصاب.

الحميم المكظوم: الماء الحار المحبوس.
الإيلاف: رحلتان تجاريتان لقريش في
الشتاء لليمن وفي الصيف لحوران.
يؤرثون النار: يشعلونها.

الجزع بالفتح: الخرز اليماني والصيني فيه
بياض وسواد. منجماً: مفرقاً مجزئاً على
حسب الحوادث.

المصادع جمع مصدع: وهو البليغ
القومي. السكات والحصر: العي
والعجز.

أحلاماً طافية عقولاً طائشة.

العسب جمع عسيب. وهو جريدة النخل
قد نزع خوصها: واللخاف: حجارة بيض
رقاق.

المنبت: المنقطع عن أصحابه في السفر.
الظهر: الدابة. الجمل لأنف: لمخزوم:
تشق الرجل: لوى شدقه للتفصح. تفيق
في كلامه: توسع وتنطع. الفرس
الشموس: الذي لا يمكن أحداً من ظهره،
وضده الذلول.

الصفق في الأسواق: البيع والشراء. أنفض
رأسه إليه. حركه تعجباً واستهزاء.

الفرزمة. أول عهد الشاعر يصنع الشعر.
أشفى على الخطر: أشرف عليه.

المزاء (بالضم): اسم للخمر اللذيذة
الطعم. السكر (بفتح السين والكاف):
نبذ يتخذ من التمر والتوت.

القطين جمع القاطن. وهم أهل الدرا.
الفوارب: جمع غارب، وهو الكاهل.
المسطار: الخمرة الصارعة لشاربها.

الأراقم: بطون من تغلب. ويغلون:

يياغون. وإحفاء: إلحاح. رقص الكلام: ٥٩
زوره وزخرفه. لا تخلصنا على غرائك: أي
لا تظن أنا نحفل بإغرائك. ملك مقسط:
عادل. الخطة: الأمر. والأملأ:

الجماعات والمفرد ملأ. الطيخ: التكبير،
والتعاشي: التعامي. الحلف: المحالفة.
والكفلاء: جمع كافل وهو الضامن.

الجناح: الذنب. وكندة: قبيلة. الرغاء: ٦٣

صوت البعير. والنجاء: الإسراع في
السير. والموائل: الهارب الفرع. والحررة:
الأرض ذات الحجارة السود: والرجلاء

الغليظة الشديدة. والطود: الجبل. ٦٩
المعترين: الفقراء.

مشيع القلب: شجاع. اللزاز: من يلزم ٥٤

الشيء ويعتمد عليه فيه والجشام: ٧٠

المتكلف للأمور، والمغذمر: الغضوب في
همه. لا يطبعون: فلان يطبع إذا لم يكن
له نفاذ في مكارم الأمور: والبوار. الفساد.

أفطعت العشيرة: أصيبت بأمر فظيع. ٧٥

لا تلبق مما تملك شيئاً: لا تبقى. آليت: ٥٦

حلفت. استقروه: طلبوا منه القرى وهو
طعام الضيف، صرف الحديث: المختلق
المزور. السنة: المجاعة. اقشعرت

الأرض: تقبضت من عدم المطر. حدبا

جدابير. ناقة حدباء. وحدبار: بدت ٧٦

حراقفها من الهزال. ليلة صنير: باردة.

تهورت النجوم: أي ولى أكثر الليل. ٨٣

كسرت البيت: جافيه. وجأ ليته: نحو

عنقه. ٨٦

ينهنه الزجر: يكفه. الصدى: الجسد من ٥٧

الإنسان بعد موته.

نرق. تعوذ. الأنى: الحلم، العوراء: ٥٨

الكلمة أو الفعلة القبيحة، الأود:

الاعوجاج. المسوح: ثياب الرهبان. سقط

- ٨٨ الفتاة الخفرة: الحية. الأتن: جمع أتان. أنثى الحمار. الأعيار: جمع غير، وهو الحمار.
- ٨٩ رجلي ترعية: يجيد وعارية الإبل الهراش: الخصام والقتال، وهو مستعار من هراش الكلاب. القلف: عدم الاختتان.
- ٩١ القرمل: شجر ضعيف لا شوك له وينفضخ إذا وطىء. الفياش: فخر الرجل بما ليس عنده. صفى البعيث: مال وخضيع. اللامة: الدرع.
- ٩٢ ابن اللبون: ولد الناقة إذا استكمل العام الثاني. لز في قرن: شد في حبل. البزل: جمع بازل وهو البعير انشق نابه بدحوه في السنة التاسعة. القناعيس جمع قنعاس: وهو العظيم من الإبل.
- ٩٤ كسعه: ضرب دبره بصدر قدمه وطرده. النفل (بالفتح): الغنيمة. كاس الذيفان: السم.
- ١٠١ طارت نفسه شعاعاً: تبددت من الخوف أو نحوه. لن تراعي: لن تفزعي. والخنخ: الذل. واليراع: الجبان.
- ١٠٢ يعتبط: يموت من غير علة. سقط المتاع: رديئه. الشليل: الدرع. أجم المعروف: كرهه. والعوراء: الكلمة القبيحة. وكره: تتابعه. للندی والسدى: رطوبة الجو، والمراد بهما المعروف. والخود: المرأة الناعمة. وعقبة القدر: ما بقي فيها من المرق وذلك كناية عن الحذب. الفن: الفصن. الورقاء: الحمامة.
- ١٠٣ تخرموا: هلكوا. المروة الحجر: يفغمني: يسد خياشيمي. فشاو بقيس: دافع بهم ومارس.
- ١٠٥ ميعة الحب: أوله وأصله. والغماء: الشدة. المنادح: المفاوز.
- ١٠٦ لا طباخ لهم: لا فائدة ولا قوة. والديندين:
- ١٠٧ أصل الصليان وهو من البقول. البوادر: الشدة. منوا بداء السياسة: أصيبوا به.
- ١٠٨ كأساً روية: ملأى. ويب غيرك، الوب كالويل وزناً ومعنى، لعاً لك: دعاء للعائر لينهض. فوز: مات.
- ١٠٩ الآلة الحدباء: النعش. تنهه دموعها: تكفكفها.
- ١١٠ الجرس هنا بمعنى النغم. أمثل قومه: أشرفهم. تعرقني الدهر: من قولهم تعرق العظم أخذ ما عليه من اللحم نهشاً بأسنانه.
- ١١١ الخز: الحرير. والبز: الكتان.
- ١١٢ مغلفة: رسالة. عبد الدار: قبيلة. لا يطبعون: لا يفسدون.
- ١١٣ جلق: اسم دمشق. وشم الأنوف: كناية عن الشهامة.
- ١١٤ الجنب. الغريب. متحي وأمراسي المتح: إخراج الماء من البشر. وأمرس البكرة. أعاد حبليها إلى مجراه. الأسى: الطبيب. الأرماس: القبور. هرتة الكلاب: نبخته. العرف: المعروف.
- ١١٥ الحفيظة: الغضب، خلا ذرعه: فرغ باله. العواتق: الأرائس.
- ١١٦ نوطه: تعلق. تبع نساء: يزور النساء ويتبعهن. يخصر: يبرد.
- ١١٧ توألت: طلبت النجاة: أريتك: بمعنى خبرني. تغور النجم: أفل. الكاعب: الفتاة الناهد. والمعصر من بلغت شبابها. المشاش: رؤوس العظام.
- ١١٨ سليط اللسان: بذيته.
- ١١٩ العارم: الشد. والذكرد: الشديد القتال. حشد على الحق: سراع الإجابة عند النداء. عيافو الخنا: كارهون للفحش. أنف: أباة الضيم. شمس العداوة: ألداء

الخصام. مجلله: عامة. المساحي:
الفؤوس.

١٢١ مقذع: مفحش. نكباء حرجف: ريح باردة
شديدة الهبوب. الصقيع: الثلج. سروات
النيب: ظهور الجمال: ونطف الرجل:
اتهم بريبة. والعبيط اللحم. القعساء:
العزة. المصير، واحد المصران: الأمعاء.
والألق: الجنون أو شبهه. بحمرء
الفروع: نار القرى.

١٢٢ ينجاب: ينكشف. والقتم: الغبار. صعر
خده: أماله عن الناس كبراً. الأخادع.
جمع أخدع وهو شعبة في العنق من
الوريد.

١٢٣ يرامي قرنه عن كذب: ينازل خصمه من
قرب. اللقحة: الناقة. والرعاء: جمع
راع. أرث النار أو الحرب: أضرهما.

١٢٥ المقرف: النذل ومن أبوه غير عربي.
والوزار: كثير الإثم. كبش الجحفل: قائد
الجيش. نقض مرة: وهن قوة. التطين:
الخدم والحشم والأتباع. السميت: هيئة
أهل الخير.

١٢٦ الضراعة: الذل. الكرايس: جمع كرباس
وهو الثوب الخشن الغليظ من القطن.
رغيب العين: طماع.

١٢٧ العنجهية: الجفوة والخشونة. الاعتراض:
صعوبة المراس. ريق الغرة: رونق
الشباب. والبياض الشيب. تنوص:
تتحرك. صيدحي الضحى: الصباح الرفيع
الصوت. الأباس: القيد. السبتاة:
الحريثة من كل شيء وغرضه الناقة.
أمارت: أسالت، الكراض بالكسر:
الفحل، القوداء: طويلة الظهر والعنق.
أنفجت بالبناء للمجهول: رفعت.
الزحالييف: جمع زحلوفة وهي المكان
المنحدر المملى. الصفصف: المستوي

من الأرض. الدخاص جمع دخص وهو
المزلق. الأحفاص: جمع حفص وهو
البعير الضعيف: استعاره هنا للجبان.
الثأي: الصدع.

١٢٨ ورأيه: أصلحه. العين: الماء الجاري.
لوث العمامة: لفها وتكويرها.
١٢٩ ظمء حياته. من يوم ولادته إلى يوم وفاته.
يجبو للسادسة: يقاربها. أخلى ذرعه:
أفرغ باله.

١٣٠ الكل: العباء. المربوع والربعة: الرجل
بين الطول والقصر، المشذب: الشديد
الطول في نحافة لشعر الرجل: الذي كأنه
مشط فتكسر قليلاً ليس بسيط ولا جعده.
القيقة: شعر الرأس والمراد إن انفرت من
ذات نفسها فرقها وإلا تركها معقوصة.
الحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر
الشعر. القرن: اتصال شعر الحاجبين
وضده البلج. أقى العرفين: سائل الأنف
مرتفع الوسط.

١٣١ الأدعج: الشديد سواد الحدقة: كث
اللحية: كثيفها. ضليع الفم: واسعه.
الأشب ذو الشنب وهو رونق الأسنان
وماؤها. والفالج: فرق بين الشاياء،
المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر
والسرة. الدمية: المصورة من العاج.
البادن: ذو اللحم المماسك الذي يمسك
بعضه بعضاً. الكراديس رؤوس العظام.
شثن الكفين والقدمين: غليظهما
ولحيمهما، سائل الأطراف: طويل
الأصابع. خمصان الأخمصين: متجافي
أخمص القدم والأخمص هو الموضع
الذي لا تناله الأرض من وسط القدم.
مسيح القدمين: أملسهما. التقلع: رفع
الرجل بقوة. التسكفو: الميل إلى سنن
المشي وقصده. الهون. الرفق والوقار.

- ذريع المشية: واسع الخطو. من صيب: ١٣٧ ركلها: رفسها برجله.
- من علو. بخته بأشداقه: يستعمل جميع ١٣٨ ضربت فيه بعرق أشب: أي ذي التباس فنسبه غير صريح. الرأي الجميع: الحازم. واللسان الدرب: الحاد.
- ١٣٩ مات حتف أنفه. مات على فراشه لأن العرب يزعمون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جرحه. حمي الوطيس. اشتدت الحرب، والوطيس: التنور أو المعركة. هدنة على دخن: سكون لعله لا لصلح والدخن: الحقد. رفقا بالقوارير: جمع قارورة. وهي المرأة تشبهاً لها بالزجاج لضعفها. الختن: زوج البنت أو زوج الأخت. لحنه أخته: لامته.
- ١٣٣ شامت الوجوه: قبحت. الدهماء: عامة الناس. الغلس: ظلام الليل. السبال: جمع سبلة وهي طرف الشارب.
- ١٣٤ آس بين الناس: ساو بينهم. الغلق: الضجر والغضب. أقدعوا النفوس: كفوها وأردعوها.
- ١٣٥ ناوس الحرة ثم سالمها: الحرة خشبة في رأسها كفة تصاد بها الطباء، وناوصها الظبي. حابذا ومارسها. يضرب هذا المثل لمن يخالف القوم عن رأيهم ثم يرجع إلى قولهم ويضطر إلى الوفاق. استوثق الأمر: أمكن وانتظم.
- ١٣٦ الداء الدوي: الدفين الذي لا يطب له. والنزعة: جمع نازع وهو رافع الماء من البئر. الأشطان الحبال. والركي: بشر غير مطوية. اللقاح: النياق. مرهت عينه: ابيضت حماليقها. عض الأيدي: كناية عن الندم. يسني لكم طرقه: يمهدها. خيل شمس: جمع شمس وهو الذي يمنع ظهره ولا يكاد يستقر. والذلل جمع ذلول وهو المروض الطبع.
- ١٤١ تنكب قوسه: حملها على منكبه. ذيم: اسم فرس أو ناقة. لفها. جمعها. حطم: مسرع. الوضم: خشبة يقطع عليها اللحم. العصلى: الشديد. الأروع: الذكي. الدوي: الصحراء. والخروج منها كناية عن الخبرة والصبر والجلادة كقولهم: طلاع الثنايا. العرد: الشديد. البكر: الفتى من الإبل. الشنان: جمع شن وهو الجلد اليابس يعلق في الخباء فإذا دنت الإبل منه حرك فنفرت من صوته (أي لا يخاف مما لا يخيف) فررت: أي اختبرت فوجدت ذكياً. الكنانة: جعبة السهام. عجم عيدانها: عضها لينظر أيها أصلب. أمرها: أقواها. الإيضاع: نوع من السير.
- ١٤٢ السلمة: شجرة القرظ تعصب ثم تخبط بالأرض أو بالعصي ليسقط ثمرها. ومعنى الجملة أنهم كهذه الشجرة لا ينتفع منها إلا بالشدة. غرائب الإبل تضرب أشد الضرب عند الهرب. وعند الخلط لا أخلق: لا أقدر ولا أفصل. فريت: قطعت.
- ١٤٣ الألوية السود: أعلام العباسيين.
- ١٤٤ تحور: ترجع. الأفايق: جمع فيقة وهي اللبن. رمحتنا: رفستنا الطير. بارحة: كناية عن سوء الحال. الأسار: القيد.
- ١٤٥ أوسطهم داراً: كناية عن السؤدد والشرف.
- ١٤٦ لا تنقسوا: نفس عليه خيراً: حسده عليه

ولم يره له أهلاً. تتسللون لوأذاً: تهربون خفية. الظليم: ذكر النعام.

١٤٧. أحمرها وأسودها: عجمها وغربتها. تعنو: تخضع. وتحب القلوب: تخفق. داخرين له: أذلاء. الجريرة: الذنب: فسودوا كباركم: اجعلوهم سادة لكم. المسألة: سؤال الناس استجداء.

١٤٨. ضم نشرهم: جمع متفرقهم.

١٥٣. ينمون: ينتسبون. وقسراً: غضباً وقهراً.

١٦٣. ثل: هدم. آرية نسبة إلى الأريين وهم قدماء الجنس الهندي الأوربي.

١٥٥. الفلج: النصر الكبث. الإذلال: الجنة: طائفة من الجن.

١٥٦. قمع: قهر وذلل.

١٥٧. تلكأ: أبطأ وتوقف. المزاجية: اتفاق الكلمات وزناً لا رويًا. الملح جمع ملحمة وهي ما حسن من الأحاديث.

١٥٩. العظام: الشدائد. والسخائم: الضغائن. أشكيناك: أزلنا شكايك وأعتناك: قبلنا عتابك. الحفيظة: الغضب والموجدة.

١٦٠. عروة هذا القميص. يريد الخلافة. خبيء الغمد: السيف. العرفج: شجر سهل وهو القتاد. الهلوك المرأة التي لا تملك نفسها عن زوجها. الآن: ظرف متعلق بأمن أي الآن أمن الأحمر والأسود.

١٦٢. باب الأبواب: ثغر من ثغور بحر قزوين وكانت مدينة شهيرة تعرف الآن بدر بند. الغارب: الموج. تحوذ: تسوق. وملكنا البحر: توسطناه. البحرين: البحر والمطر. الشمال: من يعول عليه. وسروات: جمع الجمع لسري وهو السخي ذو المروءة وسريات جمع: سرية وهي الرفيعة القدر. القلب. العسكر. والظهر: الدابة. واليد: النعمة. والأعضاء: الأعوان. والجوارح:

الأعضاء. والحاجب: الخادم. والعين: الذهب. والراحة ضد التعب. صلد الزند: كناية عن الخيبة. اليمن: القوة: واليسار: الغنى. المرافق ما يرتفق به. الشية: الفتية من النوق. والناب: الناقة المسنة. العيش الأخضر: كناية عن المعيشة الطيبة والمحجوب الأصفر: الذهب. فودي: جانب رأسي. والعدو الأزرق: الشديد العداوة. الموت الأحمر: القتل بالسيف.

١٦٣. احتجن المال: ضمه إلى نفسه. تقفعت: تقبضت. الحلة: الحاجة النقص.

١٦٥. الأساود جمع أسود: وهو العظيم من الحيات. الفادح: الثقيل. والعياء الذي لا يبرأ منه. يماري: يجادل. وينازع. وبذ: غلب. وعادياً: واثياً. ويدلي: يحضر ويحتج.

١٦٦. أثيراً: مقرباً. الفالج: داء يحدث في أحد شقي البدن فيبطل إحساسه. تبلغت به العلة: اشتدت. مجانة: مزاح وهزل.

١٦٧. فل: ثلم. وشبابة: حد، على رسلي برفق وتؤدة.

١٦٨. لساجلتك. باريتك وعارضتك. المصارمة: المقاطعة. يدبل: أدال الله فلاناً من فلان جعل له الكرة عليه. القلى: البغض. الجادة: وسط الطريق. البنيات: الطرق الصغار تشعب من الجادة. الجهارة: حسن القد والمنظر. يتنيل: يتشبه بالنبل.

١٦٩. المدارج: الطرق. يتوقل: يتصعد. اضطلع بكذا: احتمله ونهض به. عشارها: جمع العشار للناقة متى مضى على حملها عشرة أشهر. القولنج: مرض مؤلم من أمراض المعدة. النقرس داء يأخذ في أصبع الرجل.

١٧٠. الديباجة هنا حسن الأسلوب. الوشي: نقش الثوب من كل لون. الغرار: المثال

١٧٩ التنويل: العطاء. الاعتماد: القصد والزيارة.

١٨٠ المسغبة: الجوع.

١٨٢ مؤاتاة: مساعدة. الاخبية المطبنة: الخيام المضروبة.

١٨٣ يتقيلون: يتشبهون، تجرم: نقضي.

عيت: عجزت. مهلهلة النسيج: سخيته.

١٨٤ أشرع الرمح: شهره. البنود: الاعلام. الكماة: الأبطال.

١٨٥ حبة: إدخاراً عند الله.

١٨٦ الأطمار: الثياب البالية. الأبق: الهارب.

النواطير: جمع ناطور وهو حافظ الكرم

والنخل. يشمن: امتلات بطونهن.

الصيد: جمع صيد، وهو الشريف العزيز.

جدا كل جس: أعطاه كل بخيل دنيء:

بلغ. جمع بلغة وهي ما يتبلغ به من

المعيش: صباة العيش: بقيته وآخرته.

طففتها: نقصتها.

١٨٧ الرحل هنا: المنزل. وحضرت الهموم

رحلي: طرقتني. المدائن: مدائن كسرى

وهي إلى جنب بغداد. الأبيض: إيوان

كسرى: والعنس: الناقة الصلبة. درس:

قفر. خافضون في ظل عال: منعمون في

قصر مشيد. يحسر العيون ويخسي: يردّها

حاضرة خاسئة لارتفاعه. خلاط ومكس:

مكانان. حلل: جمع حلة، وهي مكان

التزول والقرية. البساس: القفار. عنس

قبيلة من اليمن: والبحثري طائي. يمني.

غدون أفضاء ليس: صرن باليات.

الدرفس: راية الفرس. إغماض جرس:

سكوت. المشيخ: البطل. يغتلي ارتياحي:

يزداد. وتنقراهم: تفحصهم، أبو الغوث:

ابن البحتري. ولم يصرد: أي لم يسق

دون الري. والعسكران: مكان. اللخس:

أخذ الشيء في نهزة ومخاتلة. أضوا

الذي تضرب عليه النصال لتصلح. يمت:

مت إلى فلان بكذا وصل إليه وتوسل.

غلول: خيانة. استصالك: اصطلامك.

حلبت شطريها: مربك خيرها وشرها. ظل

ذو ثلاث شعب: دخان جهنم على وجه

التشبيه.

١٧١ حلي بصدرك: أعجبك سريج: مسجل.

الحشاشة والذماء: بقية الروح في جسم

المريض: البرحاء: شدة الأذى والمشقة.

أعضلنهن: عضل المرأة حبسها عن

الزواج.

١٧٣ الغلواء: السرعة والذهاب إلى الغاية.

مني: أصيب.

١٧٤ شام البرق: نظره. الإيماض: البريق.

١٧٥ عوارف: جمع عارفة وهي الصنيع

والجميل. ألقى عصاه: كناية عن الإقامة

بعد الظعن.

١٧٦ عفو الساعة: بسرعة من غير كلفة. ابن

بجدتها: العالم بالشيء المتقن له.

والبجدة باطن الشيء. الكدية: التسول.

السماط: الشيء المصطف وما يوضع عليه

الطعام. الأشراف: العلامات.

١٧٧ المقة: المحبة. دخلة الرجل نيته ومذهبه.

النحلة: النوع أو المذهب. الأزر: الظهر

والقوة. التولب: الخنزير: أقني حياءك:

الزميه. خزا وبزا: حريراً وكتاناً. مطارف:

جمع مطرف وهو رداء مربع من الخز في

طرفيه علمان. تعزى: تنسب. العافون:

جمع عاف وهو طالب الرزق.

١٧٨ خضرة الدمن: ما نبت في المزبلة من

العشب. المعيدي: رجل من معد يضرب

به المثل في حسن الصيت وقبح المراءى.

الغلائل: جمع غلالة وهي الثوب الرقيق،

الأحاجي: جمع أحجية وهي الكلمة

المغلقة يحتاجى الناس بها.

الليل: أضواءه. الجوب: الكانون والمكان
الوطيء وأرعن جلس: جبل شاهق. يتظني
الخ... يظنه القادم عليه إنساناً مزعجاً
بفراق حبه أو بتطليق زوجته.

١٨٨ الدمقس: الحرير. ورضوي وقُدس:

جبلان. البرس: القطن. النكس:

الوضيع. ووقوف: جمع واقف. وخنس:

مسترون. القيان: المغنيات. يرجعن:

يغنين وحو ولعس: جمع حواء ولعساء

لسوداء الشفة، وكانت صفة مستحسنة.

غير نعمى لأهلها عند أهلي: يشير إلى

قصة سيف بن ذي يزن وأستعانت بكسرى

في طرد أرباط ملك الحبشة من اليمن بعد

أن ملكها، والبحثري كما نعلم يماني.

السنح: الأصل. حالية العذارى، لابسـة

الحلي منهن. الجديدان: الليل والنهار.

١٨٩ الشمال: الناقة السريعة. لم أعتمد أي لم

أعتمده.

١٩١ قد حال في: تغير. الطرق: الماء خوضته

الإبل وبولت فيه.

١٩٢ اللكنة: العجمة والعي. الزق (بالضم):

الخمير. النقع: الغبار.

١٩٣ الرجعة: الرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

نافقة: رائجة.

١٩٤ نفسي: فرجي وخففي. صعر خده. أماله

عن الناس من كبر. السليقة: الطبيعة.

الأتون: أخدود الجيار والجصاص.

١٩٦ الوظيفة: المرتب من مال أو طعام. وفرة

جعدة: الوفرة ما سال على الأذنين من

الشعر، والجعدة ما كان فيها التواء

وتقبض.

١٩٧ اليم: البحر. الال: السراب. تحيف:

تظلم. مخايل: دلائل على النجم.

١٩٨ نفق عنده: حظي لديه. دالة: جرأة.

١٩٩ ضرب على وتره: جرى على طريقه.

الذن: وعاء الخمر الكبير. اللطف
(بالفتح): الرفق. المعلقة: الخمر

القديمة. المزاج: مزج الخمر بالماء.

٢٠٠ الصهباء: الخمر. الاصطباج: شرب

الخمر صباحاً: المها: جمع مهاة، وهي

البقرة الوحشية. تدربها: تختلها.

القلانس: جمع قلنسوة وهي من أغطية

الرأس كالقبة. تهز بالدلو: ضرب بها في

الماء لتمتليء. أسمت: أرعيت.

٢٠١ السراج: الماشية السائمة. السراة: جمع

سري وهو الشريف السخي. الطيرة: ما

يتشاءم به من الفأل الرديء. المهرجان:

عيد الفرس. القيان: جمع قينة وهي

المغنية، النكتة: النقطة البيضاء في

الأسود. الخالصان: الخالص من الأخذان

بستوي فيه الواحد والجماعة. يلحون:

يلومون.

٢٠٣ الأذريون: زهر أصفر في وسطه خمل أسود

وهو عباد الشمس. الغالية: أخلاط من

الطيب. الدكن: جمع أدكن، وهو المائل

إلى السواد. الخود: المرأة الشابة. يدحو:

يسط. قوراء: متسعة. الرشاء: الحبل.

٢٠٤ رنتث، مستعار من رنق الطائر إذا خفق

بجناحيه ولم يطر. الورس: نبات كالسمسم

أصفر يزرع باليمن ويصنع به. مزعزع،

محرك. شول: نقص. تشعشع العمر:

تقضى إلا أقله. صور: جمع صوراء؛

وهي المائلة الملتفة. روان: نواظر، بين

هنا: بمعنى تبين أي ظهر. ومنه المثل (قد

بين الصبح لذي عينين) مشعشع: مخلوط

بعضه ببعض. أذكى: عطر. ريعان ظله:

وارف ظله. ربعي: نسبة إلى الربيع.

حثث: حرك. الصنج: صفيحة مدورة

من الصفر يضرب بها على أخرى للطرب.

شدوات: تغريد.

٢٠٥ الغلالة: الثوب الرقيق.

٢٠٦ الحندس: الظلام. المنجل: آلة الحصاد.
حلت: منعت.

٢٠٩ أسرار الوجه: الخطوط التي في الجبهة.
الجادي: الزعفران. نسبة إلى الجادية قرية
بالشام. أنماط: جمع نمط وهو ضرب من
البسط. الاستبرق: غليظ الديباج.
النشزات: الأماكن المرتفعة. الفيصل:
اللسان مجازاً. أعنق: طويل شامخ.

٢١٠ ماله عليه: ساعده: العطل: الخلو من
الزينة. شرع: سواء. راد الضحى: أوله.
الطفل: قبيل الغروب. الرسيم: نوع من
سير الإبل. الأنيق: جمع ناقة. المحتد:
الأصل. المحتدي: طالب العطاء.
أكبت: أذل. الغضاضة المنقصة.

٢١١ فكان قد: كأنها قد زالت.

٢١٢ الأربع الأدراس: المنازل المقفرة.
المشكاة: الكوة غير النافذة.

٢١٣ النبراس: المصباح. حصف عقله: قوي.
الكلف: شيء يعلو الوجه كالسمسم.
أجباد الكواعب: رقاب الحسان. القتاد:
شجر شائك.

٢١٤ الوفرة: المال الكثير. مخلق لديباجتيه: ميل
لصفحتي وجهه، وذلك كناية عن
الابتذال. سرمد: دائم. يفدح: يثقل.
فجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع بين
جبلين.

٢١٥ يتزاور: يعوج ويميل.

٢١٦ الفث من الكلام: التافه. الحبك:
الطرق، جمع حبكة. الجواشن: الدروع.
ريق الغيث: أوله. لجب: ذولجيب وهو
الصوت. تدعى: تنتسب. العثير: الغيار.
الحدود: الأحكام الشرعية.

٢١٨ عقود عمره: عقد العدد عشرة. يتجشم:
يتكلف الصعب. الرواض: مذلولو الخيل.

ومعلمو ركوبها. أفعم وطابه: ملا وعاءه.
أخلاف: جمع خلف وهو حلمة ضرع
الناقة. أشلى عليه الكلب: أعراه به. لم
يقم له وزناً: لم يحفل به. يطيش سهمه.
يخيب. الإحالة: التكلم بالمحال.
الثقلان: الإنس والجن. تتيمة: تذله
وتخضعه. كميث الخمر: ما فيها سواد
وحمرة. يسييه: يفتنه: قرن الشمس:
قرصها. لصطنعه لنفسه: اختص به.
لواعج: جمع لاعج وهو الهوى المحرق.
المرار: آخر الشهر وهو المحاق. الإسار:
القيد. الإهاب: الجلد. الحسو: الشرب
شيئاً بعد شيء. الطنبور: آلة للطرب ذات
عنق طويل وستة أوتار من نحاس. لا يزكو
به: لا يليق به. يزمصون شعره: يبتذله.

٢٢٣ العراء: الفضاء. العباب: معظم الماء:

٢٢٤ معصفر: مصبوغ بالعصفر وهو نبت أصفر
يصبغ به. عاج: مال.

٢٢٦ العير حمار الوحش. ساف: شم.
الخزامى: نبت طيب الرائحة. العود
المسن من الإبل. أديم الأرض: سطحها.
الرفات: ما يلي من العظام. الفرقدان:
كوكبان متلازمان. المدلج: السائر آخر
الليل.

٢٢٧ الشرى: مأسدة جانب الفرات. الصلال:
جمع صل وهو الحية الخيشة. المسودة:
هم العباسيون لاتخاذهم السواد علماً
وشعاراً.

٢٢٩ الفلق: الصباح. الأرق: السهاد والسهر.

٢٣٠ السدف: شدة الظلام. تمر بها: تستدرها.
القيان: المغنيات. اللهوات: جمع لهاة
وهي أقصى سقف القم. ذو النون: يونس
عليه السلام. والنون الحوت. الجداء
جمع جدي. السراحين: جمع سرحان
وهو الذئب. مبغوم النداء: لم يفصح عما

في الشفة. الوعاء: رابية من رمل لينة.
الرضاب: الريق. الليل مشمط الذوائب:
لاح فجره. الجوزاء: برج من أبراج
السما. انكدت الشهب: هوت
وتساقطت. الافرنند: جوهر السيف
وشيه. الربطة: الملاة.

٢٥٠ همى الغيث: سقط. الحيا: المطر. الثوب
المعلم: المنقوش، كمن فيه: ستر. برما:
ضجراً. العفاء: الهلاك والبلي.

٢٥٢ الذبر: جماعة النحل. الضرب الهبر أن
ينقطع منه اللحم لشدة. السياق: النزع
والاحتضار. الاستنان: من استنان الفرس
وهو قمصه وعدوه ونشاطه.

٢٥٦ الصبوح: الشراب صباحاً. الأيك: الشجر
الملثف الكثير. المخلق: المعطر
بالخلق. الجاذر: جمع جؤذر وهو ولد
البقرة الوحشية.

٢٥٧ الظلم (بالخ): الريق. الشذا: الرائحة.
الإثم: الخمر مجازاً.

٢٦٢ المرزاة: المصيبة. الغفوة: النوم. الروح
(بافتح) المساعدة. الإيوان: الصفة
العظيمة. الأوار: اللهب. موقرة: محملة.

٢٦٣ تجهم لها: اسقبلها بوجه كربه. يتقلص:
ينزوي ويتراجع. اللسن: الفصاحة.
خامره الداء: خالط جوفه. استشرى
الفساد: تفاقم وعظم. المشارع: موارد
الشاربين.

٢٦٥ قبع في كسر بيته: انزوى وأحتبس.
براذين: جمع برذون وهو دابة دون الفرس
وفوق الحمار.

٢٦٦ حباء: عطاء. تقية: مداراة. حذباً عليه.
عطفاً عليه. سليط اللسان: طويله
وحديده. التنطس: التأنق في كل شيء.
عني: كلف العناء. من مليه: عدد له ما
أعطاه. راش: أغنى: النشب. المال.

يريد. يأسو الجرح: يضمده. أخياف:
مختلفون. خاسوا: نكسوا وعذروا،
انتهاش: نهش. انجاس: انفجار. همع
الدمع: سكب.

٢٣٣ الريم: الغزال.

٢٣٥ الجمانة: حبة من فضة على شكل اللؤلؤة.

٢٣٦ الرشأ: الغزال الأبيض. الرديني: رمح

منسوب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تثقف
الرماح. الشطب: خطوط السيف.

الصوادي: العطاش. يطى: يستهوي.

٢٣٩ شوازيأ: مرتفعات. خزراً: جمع أخزر وهو

ضيق العين. حشرة أذانها لطيفة صغيرة.

قب الأباطل: ضامرات البطون والخصور.

الأنسر جمع نسر وهي لحمة في باطن حافر

الفرس من أعلاه. الخلق: الطيب.

٢٤٠ الشلو: بقية الجسم المأكول. القصور:
الأسد.

٢٤١ ذات بينهما: الصلة والقربة. ضافية الذيل:
طويلته.

٢٤٢ التأسى: التجلد. أنبت: انقطع.

النسرين: ورد أبيض عطر قوي الرائحة.

الزقوم: شجرة في النار يطعم منها أهلها.

والفسلين: ما يسبل من جلود أهل النار.

٢٤٣ السناء: الرفعة والسنى الضوء. القذال:

مؤخر الرأس. العلاوة: أعلى الرأس أو

العنق.

٢٤٤ يمتاح فضله: آتاه يطلبه. الفنك: دابة

يفترى جلدها أي يلبس فرواً.

٢٤٦ مسجور: ملآن. سرجت أغصانها: امتدت

وطالت. تفري: تكشف.

٢٤٧ الخضارم: البحار.

٢٤٨ اللمى: الريق. المجرة: نجوم كثيرة لا

ترى بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوءها

فيرى كأنه خط أبيض.

٢٤٩ الشنب: بريق الأسنان. واللعلس: سمرة

إشراف: تعالي. بشكائم: الشكيمة
الحديدة المعترضة في فم الفرس. غفلا:
لم يسم واضعوها. الدثور: الدروس.
الدهماء: جماعة الناس.

٢٨٥ ولا بدع: لا غرابة.

٢٨٦ نكل عنه: نكص وجبن: أبيقوري:
شهواتي نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة
اليونان. مستهتر: لا يبالي بما فعل.

٢٨٧ خانقاه: مكان الصوفية. توسط باحتها
وشارف غايتها: كنياتان عن التضلع منها.
شخص: ذهب. التناسخ: انتقال النفس
الناطق من بدن إلى بدن آخر، تقمصت:
انتقلت أو لبست.

٢٨٨ الحلولية: فرقة من المتصوفة تقول إن الله
حال في كل شيء متحد بكل جزء وتجوز
أن يطلق على كل شيء أنه الله.

انتكث فعله: انتقض أمره. الأرزاء:
المصائب، عفى على اللغة: محاها.

٢٩٥ النعرة: الخيلاء والكبر. الردء: العون،
الوزر: الملجأ.

٢٩٦ رنقت عليه المنية: رفرت عليه كالطائر،
والذماء: بقية الروح. الأرضة: دوية تأكل

الخشب والكتب. وزحوا: هلكوا من
الإعياء. أغطشت. أظلمت، دياجير:

جمع ديجور وهو الظلام. شارق: كوكب.
بارق: برق.

٢٩٧ ما كان أروح: ما كان أسر. نخونتها:
تنقصتها.

٢٩٨ بلة الفصاحة: قليل منها. الإحماض:
الانتقال من الجد إلى الهزل.

٣٠١ السراوة: المروءة والسخاء.

٣٠٢ أقيال: جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير.

٣٠٣ انثالت على: تابعت وكثرت.

٣٠٧ ارفض عنها الوهن: زال الضعف.

٣٠٨ ذكا: اشتعل. العفاء: البلي. خبا: خمد.

٢٦٧ السواد: ما بين البصرة والكوفة وما حولهما
من القرى، النبط: جيل من العجم ينزلون
بالبطائح من العراقيين وقيل إنهم عرب.
يتخرجون: لا يرون فيه حرجا ولا بأسا.

٢٦٨ لأخذت عليه: أخذته. مراغ: مذهب.

٢٦٩ أرادته على كذا: حملة عليه. التجبيه:
المقابلة المكروه.

٢٧٣ الخبز القفار: غير المأدوم. السارية:
العمود.

٢٧٥ الغضا: شجر عظيم من الأثل. غض:
طري. الجنى: الثمر. تقتحمه العين:

تزدريه: انساغ: سهل دخوله في الحلق.
اللها: جمع لهأة لما بين مقطع أصل

اللسان إلى أقصى الحلق.

٢٧٧ أصفاه: أسبغه وأطاله. مهاواة للملوك:

مسايرة لهم. المسكوكات: النقود.

والسجلات: الأوراق الرسمية. العاديات:

الأشياء القديمة نسبة إلى عاد. أغفال

السرواة: جمع غفل لغير المجرب.

المفتريات: مختلفات الأحاديث. الجرح

والتعديل في الحديث: تنقص الراوي أو

تركيبه.

٢٧٨ كل عليها: عبء. الجد العائر: الحظ

السيء.

٢٨٠ الربعة: لا بالطويل ولا بالقصير. يرتضخ:

ينزع إلى العجم في الفاظ من الفاظهم.

٢٨١ أحفظ: أغضب. ما عتم: ما لبث.

اليقين: الموت. حسن البزة: حسن

الهيئة.

٢٨٢ انفسح درعه: طال باعه، أندر: أتى

بالنادر. السميت: هيئة أهل الخير.

٢٨٤ انضوى إليه. انضم. صدع. جاهر.

أمضى الركائب في طلبها: أطال السفر في

البحث عنها. حذاه إلى كذا: دعاه إليه.

العامة: الحائرة. ظهراء: نصراء.

الرومان ولد سنة ١٠٦ وتوفي سنة ٤٣ قبل
الميلاد. الاصفاء، أصفى الشاعر: انقطع
شعره. شبل في نعمة أبيه: ربي يجبو
للسابعة: يناهزها. أضراهم أجراهم. يبلغ
الكتاب أجله: يبلغ الحكم أمده. اللدد:
الخصومة الشديدة. رجال المايين: موظفو
البلاط العثماني أيام الخلافة.

الأريكة: سرير منجد مزين. خبا أوراهها:
ضعف شأنها.

٣٠٩ الخانة: الذليلة.

٣١٩ النافق: الرائع. تجلو عنها أعقاب العلة:

تبرأ من بقاياها. ديمستين: أخطب الناس

في اليونان ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢

قبل الميلاد. شيشرون: أفصح خطباء

الفهرس

مقدمة

٧ أدب اللغة. تاريخ الأدب. فائدة تاريخ الأدب. تقسيم تاريخ الأدب. العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة. أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية.

الباب الأول - العصر الجاهلي

- ١٥ **الفصل الأول:** نشأة اللغة العربية: اللغات السامية. اختلاف اللهجات وسببه. أطوار تهذيب اللغة العربية. الأسواق. أثر مكة وعمل قريش.
- ١٨ **الفصل الثاني:** النثر: تقسيم النثر. أنواع المأثور منه. الحكمة. الوصية. الخطبة. مميزات النثر الجاهلي. الخطابة ودواعيها. أسلوبها. عاداتهم فيها. أشهر الخطباء.
- ١٩ قس بن ساعدة الإيادي. حياته. أسلوبه. نموذج من كلامه.
- ٢١ عمرو بن كزب الزبيدي. حياته. صفته ومنزلته. نموذج من كلامه.
- ٢٢ نماذج من النثر الجاهلي. الأمثال. الحكم. الخطب. الوصايا.
- ٢٥ **الفصل الثالث:** الشعر: تعريفه وأوليته. الشعر والعرب. أنواع الشعر وأغراضه. سبب خلو الشعر العربي من القصص. الملاحم المشهورة: مميزات الشعر الجاهلي. الرواية والمعلقات.
- ٢٨ نماذج من الشعر الجاهلي.
- ٣٦ **الفصل الرابع:** الشعراء الجاهليون وطبقاتهم. مكانتهم. من تكسب بالشعر منهم. تقسيمهم باعتبار الزمن والإجادة.
- ٣٧ امرؤ القيس: نشأته وحياته. شعره. نموذج منه. ٢٧/١ - ٣٣.
- ٣٩ النابغة الذبياني: نشأته وحياته. شعره ومميزاته. نموذج منه. ٥/١ - ١٠.
- ٤١ زهير بن أبي سلمى: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. تحليل موجز لمعلقته ١٩/١ - ٢٣.
- ٤٤ الأعشى: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. نموذج منه. ٤٠/١ - ٤٦.
- ٤٥ عنترة العبسي: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. نموذج منه. ١٠/١.
- ٤٧ طرفة بن العبد: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. تحليل موجز لمعلقته. ١٤/١.
- ٥٠ عمرو بن كلثوم: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. نموذج منه. ٣٦/١.

٥٢	الحارث بن حلزة: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. نموذج منه. ٣٨/١.
٥٣	ليبد بن ربيعة: نشأته وحياته. شعره. ومميزاته. نموذج منه.
٥٥	حاتم الطائي: نشأته وحياته. أخلاقه. شعره. نموذج منه. ١٧٨ - ١٧٦/٢.
٥٨	أمية بن أبي الصلت: نشأته وحياته. أخلاقه. شعره. نموذج منه. ٣٣٢ - ٣٢٩/٢.
٦٠	نشأة الخط في بلاد العرب، البصرة والكوفة.
٦١	جدول تسلسل الخطوط السامية.

الباب الثاني - عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

٦٣	الأدب الإسلامي:
	العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي. حال الجزيرة العربية قبيل الإسلام. معنى الجاهلية والإسلام. تغير العقلية العربية بالإسلام. ضعف الأثر الإسلامي في الأعراب ونتائجه. أثر الفتوح في حياة العرب. أثر الخصومة السياسية في الأدب.
٦٧	مصادر الأدب الإسلامي:
٦٧	(١) القرآن الكريم: أسلوبه. إعجازه. أغراضه ومعانيه. تأثيره. قراءاته. جمعه وتدوينه. قيس من نوره.
٧٣	(٢) الحديث: منزلته الدينية. قيمته اللغوية والتاريخية. اختلافه عن القرآن في ذلك. الحديث والوضع. أثر الحديث على علاقته في الأدب والأسلوب. أسلوب الحديث.
٧٦	(٣) الشعر الجاهلي.
٧٦	(٤) الأدب الأجنبي.
٧٨	أنواع الأدب الإسلامي:
٧٨	الشعر: حاله في عهد النبوة. معركة الهجاء بين قريش والمسلمين. أثر الدين والحضارة فيه. نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الإنتاج العقلي للعرب. العصية والثورة والحزبية وأثرهما في وفرة الشعر. تأثر الشعر بالحياة الجديدة في معانيه وأغراضه. اختلاف مظاهر الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية. خصائص الشعر في العراق، الأخطل وجريز والفرزدق. تحليل مذاهبنهم في الهجاء. الشعر السياسي ومذاهبنهم فيه. شعر الشيعة. شعر الخوارج.
١٠١	نماذج من الشعر الأموي.

الفصل الرابع - الشعراء وطبقاتهم:

١٠٧	الشعراء المخضرمون:
١٠٧	كعب بن زهير: نشأته وحياته. شعره. نموذج منه. ٢٢٢ - ٢١٠/٢.
١٠٩	الخنساء: حياتها، وشعرها نموذج منه. ٣٥٣ - ٣٥١/٢.
١١١	حسان بن ثابت: نشأته وحياته. شعره. نموذج منه. ٣١٦ - ٣١١/٢.
١١٣	الحطيئة: نشأته وحياته. شعره. نموذج منه. ٢٢٦ - ٢٢٢/٢.
١١٥	الشعراء الإسلاميون:
١١٥	عمر بن أبي ربيعة: نشأته وحياته. شعره. نموذج منه.

- ١١٨ الأخطل : نشأته وحياته . شعره . نموذج من شعره . ١٢ - ٧/٣ .
 ١٢٠ الفرزدق : نشأته وحياته . شعره . نموذج من شعره . ٧٩ - ٧٢/٣ .
 ١٢٢ جرير : نشأته وحياته . شعره . نموذج من شعره . ٧١ - ٦٧/٣ .
 ١٢٥ الطرماح بن حكيم : نشأته وحياته . شعره . نموذج من شعره . ٥٩/٣ .
 ١٢٨ النثر : الخطابة .
 - الخطباء :

- ١٢٩ محمد رسول الله : مولده ونشأته وبعثته . فصاحته . أثر الحديث في اللغة والأدب .
 ١٣٢ عمر بن الخطاب : نشأته وحياته . صفاته ومواهبه . نموذج من عهده وخطبه .
 ١٣٥ علي بن أبي طالب : نشأته وحياته . أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه .
 ١٣٧ سحبان وائل : نشأته وحياته . نموذج من خطبه .
 ١٣٨ زياد ابن أبيه : نشأته وحياته . أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه . خطبته . البتراء .
 ١٤٠ الحجاج بن يوسف : نشأته وحياته . أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه . خطبه .
 ١٤٢ الكتابه : تدوين الدواوين . تأثر الأسلوب العربي بالأسلوب الفارسي .
 - الكتابة :

- ١٤٣ عبد الحميد بن يحيى : نشأته وحياته . أثره في الكتابة . أسلوبه . نموذج من نثره .
 ١٤٥ نماذج من النثر . الحكم . الخطب . الرسائل .
 ١٤٨ اللحن ونشوء العامية .
 ١٤٨ النحو .
 ١٤٩ العلوم في العصر الأموي .
 ١٤٩ الخط بعد الإسلام .

الباب الثالث - العصر العباسي

- ١٥٣ خطره وأثره ومميزاته . اختلافه عن العصر الأموي . أثر الحضارة الآرية فيه . انتقال الخلافة إلى بني العباس على يد الفرس (هـ) .
 ١٥٤ الفصل الأول : اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها . ما اقتبسته العربية من الفارسية وغيرها . ضعفها عند استيلاء الأعاجم على بغداد .
 ١٥٦ الفصل الثاني - النثر :
 ١٥٦ الكتابة : أثر الحضارة الفارسية فيها . اتساعها . أسلوبها . نزوعها إلى الإطناب والزخرف . سريان الضعف إليها . طبقات الكتاب . طريقة ابن المقفع ، طريقة الجاحظ ، طريقة ابن العميد ، طريقة القاضي الفاضل .
 ١٥٨ الخطابة : الخطباء : داود بن علي (هـ) شبيب بن شبة .
 ١٥٩ نماذج النثر : التوقيعات . الخطب . الرسائل . المقامات .
 ١٦٣ الفصل الثالث - الكتاب :
 ١٦٣ ابن المقفع .
 ١٦٦ الجاحظ .

- ١٦٩ ابن العميد .
١٧١ صاحب ابن عباد .
١٧٣ الخوارزمي .
١٧٥ بديع الزمان الهمداني .
١٧٧ الحريري .

١٨٠ القاضي الفاضل . ١٨٢ الفصل الرابع - الشعر:

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه . أثر الحضارة في شكله ووزنه وغرضه ، أثر ترجمة العلوم في الشعر . الشعب السياسي والشعر . تعزيد الخلفاء للشعر : نفع هذا التعزيد وضرره . حالة الشعر في عهد السلاجقة .

١٨٤ نماذج من الشعر العباسي : الحماسة ، المدح ، الرثاء ، الهجاء ، الوصف ، الحكم والأمثال ، الاعتذار والاستعطاف .

١٩١ الفصل الخامس - الشعراء المولدون :

- ١٩١ شعراء بغداد :
١٩١ بشار بن برد ٢٢٨/٣ .
١٩٥ أبو العتاهية ٩٦/٤ - ٩٩ .
١٩٨ أبو نواس ١٠٩/٤ - ١٢٠ .
٢٠١ ابن الرومي ١٧٢/٤ - ١٧٧ .
٢٠٤ ابن المعتز ١٤٨/٤ .
٢٠٧ الشريف الرضي ١٨٧/٤ - ١٩٠ .
٢٠٩ الطغرائي .

٢١١ الشعر والشعراء في الشام : الشام في عهد بني أمية . الشام في عهد بني حمدان .

- ٢١٢ أبو تمام ١٢١/٤ - ١٣٢ .
٢١٥ البحتري ١٣٤/٤ - ١٤٠ .
٢١٧ المتنبي ١٩/٤ - ٤١ .
٢٢١ أبو فراس ١٣/٤ - ١٨ .
٢٢٣ أبو العلاء المعري .

٢٢٧ الشعر والشعراء في الأندلس : عبد الرحمن الداخل . سياسة الأمويين في الأندلس غيرها في الشام . حضارة الأندلس وأثرها في الشعر . انتشار اللغة العربية في إسبانيا . أثر الشعر العربي في الشعر الإفرنجي ، رأي الفرنج في الشعر العربي .

- ٢٢٩ نماذج من الشعر الأندلسي .
٢٣٤ ابن عبد ربه . العقد الفريد ٥٢/٥ - ٥٣ .
٢٣٦ ابن هانيء الأندلسي ٧/٥ - ١٠ .
٢٤٠ ابن زيدون .
٢٤٤ ابن حمديس الصقلي .

- ٢٤٧ ابن خفاجة الأندلسي .
- ٢٥٠ لسان الدين بن الخطيب .
- ٢٥٢ الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين :
- ٢٥٤ الشعراء في مصر .
- ٢٥٥ كمال الدين بن النبيه .
- ٢٥٨ ابن الفارض .
- ٢٦٠ بهاء الدين زهير .
- ٢٦٢ الفصل السادس - العلوم :
- الترجمة والتأليف : رقي العلوم وانتشارها . أثر العرب فيها .
- ٢٦٣ العلوم الادبية - علم الادب :
- الادباء :
- ٢٦٤ الأصمعي .
- ٢٦٥ أبو الفرج الأصبهاني .
- ٢٦٦ كتاب الأغاني .
- ٢٦٧ علم النحو . الكوفيون والبصريون . منشأ الخلاف بينهم . النحو في عاقبة أمره .
- النحاة :
- ٢٦٨ سيبويه .
- ٢٦٩ الكسائي .
- ٢٧٠ الفراء .
- ٢٧١ ابن الحاجب .
- ٢٧١ علم اللغة . المعجمات .
- ٢٧٢ اللغويون . الخليل بن أحمد .
- ٢٧٤ ابن دريد . ٧٦/٤ .
- ٢٧٥ علوم البيان .
- ٢٧٦ التاريخ . نشأته وتطوره .
- ٢٧٧ مذهب العرب في التاريخ .
- ٢٧٧ العلوم الشرعية - علم الحديث :
- المحدثون :
- ٢٧٨ البخاري .
- ٢٧٩ مسلم بن الحجاج .
- ٢٧٩ علم الفقه .
- الفقهاء :
- ٢٨٠ أبو حنيفة النعمان .

- ٢٨١ مالك بن أنس .
 ٢٨٢ محمد الشافعي .
 ٢٨٣ أحمد بن حنبل .
 ٢٨٣ العلوم العقلية - الفلسفة :

- الفلاسفة :

- ٢٨٥ ابن سينا .
 ٢٨٦ الفيزائي .
 ٢٨٧ ابن رشد .
 ٢٨٩ الفصل السابع - القصص والمقامات في الادب العربي :
 ٢٩٠ قصة عترة (هـ) الحكايات ، ألف ليلة وليلة .
 ٢٩١ الأمثال . كليله ودمنة .
 ٢٩٢ المقامات وكتابها .

الباب الرابع - العصر التركي

- ٢٩٥ بعد سقوط بغداد . كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة .
 ٢٩٦ أعلام هذه المفازة . نوابغ هذه الفترة على الإجمال .
 ٢٩٨ صفي الدين الحلبي .
 ٢٩٩ ابن منظور .
 ٣٠١ أبو الفداء .
 ٣٠١ ابن خلدون .
 ٣٠٣ عائشة الباعونية .

الباب الخامس - العصر الحديث

- ٣٠٧ الفصل الأول : نظرة عامة . حالة مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، غزو نابليون لمصر وأثره الأدبي ، أعمال محمد علي ، جهود إسماعيل في نشر الثقافة ، أثر الاحتلال الإنجليزي في التعليم .
 ٣١١ الفصل الثاني - وسائل النهضة الحديثة :
 ٣١١ المدارس .
 ٣١٢ الجامعة الأزهرية .
 ٣١٣ الجامعة المصرية .
 ٣١٤ الطباعة .
 ٣١٥ الصحافة .
 ٣١٦ التمثيل .
 ٣١٧ المجامع الأدبية ، المجمع العلمي العربي بدمشق - مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٣١٩ الفصل الثالث - الفن:

الكتابة - الفن القصصي والروائي

٣٢٢ الفصل الرابع: أساطين النهضة الحديثة في مصر والشام والعراق والمغرب.

- الكُتّاب:

- ٣٢٥ جمال الدين الأفغاني: حياته وأعماله، نموذج من كلامه.
٣٢٨ الأستاذ الإمام محمد عبده: نشأته وحياته. صفاته وأخلاقه. أثره في اللغة والأدب. أثره في العلم والدين. نموذج من نثره.
٣٣١ الشيخ علي يوسف: نشأته وحياته. أخلاقه وفضله. أسلوبه وعلمه. نموذج من نثره.
٣٣٥ إبراهيم المويلحي: نشأته وحياته. أسلوبه. آثاره.
٣٣٧ حفني ناصف: نشأته وحياته. أخلاقه. نثره وشعره. مؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٣٩ باحثة البادية: نشأتها وحياتها. مكانتها وحياتها في العلم والأدب. نموذج من كلامها.
٣٤٠ مصطفى لطفي المنفلوطي: نشأته وحياته. أخلاقه. أسلوبه. مؤلفاته وأدبه. مترجماته. نموذج من نثره.
٣٤٣ عبد العزيز شاورش: نشأته وحياته. أخلاقه. أسلوبه. مؤلفاته. نماذج من نثره.

- الأدباء:

- ٣٤٦ ناصيف اليازجي: نشأته وحياته. نثره وشعره. علمه ومؤلفاته. نموذج من كلامه.
٣٤٨ أحمد فارس الشدياق: نشأته وحياته نثره وشعره. مؤلفاته. نموذج من كلامه.
٣٥٠ بطرس البستاني: نشأته وحياته نثره وشعره. علمه وعمله نموذج من كلامه.
٣٥٢ إبراهيم اليازجي: نشأته وحياته نثره وشعره. أدبه وعلمه. نموذج من كلامه.
٣٥٣ حمزة فتح الله: نشأته وحياته أخلاقه وعلمه. نموذج من كلامه.

- الخطابة والخطباء:

- ٣٥٥ عبد الله نديم: نشأته وحياته. أخلاقه ومواهبه. نموذج من كلامه.
٣٥٧ مصطفى كامل: نشأته وحياته. نموذج من خطبه.
٣٥٩ سعد زغلول: نشأته وحياته. منزلته في الخطابة. نموذج من نثره.

٣٦٢ الفصل الخامس:

- الشعراء:

- ٣٦٣ محمود سامي البارودي: نشأته وحياته. شعره ومؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٦٦ إسماعيل صبري: نشأته وحياته. شعره ومؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٦٩ أحمد شوقي: نشأته وحياته. شعره ومؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٧٢ محمد حافظ إبراهيم: نشأته وحياته. شعره ومؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٧٥ جميل صدقي الزهاوي: نشأته وحياته. شعره ومؤلفاته. نموذج من شعره.
٣٧٨ خاتمة في الاستشراق والمستشرقين. تاريخ الاستشراق، أشهر المستشرقين.
٣٨٣ ذيل في تفسير الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة.

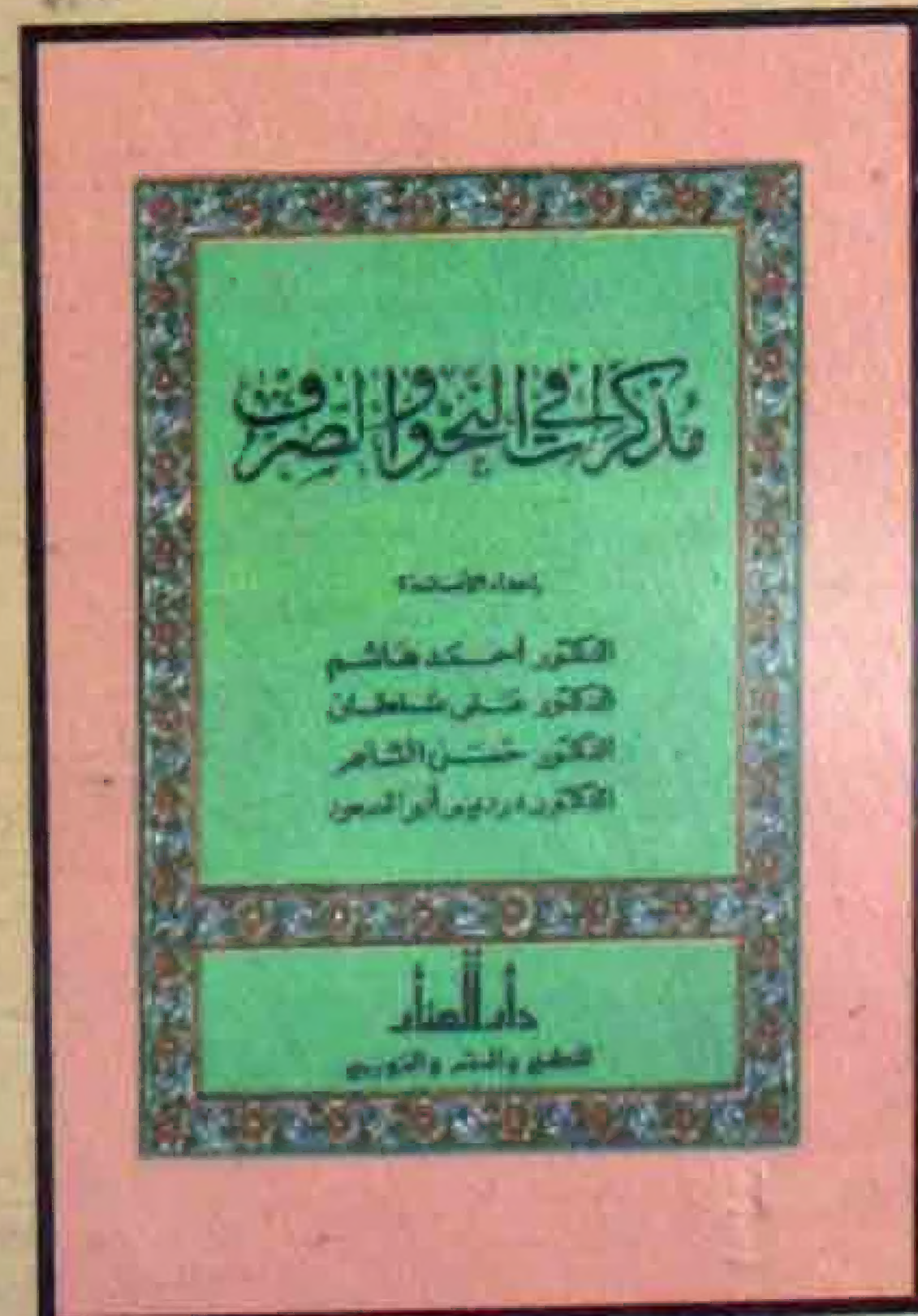
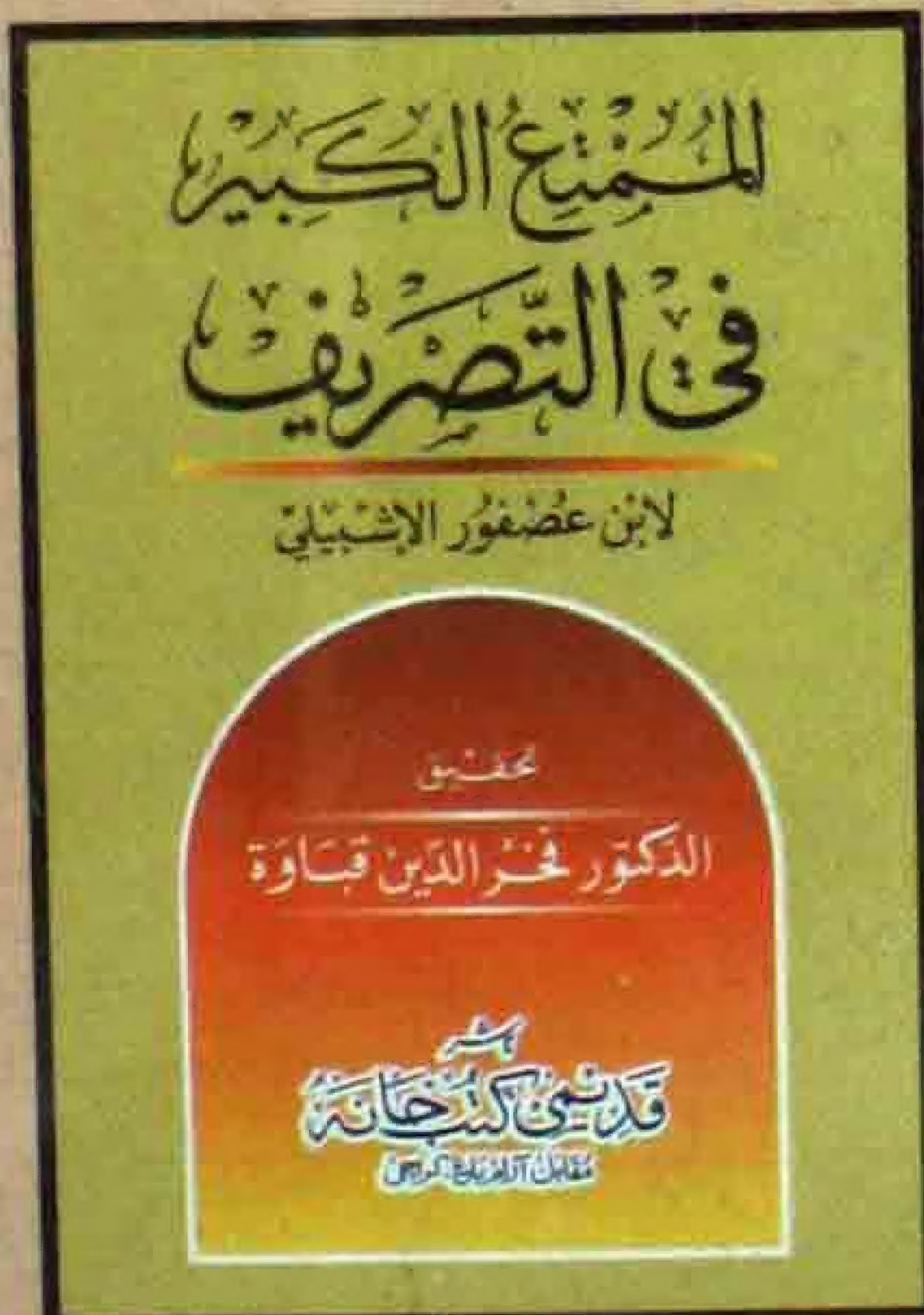
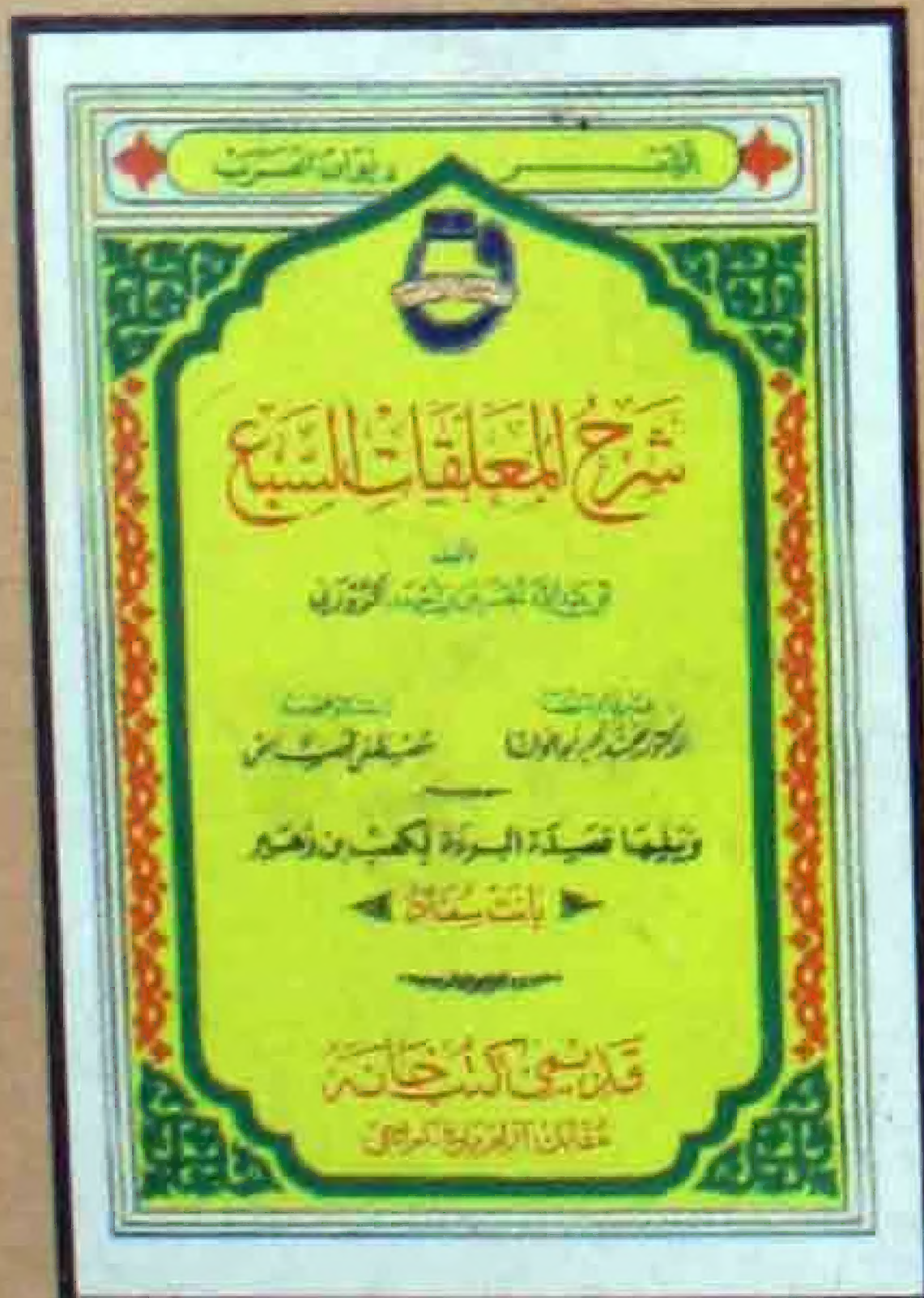
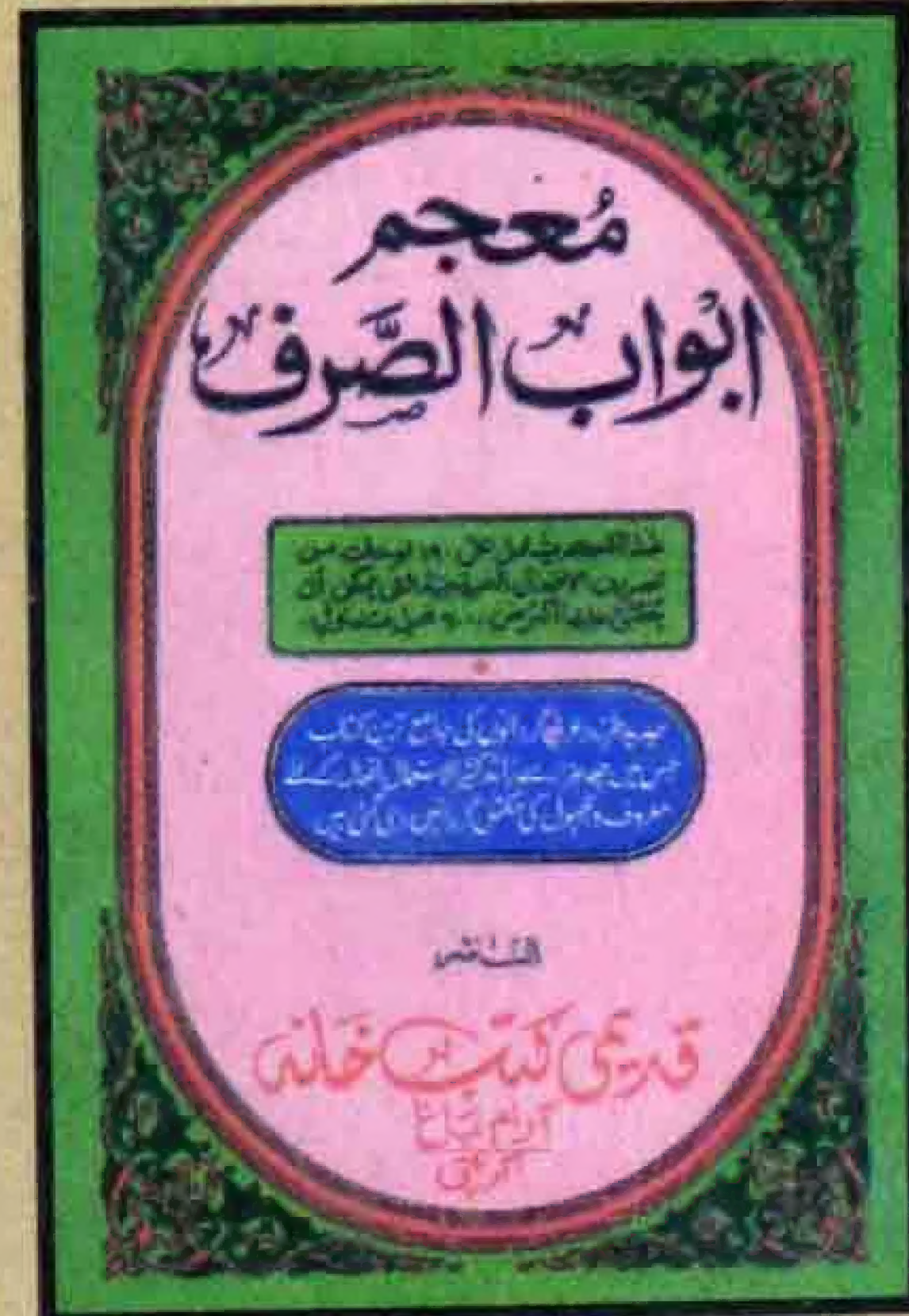
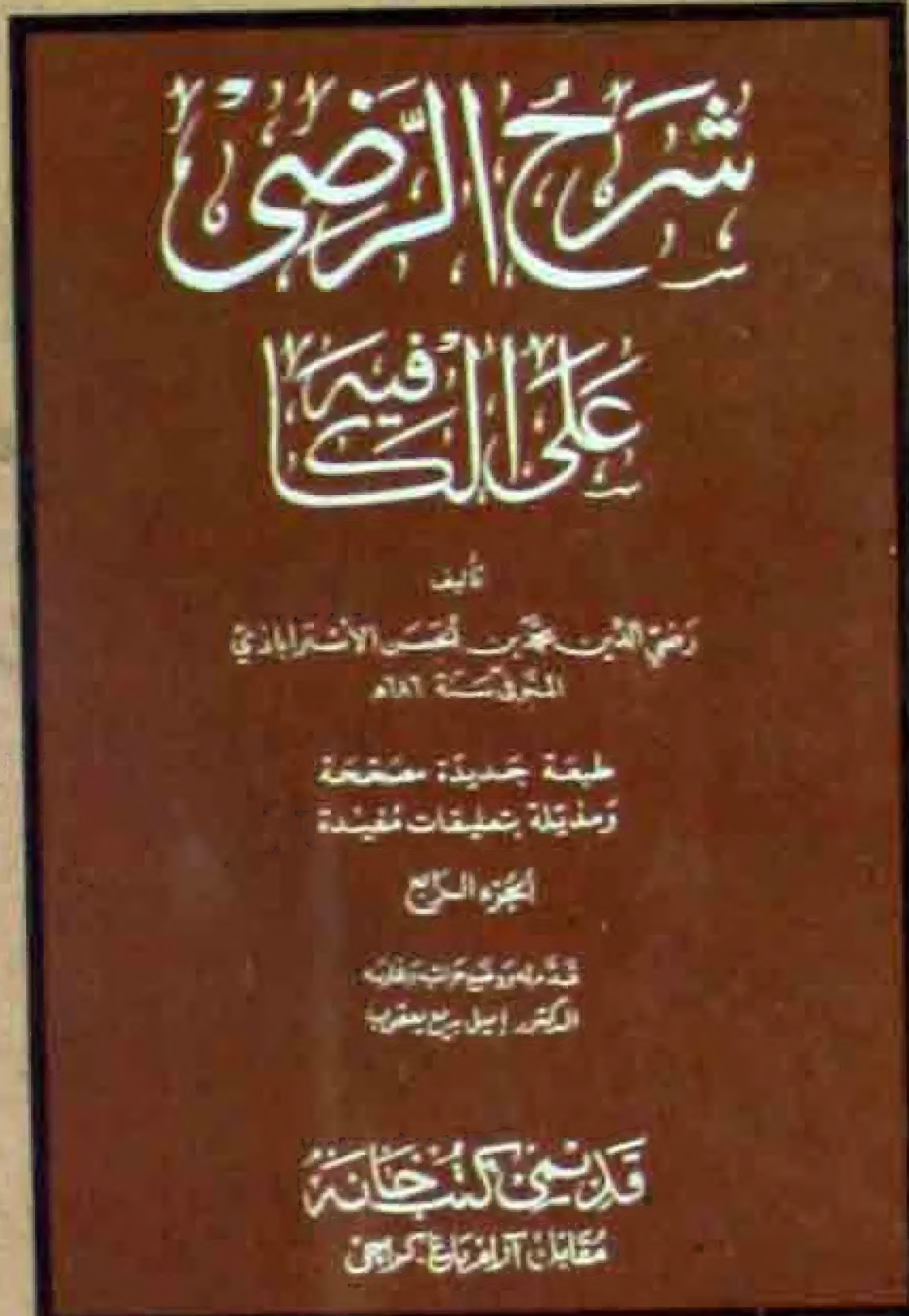
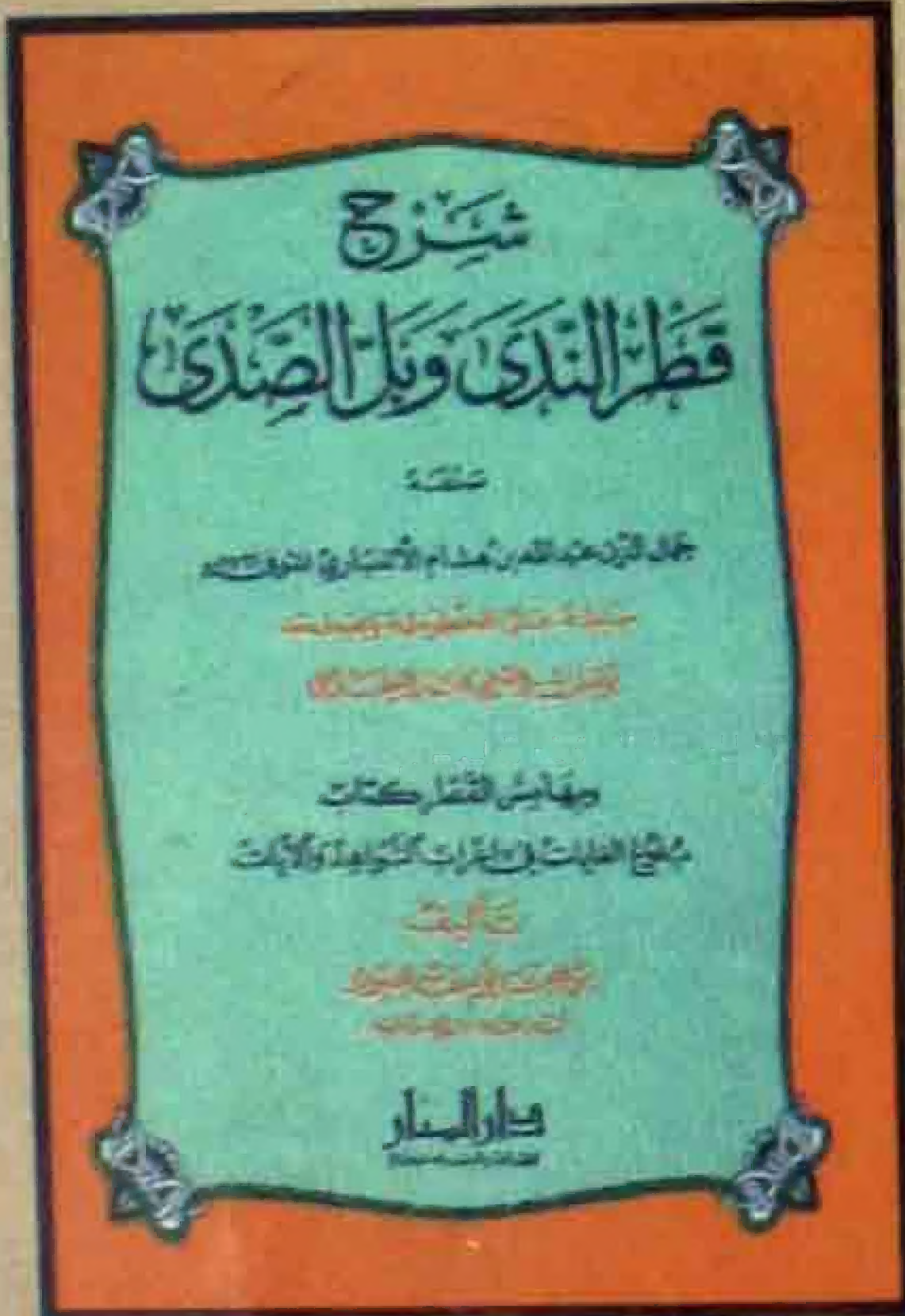
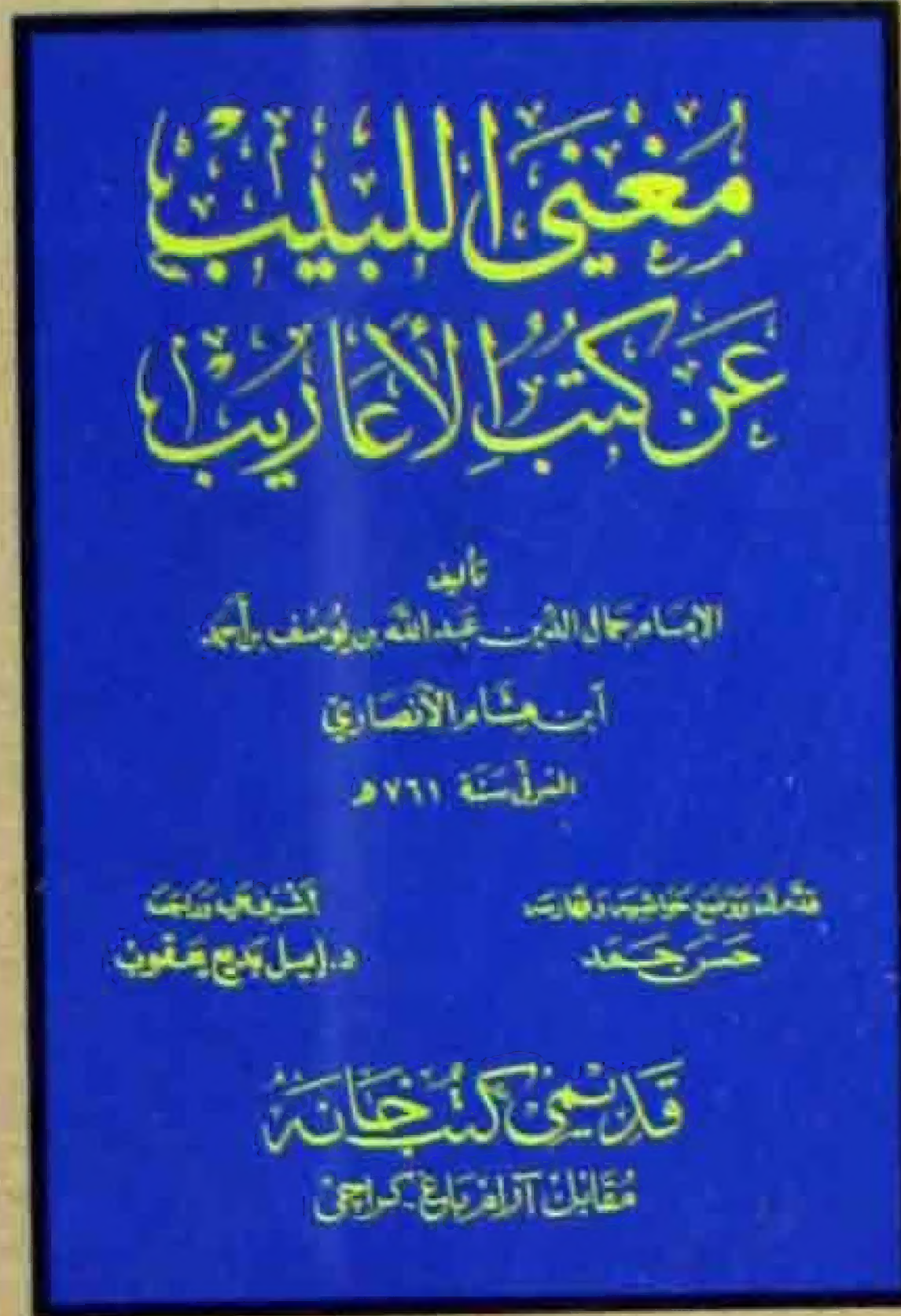
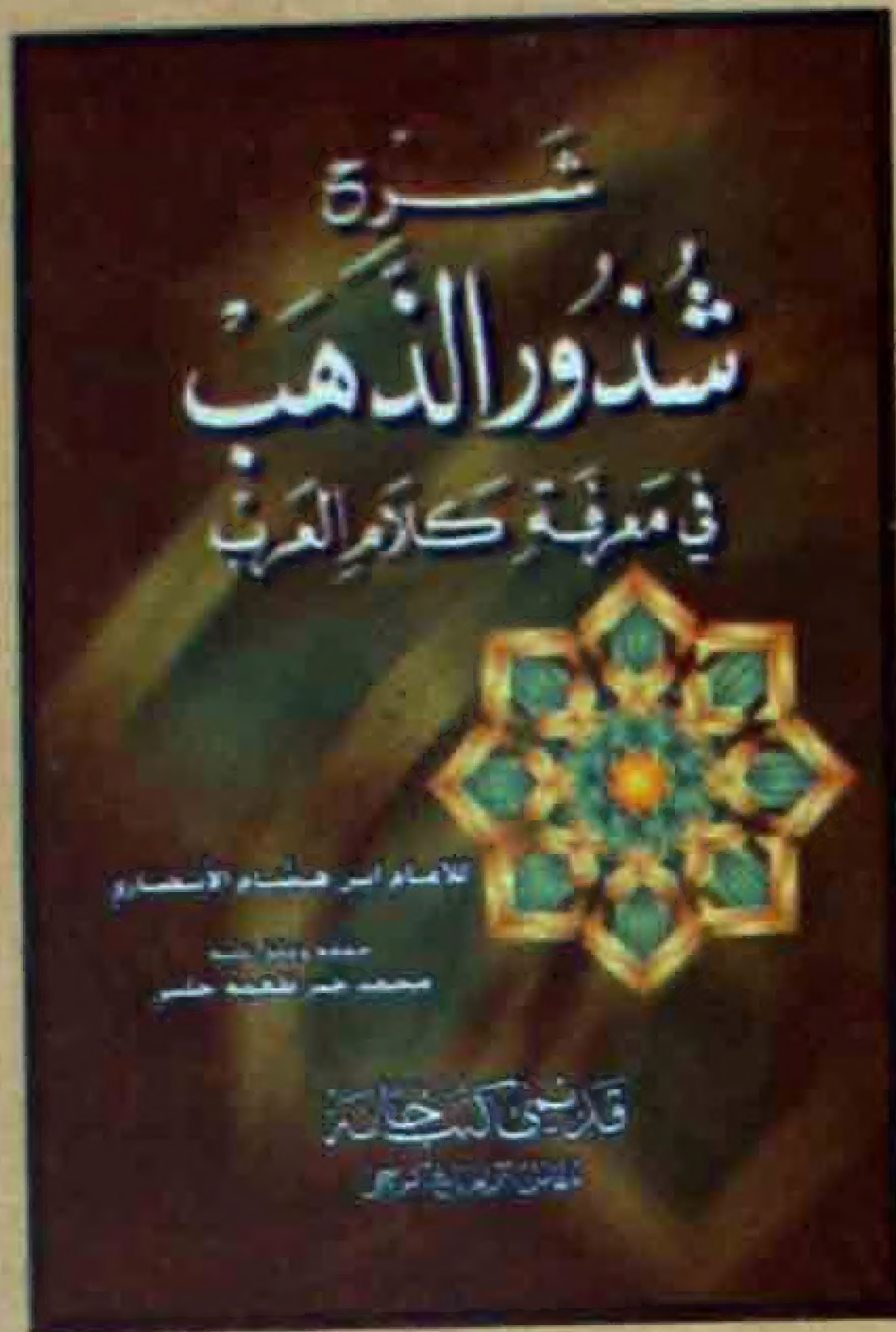
شُرُوحُ
شُدُورِ الذَّهَبِ
فِي مَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ

تصنيف
جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري
المتوفى ٧٦١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّاهُ عَلَيْهِ
محمد خير طعنة حلي

قد سمي كُتُبُ خَانِدَرُ
مُقَابِلُ آفَاقِ بَاغِ كَراچي

ہماری دیگر مطبوعات



تذری کتب خانہ - مقابل آرام باغ کراچی